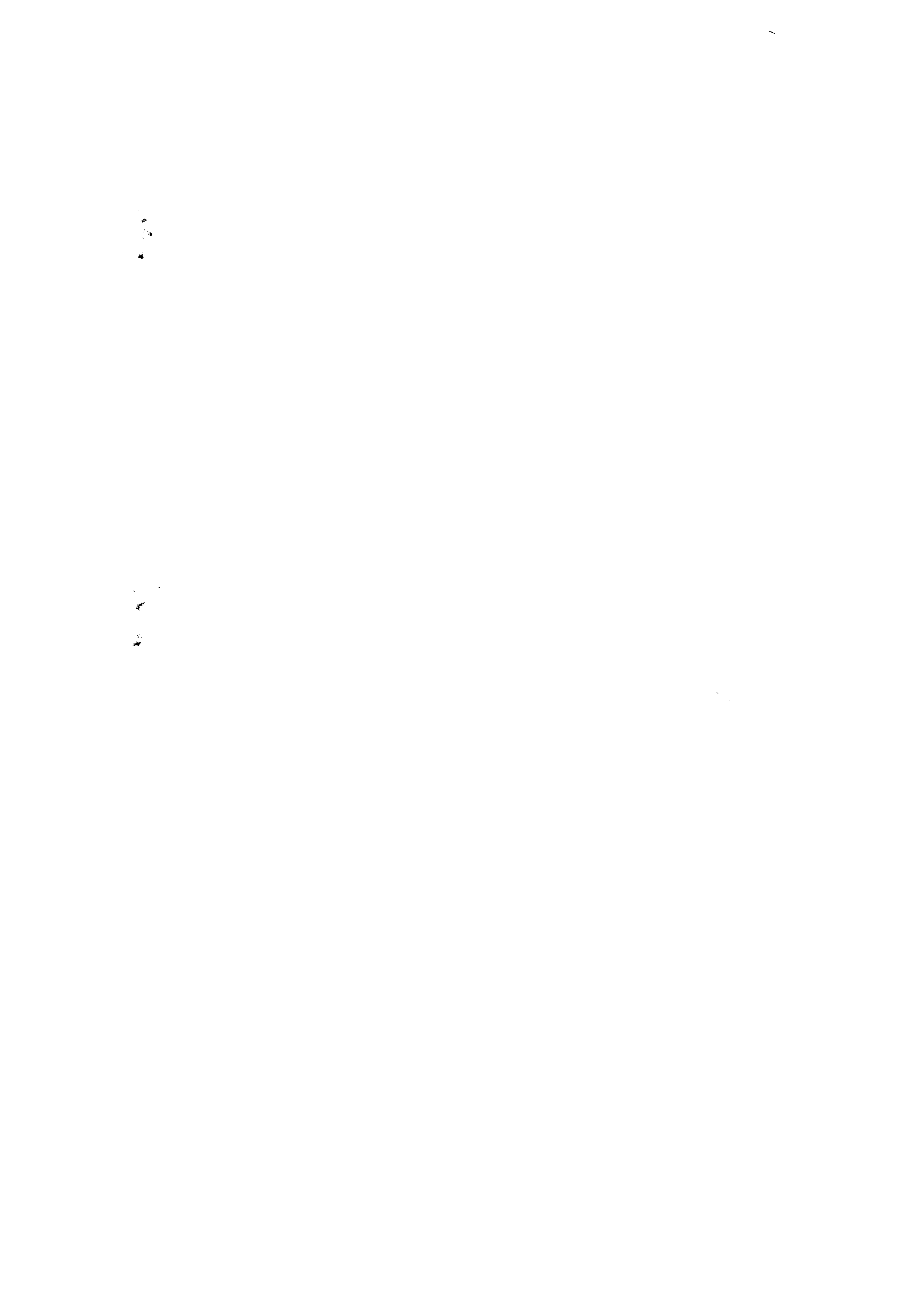
دكتــور
صـــلاح روّاي
أستاذ علوم اللغه بكلية دار العلوم - جامة القاهرة

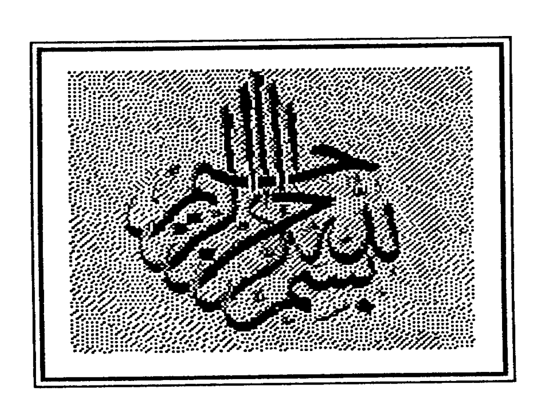
فِقهُ اللّغَةِ

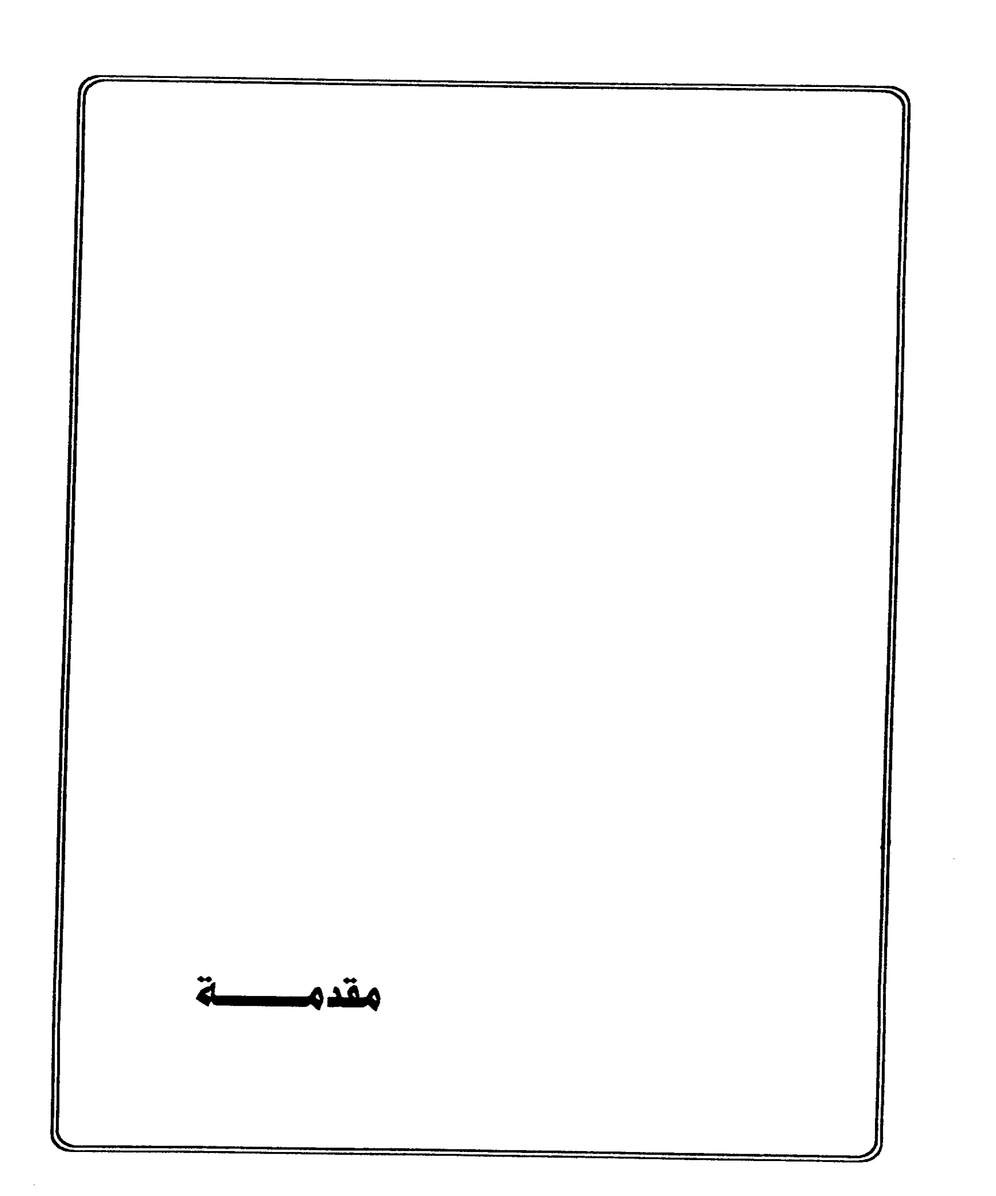
وخصـائص العــربية ... وطــرائق نموهـا

الطبعة الأولي

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمـــــة

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد .

فحينما عُهِد إليّ بتدريس مادة (علم اللغة) بمعهد السلطان قابوس العالى للدراسات الإسلامية ، بولاية صحار من سلطنة عمان ، ولم يكن متوفراً بأيدى الطلاب ، ولا بمكتبة المعهد ، ولا بغيرها من المكتبات العامة من المصادر أو المراجع ما يمكن للطلاب أن يسترجعوا فيه ما يُلْقَى عليهم من محاضرات فى هذه المادة الجديدة عليهم كل الجدة ، والتي لم يسبق لهم عهد بها ؛ فقد عمدت إلى إخراج هذه الدراسة – بعون من الله وفضل – لأسد بها نقصاً واضحاً ، وأرد بها فقراً ظاهراً فى المؤلفات والمصنفات التى تعنى بدراسة اللغة بصفة عامة ، ودراسة العربية على وجه الخصوص .

وقد جعلت هذه الدراسة فى خمسة مباحث وثلاثة أبواب ، كل باب يشتمل على ثلاثة فصول ، فضلاً على المقدمة والخاتمة .

فقد تناولت فى المبحث الأول كلا من المصطلحين (فقه اللغة) و (علم اللغة) من حيث نشأة كل منهما ، وتطوره لدى علماء اللغة من العرب والأجانب ، ودلالته ، والموضوعات التى يعنى كل منهما بدراستها ، والبحث فيها ؛ بينما خصصت المبحث الثانى للحديث عن مصطلح (فقه اللغة) بصفة خاصة ، من حيث اشتقاقه والموضوعات التى أدرجها تحته اللغويون العرب ، حيث كانت نشأته على أيديهم من أول أمره .

أما الباب الأول الذى عنونت له باسم (اللغـة) ، وقدمت له بتمهيد خاص ، فقد قسمته إلى فصول ثلاثة ، تناولت فى أولها : نشأة اللغة فى رأى

علماء اللغة العرب والأوروبيين . وأوجه الخلاف بينهم ، وتحدثت فى الفصل الثانى عن : فصائل اللغات وتقسيماتها .

وفى الفصل الثالث تحدثت عن اللغات السامية - بوجه خاص - وأبرزت أهم خصائصها التى تميزها عن غيرها من الفصائل الأخرى ، مما يعد منطلقاً للدخول فى الباب الثانى حيث الحديث عن اللغة العربية كإحدى اللغات السامية .

وجئت إلى الباب الثانى ، فقصرته برمته للحديث عن (اللغة العربية) ، حيث قسمته إلى ثلاثة فصول ، تكلمت فى أولها عن اللغات العربية البائدة ، وفى الثانى تناولت بالحديث اللغات العربية الباقية ؛ أما الفصل الثالث فقد قصرته على إبراز خصائص اللغة العربية ، التى تفردت بها دون أخواتها الساميات ، بل دون غيرها من اللغات .

أما الباب الخاتم للدراسة ، وهو الباب الثالث ، فقد جعلته للحديث عن طرائق النمو ، ووسائل التوسع فى اللغة العربية ، كالقياس ، والاشتقاق ، والنحت ، والترادف ، والتضاد ، والاشتراك اللفظى ، والاقتراض ... الخ .

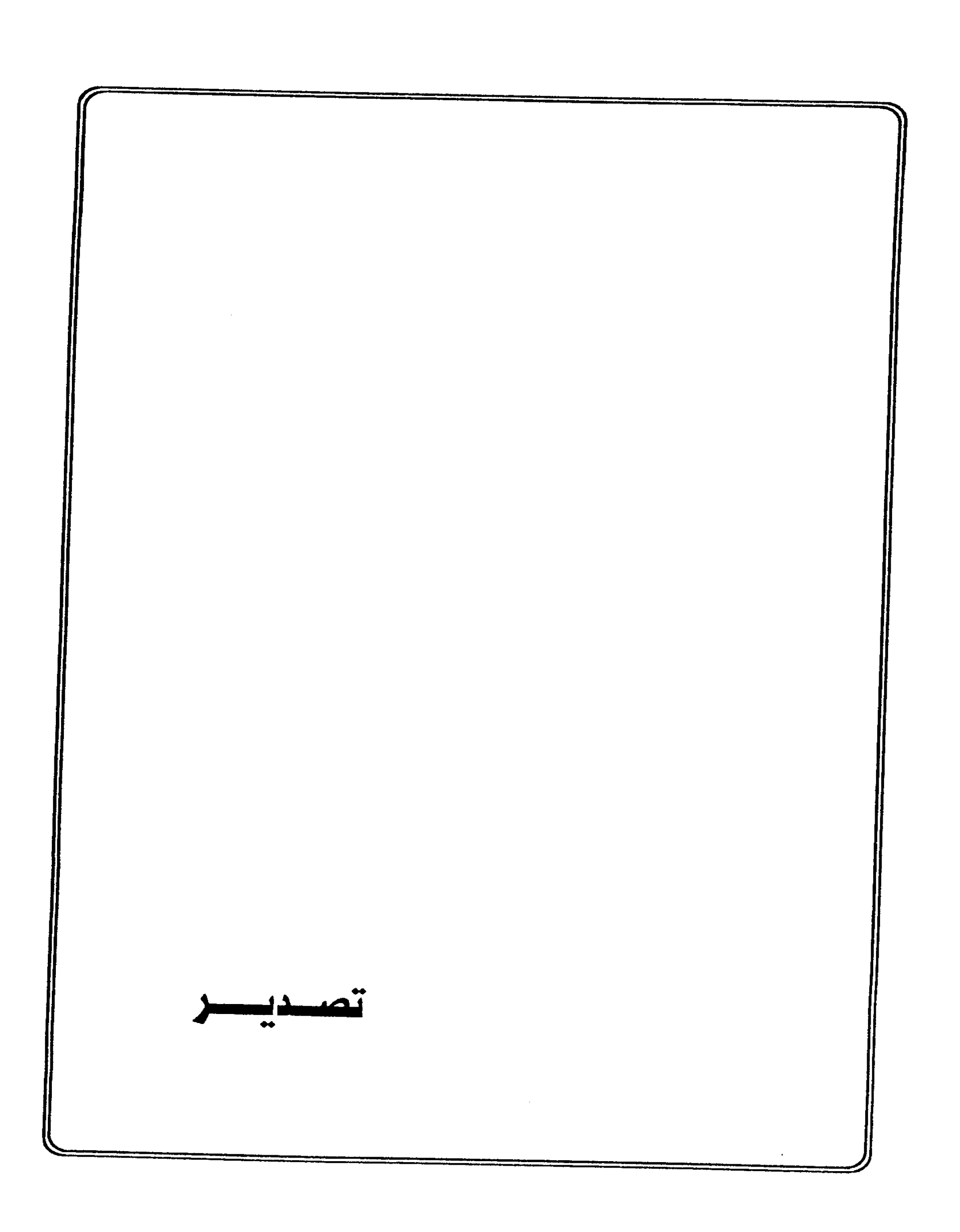
ونظراً لندرة المصادر والمراجع التى توفرت لى ، وأنا بصدد إخراج هذه الدراسة ، لا يسعنى إلا أن أنوه بما وقعت عليه يدى من المؤلفات والمصنفات التى رجعت إليها ، لأوثق بها بعضاً مما ورد بهذه الدراسة من معلومات أو قضايا ، بل ربما اعتمدت عليها اعتماداً مباشراً فى إثبات بعض الحقائق العلمية ؛ منها : كتاب (الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها) لابن فارس القزوينى ، وكتاب (المزهر فى علوم العربية وأنواعها) لجلال الدين السيوطى ، و (من أسرار اللغة) و (دلالة الألفاظ) و (الأصوات اللغوية) للدكتور ابراهيم أنيس ، و (فقه اللغة) و (علم اللغة) للدكتور على عبد الواحد وافى ، و (فقه اللغة فى الكتب العربية) للدكتور عبده الراجحى ،

و (فقه اللغة العربية وخصائصها) للدكتور إميل بديع يعقوب ، و (فى فقه اللغة العربية) للدكتور ناجح عبد الحافظ مبروك ... إلى غير ذلك مما هو مذكور بثبت المصادر والمراجع فى نهاية الدراسة ؛ واستميح الزملاء الأفاضل عذراً إن وقعوا على نص منقول ، أو رأى مقتبَس ، لم أعزه إلى صاحبه أو مصدره بدافع السهو أو النسيان ، ويمكن استدراكه فى طبعة تالية إن شاء الله .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، ويجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة . إنه هو نعم المولى ونعم النصير .

صُحَار فى : غرة المحرم ١٤١٤ هجرية
٢١ يونية ١٩١٣ ميلادية

دكتور
صــلاح روّاى



تصدير

تصدير

يقول الله – تبارك وتعالى – فى التنزيل الكريم : « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ »[1] . وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بـ (الأمانة) – والله أعلم بمراده – : العقل ؛ والعقل من لازمه التفكير والإدراك ، حتى قال بعضهم : الإنسان حيوان مفكِّر .

وترتيباً على تزويد الله – عز وجل – الإنسان بالعقل والتفكير والإدراك ، كان ذلك النوع – الإنسان – أكثر أنواع الحيوان رقياً ، وأوسعها إدراكاً ؛ وقد استلزم هذا الإدراك ، أن تعددت مطالبه ، وكثرت حاجاته ، بحيث أصبح عاجزاً عن توفير هذه المتطلبات ، وتلك الحاجيات بمفرده . ومن ثم بات من المقطوع به حاجته الماسة إلى ضروب من التعاون والتفاعل مع بنى جلدته ، سعياً إلى تحقيق أغراضه ، وتوفير متطلباته وحاجياته ؛ ومن البديهى[2] أن مثل هذا التعاون والتفاعل لا يتم إلا عن طريق التفاهم بين المتعاونين ، حتى يعلم كل ما يدور فى فكر الآخر ، ويعتمل فى نفسه ، وما يطلبه منه ، وما يمكن أن يقدمه إليه . ومن ثم كان الإنسان فى أمس الحاجة إلى وسيلة لتوفير هذا التفاهم ، فمن الله – تعالى – عليه ، ومنحه قوة النطق ، والقدرة على الكلام ، وهو أخصر طريق للإفهام ، وأوفاه بالغرض المراد ، ومنه برز احتياج الإنسان إلى اللغة .

ولما كانت مدارك الإنسان قد بدأت فى صورة ضئيلة وبسيطة ، فقد اكتفى فى التعبير عنها بما يناسبها من الوسائل ضآلة وبساطة ، فبدأت

---

(١) سورة الأحزاب : من الآية ٧٢ .

(٢) يذهب بعض الكتاب إلى أن يقول : البدهى ، والطبعى ، وهذا خطأ ، إذ الصحيح : البديهى ، والطبيعى ، حيث يقول ابن قتيبة أنه لو كان المنسوب إليه مشهوراً من شخص أو قبيلة ، حذفت منه الياء ، وإن لم يكن كذلك لم تحذف . (أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة) .

وسيلة التفاهم بما لا يعدو المقطع الصوتى الواحد ، أو العدد القليل من المقاطع ، وقد يستعين معه بشىء من الإشارات أو الإيماءات ، ثم أخذت هذه المدارك تتسع تدريجياً تبعاً لاتساع حياة الإنسان نفسها ، وتنوع اهتماماته ، فأخذت المقاطع الصوتية تتعدد وتزداد كلما تعددت حاجياته ، وازدادت متطلباته ، ثم أصبحت المقاطع تتداخل ، وتتكيف بحسب قدرته ، فوصل بعضها ببعض ، أو فصل بعضها عن بعض ، حتى تكونت منها الحروف التى أمكن حصرها على مر الأزمان والدهور ، فكان منها فى نهاية الأمر ما أمكن أن يطلق عليه اسم (اللغة) .

وفى هذا يقول ابن سِيدَه[1] : « فإن الله - عز وجل - لما كرّم هذا النوع الموسوم بالإنسان ، وشرّفه بما آتاه من فضيلة النطق على سائر أصناف الحيوان ، وجعل له رسماً يميزه ، وفضلا يبينه على جميع الأنواع فيحوزه : أحوجه إلى الكشف عما يتصور فى النفوس ، من المعانى القائمة فيها ، المدركة بالفكرة ، ففتق الألسنة بضروب من اللفظ المحسوس ليكون رسماً لما تصور وهجس من ذلك فى النفوس »[2] .

ولا ريب أن اللغة التى نتجت عن كل ما تقدم من مراحل . كانت لغة بسيطة جداً ، قابلة لكل أنواع التغيير والتبديل ، والتحريف ، والاستنباط ، والزيادة والتعديل ، تبعاً لاختلاف ضروب الحياة ، وتنوع وسائل المعيشة ، وتغير الأحوال والعادات .

ولقد انعقد إجماع علماء اللغة على أن هذه اللغة البسيطة جداً ، كانت هى الأساس الذى انطلقت منه كل لغات البشر ، وأطلقوا عليها اسم (أم اللغات) ، ثم تفرعت عنها اللغات تبعاً لتفرق الناس ، وتغير أحوالهم ، وما دخل كل لغة

---

(١) أبو الحسن على بن اسماعيل المعروف بابن سيده ، نحوى لغوى من أهل الأندلس ، من أهم مؤلفاته معجم « المخصص » و« المحكم والمحيط الأعظم » ، توفى سنة ٢٨٥ هجرية .

(٢) أنظر : مقدمة المخصص : ٢/١ .

من تغيير وتحريف ، واستنباط وتعديل .

وقد ألقى الميجور « كوندر » بحثاً لغوياً فى جمعية فيكتوريا الفلسفية ، عن العلاقة بين اللغات السامية والآرية والمغولية ، وبين اللغتين القديمتين الأكدية والمصرية ، أثبت فيها أن الأصول المتشابهة بين هذه اللغات ، تدل على أنها من أصل واحد ، وقد أيد بحثه بذكر أربعة آلاف كلمة من هذه اللغات لإثبات هذه المشابهة [1] .

---

(١) نشر البحث بمجلة « المقتطف » المصرية – العدد ١٧ ص ٥٦٤ وما بعدها ، وقد أشار إليه الشيخ أحمد رضا فى تصدير معجمه « متن اللغة » .

المبحث الأول

فقه اللغة .. وعلم اللغة

المبحث الأول

فقه اللغة .. وعلم اللغة

ظهر مصطلح (فقه اللغة) لأول مرة على ألسنة اللغويين العرب ، وفى مؤلفاتهم ومصنفاتهم خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وذلك حينما ألف ابن فارس القزوينى[1] كتابه (الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها)[2] ، وتبعه أبو منصور الثعالبى[3] ، فألف كتابه (فقه اللغه وسر العربية)[4] .

ولا يعنى ذلك أن العرب لم تعرف دراسة اللغة ، وعلومها ، وبحث قضاياها إلا حينما ظهر هذان الكتابان ، حيث كانا مسبوقين بالكم الوفير من المؤلفات والمصنفات التى تعرضت لهذه الدراسات اللغوية وإن لم تحمل على غلافها مصطلح (فقه اللغة) ، كالمصنفات فى الدراسات النحوية ، والصرفية ، والبلاغية ، والمعجمية ، والقراءات القرآنية ، وغيرها ، كما صنف بعدهما لغويون آخرون مصنفات هى أكثر تمثيلاً ، وأشد اتفاقاً مع المعنى الحقيقى

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى الرازى ، ولد سنة ٣٣٢ هجرية فى قزوين ، أحد أئمة اللغة والأدب ، قرأ عليه بديع الزمان الهمزانى ، والصاحب بن عباد ، وغيرهما ، ألف معجمى (المجمل) و (مقاييس اللغة) ، والصاحبى فى فقه اللغة ، توفى بالرى سنة ٣٩٥ هجرية . (أنظر : الأعلام : ١/١٩٣) .

(٢) سماه ابن فارس (الصاحبى) لأنه لما ألفه ، أودعه خزانة الصاحب بن عباد الذى كان وزيراً لمؤيد الدولة ، تجملاً بذلك وتحسناً . (أنظر : الصاحبى : ٢٩) .

(٣) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى ، ولد بنيسابور سنة ٤١٥ هجرية ، نبغ فى اللغة والأدب والتاريخ ، ألف : يتيمة الدهر ، وفقه اللغة وسر العربية ، وسحر البلاغة ، وطبقات الملوك ، وغيرها ، توفى سنة ٤٩٢ هجرية . (أنظر الأعلام : ٤/١٦٣) .

(٤) سماه الثعالبى (فقه اللغة) وفقاً لاختيار الأمير أبى الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى الذى أهداه إليه ، وهذا العنوان يصدق على الجزء الأول من الكتاب ، ثم زاد عليه الثعالبى عبارة (وسر العربية) وهى ما تصدق على الجزء الثانى منه . (أنظر : فقه اللغة وسر العربية : ١٢) .

لفقه اللغة بمفهومه الحديث ، وإن لم يعنونوا لها باسم (فقه اللغة) ؛ فقد ألف ابن جنى[1] كتاباً فى علوم اللغة ، وخصائصها ، وبحث قضاياها ، سماه (الخصائص)[2] ، وبعده ألف السيوطى[3] كتاباً فى ذلك سماه (المزهر فى علوم اللغة وأنواعها)[4] .

وإذا أمعنا النظر ، ودققنا الفكر فيما تناوله اللغويون العرب فى مؤلفاتهم ومصنفاتهم ، وقفنا على أنهم تناولوا بالدرس اللغة من كل جوانبها - على تخالف يسير فى المنهج - إذ تناولوا ماهية اللغة ، ونشأتها ، وأتوقيف هى أم اصطلاح ؟ وانشعابها إلى لغيات ولهجات ، كما تناولوا بالدراسة قضايا النحو ، والصرف ، والأصوات ، والبلاغة ، والدلالة ؛ وإن كان كل تناولهم منحصراً فى اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، إلا فيما ندر من المقارنة بين ألفاظها وتراكيبها بأخواتها الساميات كالعبرية ، والآرامية .

وصفوة القول أن الدرس اللغوى عند العرب كان ذا اتجاه وصفى موضوعى ، إذ يعتمد على اللغة الحية المنطوقة ، التى كانت بالدرجة الأولى لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، ومن ثم كان اهتمامهم بالأصوات أكثر من اهتمامهم بالحروف ، إذ وجهوا جل اهتمامهم إلى تحليل

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى ، ولد بالموصل ، من أئمة اللغة والأدب ، ألف : الخصائص ، والمحتسب ، وسر صناعة الإعراب ، واللمع ، والتصريف الملوكى ، وغيرها كثير . توفى ببغداد سنة ٣٩٢ هجرية . (أنظر : الأعلام : ٤/٢٠٤) .

(٢) ألفه ابن جنى وأهداه إلى المؤيد بهاء الدولة المهدى الذى كان أميراً على الحلة وبادية العراق . (أنظر : مقدمة الخصائص) .

(٣) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، ولد سنة ٨٥١ هجرية ، نشأ يتيماً ، وتربى فى القاهرة ، ولما بلغ الأربعين خلا بنفسه ، وانقطع إلى التأليف ، فألف نحو ستمائة مؤلف منها : الجامع الصغير ، وهمع الهوامع ، والمزهر ، توفى بالقاهرة سنة ٩١١ هجرية . (أنظر : الأعلام : ٣٠١/٢) .

(٤) حققه محمد البجاوى ، ومحمد جاد المولى

أصواتها ، وألفاظها ، وتراكيبها ، للوقوف على ما توحى به من دلالات ، إلى جانب بعض الموضوعات التى تندرج تحت اسم (فلسفة اللغة) كالبحث فى ماهيتها ، ونشأتها ، وانشعابها إلى لهجات ، وغير ذلك .

هذا ما كان عليه (فقه اللغة) عند اللغويين العرب ، والذى كان أهم ما يميزه أنه يقوم على دراسة لغة حية منطوقة ، تحتل الأصوات فيها المرتبة الأولى من الاهتمام ، بينما تأتى العناية بالحروف فى المرتبة الثانية .

فقه اللغة عند الغربيين :

كان أول منهج لغوى يمكن أن يطلق عليه اسم (فقه اللغة) هو ذلك الذى تبنته جامعة الاسكندرية - مدرسة الاسكندرية القديمة - فى القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث وجهت جل اهتمامها إلى شرح القصائد اليونانية القديمة مثل (الإلياذة) و (الأوديسا) لهوميروس ، وغيرهما ، حتى تكون فى متناول أفهام عامة الدارسين[1] ، وإن كان ذلك العمل من جانب جامعة الاسكندرية ، قد سبقته دراسات أخرى ولكنها غير ناضجة ، أو قل إن شئت : بدايات لدراسة اللغة ، كما كانت مقصورة على دراسة كل جماعة للغتهم الخاصة ، كما كانت هذه الدراسات متأثرة بالظروف الاجتماعية والفكرية والدينية فى كل بيئة .

فقد درس اليونانيون القدامى اللغة اليونانية ، ولكن بطريقة تجريدية فلسفية ، وتأثرت بالمنطق الأرسطى ، ولذا كان جل اهتمامهم منصباً على بحث الموضوعات التى تندرج تحت اسم (فلسفة اللغة) مثل : نشأة اللغة ، والعلاقة بين اللغة والفكر ، والعلاقة بين الأسماء والمسميات ... الخ .

---

(١) فقه اللغة فى الكتب العربية د. عبده الراجحى : ١٢ .

كما درس اللغويون الهنود اللغة الهندية ، متمثلة فى كتابهم المقدس ، حيث توفروا على ضبط نصوصه ، وتحديد طرائق قراءته ؛ ومن ثم كانت دراستهم للغة تتخذ منهجاً وصفياً تقريرياً ؛ وقد احتل منهج الهنود هذا مكانة مرموقة فى تاريخ الدرس اللغوى عند الغربيين .

وظل الأمر على هذا النحو حتى كانت العصور الوسطى ، حيث انحصرت الدراسات اللغوية فى اللغتين اليونانية واللاتينية ، إذ كانت اللغة اللاتينية وسيلة لكسب الاحترام والتقدير بين أفراد المجتمع باعتبارها أصل اللغات الهند أوروبية ، والتى تفرعت عنها بقية لغات هذه المجموعة ؛ ثم انضمت إليهما لغة ثالثة هى اللغة العبرية التى كان الناس يرون أنها أصل اللغات جميعاً ، وأنها لغة الجنة[1] . وظلت دراسة اللغة تدور فى هذا الفلك الاجتماعى الفلسفى الدينى حتى بدأت تباشير القرن التاسع عشر فى الظهور .

ففى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى اكتشفت اللغة السنسكريتية - لغة الهند القديمة - التى كان اكتشافها مؤذناً بتحول الدراسة اللغوية إلى منعطف جديد ، يقوم على دراسة النصوص القديمة ، وتحليل أشكالها المكتوبة ، ومن ثم اتخاذ اللغة وسيلة لدراسة الحياة الثقافية والفكرية عند الأمم .

فقد أعلن الأب كوردو Pére Caston Laurent Coerdoux سنة ١٧٦٧م أن ثمة صلات ووشائج تجمع بين السنسكريتية ، واليونانية ، واللاتينية ، إلا أن إعلانه هذا لم ينشر إلا بعد عشرين سنة ، إذ كان السير وليم جونز W. Jones الذى كان يعمل قاضياً بالمحكمة العليا فى البنغال قد أعلن سنة ١٧٨٦م أن هذه اللغات الثلاثة تنتمى - فى أصولها - إلى لغة واحدة[2] .

---

(١) المصدر السابق : ١٣ .

(٢) فقه اللغة فى الكتب العربية : ١٣-١٤ .

وكان هذا الإعلان من جانب كوردو ، وجونز بمثابة الشرارة التى ومضت فى أذهان اللغويين الغربيين ، وألقت إليهم بفكرة المقارنة بين اللغات ، فعمدوا إلى تقسيمها إلى سلالات ، ووضعوها جميعاً على بساط البحث والدرس والمقارنة ، دون النظر إلى مكانتها الاجتماعية كاللاتينية ، أو الدينية كالعبرية .

فقد أصدر العالم الألمانى شليجل Friedrich Von Schlegel سنة ١٨٠٨م كتاباً بعنوان (عن اللغة والمعرفة عند الهنود) دعا فيه إلى فكرة (النحو المقارن) .

كما أصدر بوب Franz Popp سنة ١٨١٦م كتاباً بعنوان (عن نظام التصريف فى اللغة السنسكريتية مقارناً به فى كل من اليونانية ، واللاتينية ، والفارسية ، والجرمانية) .

وفى سنة ١٨١٨م أصدر اللغوى الدانمركى راسك Rasmus Rask كتاباً باللغة الدانمركية ، حاول فيه أن يصل إلى الأصول الأولى للغة الأيسلندية القديمة عن طريق مقارنتها بعدد كبير من اللغات الهند أوروبية .

كما أصدر العالم الألمانى جريم Jacques Louis Grimm كتاباً عن النحو الألمانى ، يعد خطوة ثابتة على طريق النحو التاريخى ، كما دعا فيه إلى توسيع دائرة البحث فى اللغة ، حيث أدخل فيها دراسة اللهجات ، والآداب الشعبية ، بهدف التوصل إلى معرفة الحياة الثقافية والفكرية للأمة .

كما أصدر بوب سنة ١٨٣٣م كتاباً آخر عن النحو المقارن للسنسكريتية ، والسندية ، والأرمينية ، واليونانية ، واللاتينية ، واللتوانية ، والسلافية القديمة ، والقوطية ، والألمانية[١] .

---

(١) راجع : علم اللغة د. وافى : ٥٤ .

كانت هذه هى المعالم الرئيسية لتطور الدرس اللغوى عند علماء اللغة الغربيين فى القرن التاسع عشر ، والتى نخلص منها إلى :

١ - أن اللغة السنسكريتية كانت هى المسيطرة على ميدان الدراسة اللغوية ، حيث كانت هى الأساس الوحيد لفقه اللغة ، وأنها تعد المرشد الوحيد الصحيح له ، إذ أدت إلى دراسة النصوص القديمة فى أشكالها المكتوبة ، وإلى اتخاذ اللغة وسيلة لدراسة الثقافة بصفة عامة ، وإلى تصنيف اللغات تصنيفاً سلالياً .

٢ - أخذت دراسة اللغة تنهج منهج المقارنة بين اللغات .

٣ - اقتصرت الدراسة اللغوية خلال هذه الفترة على مجموعة اللغات الهند أوروبية دون غيرها من اللغات .

٤ - ظهرت بدايات الاهتمام بدراسة الكلمة وتطورها ، مما أسلم فيما بعد إلى ظهور الدراسة التاريخية للغة .

٥ - اقتصرت الدراسة اللغوية فى هذه الفترة - فى الأعم الأغلب - على دراسة اللغات القديمة المكتوبة - الميتة - ، ومن ثم حظيت الحروف فيها بالنصيب الأوفر من الاهتمام ، بينما لم تظفر الأصوات إلا بالنذر اليسير .

٦ - اكتشف اللغويون أن موضوع دراستهم مختلف تماماً عن موضوع (فقه اللغة) ، فبينما كان (فقيه اللغة) ينظر إلى اللغة باعتبارها جزءاً من ثقافة أمة ، نظر إليها (عالم اللغة) باعتبارها موضوعاً طبيعياً قائماً بذاته ، ينبغى أن ينفرد بدراسة خاصة[1] .

---

(١) فقه اللغة فى الكتب العربية : ١٨ .

ومع نهايات القرن التاسع عشر ، كانت الدراسات قد نضجت ، وآذنت بأن تؤتى أكلها ، حيث بدأت تتضح سمات (علم اللغة) ، وتتجسد معالمه ، وتبرز حدوده ؛ حين أعلن دى سوسير Ferdinand de Saussure أن موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة فى ذاتها ، ومن أجل ذاتها . أى أن علم اللغة لا يدرس لغة معينة ، وإنما يشمل كل ظواهر الكلام الإنسانى ، سواء أكان لمتحضرين أم بدائيين ، وسواء أكان ذلك فى حقبة قديمة أم معاصرة ؛ وأنه يدرس اللغة لذاتها ، لا باعتبارها وسيلة لغاية أخرى ، كدراسة الثقافة والآداب ، بغرض التعرف على مدى تقدم أمة من الأمم أو انحدارها[١] .

ثم توطدت دراسات دى سوسير وتدعمت بما قام به العالمان الأمريكيان بلومفيلد Leonard Bloomfield ، وسابير Edward Sapir من دراسات فى هذا الاتجاه – على خلاف بين ثلاثتهم فى طريقة تناول المادة موضوع الدراسة ، تبعاً لدرجة تأثر كل منهم بالمناهج العلمية السائدة آنذاك ، وإن التقوا جميعاً فى الغاية والهدف المرجوين من الدراسة .

وقد أخذت دراسة اللغة على هذا النحو اسم (العلم Science) باعتبار أن اللغة مادة محسوسة ، تدرس بصورتها التى هى عليها فعلاً ، لا كما يجب أن تكون ، دون التعرض للأمور الفلسفية الجدلية كالبحث فى نشأتها ، والوقوف على أصول اللغة الأم ، ومعرفة أفضلية لغة على أخرى ، ونحو ذلك ؛ لأن العلم يقتضى توافر مادة صالحة للبحث ، حتى يمكن التوصل إلى القوانين التى يتحراها المنهج العلمى ، ويسعى إلى إثباتها[٢] .

وبعد هذا العرض المسهب ، والمعايشة الميدانية للجهود المخلصة التى بذلها علماء اللغة من العرب والغربيين فى دراسة اللغة وما يتصل بها ، يتسنى

---

(١) المصدر السابق : ١٩ .

(٢) فقه اللغة فى الكتب العربية : ١٩ .

لنا – على وجه من التثبت ، وعلى جانب من اليقين – أن نسوق تعريفاً جامعاً دقيقاً لكل من (فقه اللغة) و (علم اللغة) ، يوضح ما قد يكتنفهما من خلط ، ويزيل ما قد يشوبهما من لبس ، فنقول :

فقه اللغة : هو دراسة اللغة باعتبارها وسيلة لدراسة الحضارات القديمة ، والآداب الموروثة ، عن طريق تقسيم اللغات إلى فصائل وسلالات ، والمقارنة بينها ، وتحليل النصوص القديمة ، بهدف الوقوف على ما تدل عليه من مضامين حضارية وإنسانية ؛ أى أنه منهج معيارى تعليلى .

علم اللغة : هو دراسة اللغة باعتبارها غاية فى ذاتها ، عن طريق وصفها ، ودراسة إمكاناتها ومعطياتها ، من أصوات ، ونحو ، وصرف ، ودلالة ؛ أى أنه منهج وصفى موضوعى .

بناء على ما تقدم ، نرى أن دراستنا هذه تندرج تحت مصطلح (فقه اللغة) . إذ نتعرض فيها لدراسة اللغة من حيث : ماهيتها ، ونشأتها ، وانقسامها إلى فصائل وسلالات ، والمقارنة بينها ، وإلى أى الفصائل تنتمى اللغة العربية ، وانشعاب العربية إلى لهجات ، ثم خصائص اللغة العربية ... إلى غير ذلك من الموضوعات التى يعنى فقيه اللغة بالبحث فيها ودراستها .

ونظراً لأن اللغة العربية تحظى بالنصيب الأوفر من هذه الدراسة ، باعتبارها أقرب وألصق بأذهان الدارسين والباحثين العرب ، إذ هى لغتهم القومية ، ولغة كتابهم المقدس – القرآن الكريم – فقد ثنينا بذكر خصائصها ، وختمنا ببيان طرائق نموها وثرائها ، ومن ثم ؛ فقد وسمنا دراستنا هذه باسم (فقه اللغة ، وخصائص العربية ، وطرائق نموها) .

المبحث الثانى

فقـــه اللغـــة

إشتقاقه .. ودلالته



المبحث الثانى

فقـــه اللغـــة

اشتقاقه . ودلالته

الفقه - لغة : مصدر الفعل الثلاثى (فَقُهَ) - بكر العين وضمها - بمعنى : الشق ، والفتح ، تقول : فقُه الرجل فقهاً ، بمعنى : علم علماً ؛ قال ابن سيده فى (المخصص) : فَقُه فَقَاهَةً ، وهو فَقِيهٌ ، من قوم فُقَهَاءَ ؛ وقال بعضهم : فَقِه الرجل فِقهاً ، وفِقْهاً ، وفَقِه الشىء : علمه[1] .

وقد ورد فى القرآن الكريم فى قوله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي »[2] ، وقوله - سبحانه - : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ »[3] ، وقوله - عز من قائل - : « قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ »[4] . وقوله - جل وعلا - : « فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً »[5] ، وجاء فى الحديث النبوى : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »[6] .

واصطلاحاً: العلم بالشىء ، والفهم له .

وقد غلب اسم (الفقه) على علم الدين ، لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم ، وقال ابن الأثير : « وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة - شرفها الله تعالى - وتخصيصاً بعلم الفروع منها »[7] .

---

(١) أنظر : لسان العرب : ٥٢٢/١٣ .

(٢) سورة طه : من الآية ٢٧ .

(٣) سورة التوبة : من الآية ١٢٢ .

(٤) سورة هود : من الآية ٩١ .

(٥) سورة النساء : من الآية ٧٨ .

(٦) أنظر فى الحديث : الجامع الصغير للسيوطى .

(٧) لسان العرب : ٥٢٢/١٣ ، والمعجم الوسيط : ٦٩٨/٢ ، والخصائص : ٣٤/١ .

أما دلالة فقه اللغة ، ونعنى بها الظواهر اللغوية ، التى يتوفر على دراستها ، ويهتم بالبحث فيها ، مما يمكن أن يندرج - بصورة عامة - تحت اسم (علم اللغة) و (فقه اللغة) مع شيء من التجوز ، ويمكن حصر هذه الظواهر فيما يلى :

١ - أصل اللغة :

وقد يطلق عليه (نشأة اللغة) ، حيث يبحث فى نشأة اللغة الإنسانية ، والأشكال الأولى التى ظهر فيها التعبير ، والأدوار التى اجتازها هذا التعبير حتى وصل إلى مرحلة الأصوات ذات الدلالة الوضعية ، والأسس التى سار عليها الانسان فى ذلك ، والنماذج التى احتذاها فى وضع الكلمات ، وفى تعيين مدلولاتها ، إلى غير ذلك من البحوث التى تعالج اللغة فى أدوار نشأتها الأولى .

٢ - حياة اللغة وتطورها :

وهو دراسة كل ما يتعلق بحياة اللغة ، وما يطرأ عليها من غنى وفقر ، وسعة وضيق ، ورفعة وضعة ، وانقسامها إلى لهجات ، واستحالة هذه اللهجات إلى لغات مستقلة عن اللغة الأم ، وصراع اللغة مع غيرها من اللغات ، وما ينتج عن هذا الصراع من انتصار أو هزيمة ، وما قد يؤول إليه أمرها من شيخوخة وفناء ، أو سيادة واستقرار .

٣ - أصوات اللغة :

وهو دراسة الأصوات التى تتألف منها اللغة ، وبيان أقسامها وفصائلها ، وخواص كل قسم ، ومخارجه ، وما يعتمد عليه من أعضاء النطق ، واختلاف النطق بالأصوات باختلاف العصور والأمم الناطقة بها ، والعوامل المؤثرة فى ذلك .

٤ - دلالة اللغة :

وهو دراسة اللغة من حيث دلالتها ، أى من قبيل أنها أداة التعبير عما يجول بالخاطر ، ويعتمل فى النفس ؛ وينتظم علم الدلالة بحوثاً كثيرة ، قد استغل معظمها الآن ، وأصبح كل منها موضوع شعبة دراسية قائمة بذاتها ، إلا أن (فقه اللغة) يدرسها من جهة خاصة به ، لا تكاد تنفصم عنه ، ولا تنحل بمعزل عنه ، ومن هذه البحوث :

أ) **علم المعجم** : وهو الذى يعنى بالبحث فى معانى الكلمات ، ومصادر هذه المعانى ، على النحو الذى تسير عليه المعاجم اللغوية ، أما (فقه اللغة) فيدرسه من حيث اختلاف معانى الكلمات فى لغة ما ، باختلاف العصور والأمم الناطقة بها ؛ وموت بعض المعانى ، ونشأة معان جديدة ، والعوامل المسببة لكل هذه الظواهر .

ب) **علم الصرف** : ويطلقون عليه اسم (علم البنية) ، وهو الذى يعنى بالبحث فى القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات ، وتصريفها ، وتغير بنيتها تبعاً لتغير المعنى ، وهذا ليس من (فقه اللغة) فى شىء ، حيث يعنى (فقه اللغة) بدراسة هذه القواعد فى لغة ما ، دراسة تحليلية تاريخية ، فيدرس الأشكال التى كانت عليه فى أقدم مراحل هذه اللغة ، وما طرأ عليها من تغيير فى مختلف العصور والأمم ، وعوامل تطورها ، والقوانين التى تسير عليها فى مختلف مظاهرها ، وهذا ما يطلق عليه اسم (علم البنية التاريخى) .

كما يدرس (علم اللغة) هذه الظواهر البنيوية السابقة ، دراسة مقارنة فى فصيلة من اللغات الإنسانية ، أو فى جميع اللغات ؛ وهذا ما يطلق عليه اسم (علم البنية المقارن) .

جـ) **علم النحو**: ويطلقون عليه اسم (علم التنظيم) ، وهو الذى يبحث فى أقسام الكلم ، من اسم ، وفعل ، وحرف ؛ وأنواع كل قسم ، ووظيفته فى الدلالة اللغوية ، وأجزاء الجملة وترتيبها ، وأثر كل جزء فى الآخر ، وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض ، وطريقة ربطها .

وهذا – أيضاً – لا يدخل فى نطاق (فقه اللغة) ، وإنما ما يعالجه منه هو دراسة قواعد النحو فى لغة ما ، دراسة تاريخية تحليلية ، مما يطلق عليه اسم (علم النحو التاريخى) ، كما يدرسها دراسة مقارنة فى فصيلة من اللغات ، أو فى جميع اللغات ، مما يطلق عليه اسم (علم النحو المقارن) .

د) **علم الأسلوب**: وهو الذى يبحث فى أساليب اللغة ، واختلافها باختلاف فنونها من شعر أو نثر ، أو خطابة ، أو محادثة ، أو قصة ، أو مسرحية ... الخ ، واختلاف العصور والأمم الناطقة والطرق التى تسلكها الأساليب فى تطورها ، والقوانين الخاضعة لها ، وهذا ما يطلق عليه حديثاً اسم (الأسلوبية) .

وهذا الفرع يحتل من اهتمام (فقه اللغة) ما يحتله سابقاه ، حيث ما يهتم به (فقه اللغة) منه هو دراسة الأساليب فى لغة ما ، دراسة تاريخية تحليلية ، حيث يتعقبها فى مختلف مراحل هذه اللغة ، وفى مختلف العصور والأمم الناطقة بها ، وشرح تطورها ، والقوانين الخاضعة لها ، مما يطلق عليه اسم (علم الأساليب التاريخى) ؛ كما يدرس هذه الأساليب فى عدة لغات ، دراسة مقارنة ، مما يطلق عليه اسم (علم الأساليب المقارن) .

٥ - علم اللغة الاجتماعى:

وهو الذى يبحث فى العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية ، وأثر المجتمع ، وحضارته ، ونظمه ، وتاريخه ، وتركيبه ، وبيئته الجغرافية ، فى مختلف الظواهر اللغوية .

٦ - علم اللغة النفسي :

ويبحث فى العلاقة بين الظواهر اللغوية ، والحالات النفسية للمتكلمين بها ، من تفكير ، وخيال ، وتذكر ، ووجدان ، ونزوع ... الخ ، كما يدرس أثر الكوامن النفسية على الأداء الدلالى للغة ، مثل الايحاء ، والتأثير ، وإثارة الشعورونحوذلك[١] .

مناهج البحث فى اللغة :

إن عالم اللغة حين يدرس اللغة على المستويات السابق ذكرها ، ينتهج فى سبيل ذلك أحد مناهج ثلاثة هى :

المنهج الوصفى : ويطلق على الدراسة اللغوية حينئذ اسم (علم اللغة الوصفى Descriptive Linguistics) ، وهو يتناول بالدراسة لغة معينة ، فى فترة زمنية معينة ، فى بيئة معينة ، وبالحالة التى هى عليها فعلاً .

المنهج التاريخى : حيث تسمى الدراسة اللغوية (علم اللغة التاريخى Historical Linguistics) ، وهو يدرس لغة معينة ، من حيث تطورها ، والتغييرات التى تطرأ عليها على مر التاريخ ؛ وإذا كان من الممكن أن يوصف المنهج الوصفى بأنه منهج ساكن Static ، فإنه من الممكن أن يوصف المنهج التاريخى بأنه منهج حركى Dynamic .

المنهج المقارن : وتسمى الدراسة اللغوية من خلاله (علم اللغة المقارن Comparative Linguistics) وهو يدرس التقابلات المطردة والمنتظمة بين لغتين أو أكثر داخل الفصيلة اللغوية الواحدة[٢] .

---

(١) راجع : علم اللغة . د. على عبد الواحد دافى : ٦-١٣ .

(٢) أنظر : فقه اللغة فى الكتب العربية . د. عبد الراجحى : ٢١-٢٢ .

المنهج التقابلى : وهو أحدث المناهج التى دخلت نطاق الدراسة اللغوية ، إذ يطلق عليها من خلاله اسم (علم اللغة التقابلى Constructive Linguistics) وهو يدرس التقابلات المطردة والمنتظمة بين نظامين لغويين ، أى أنه لا يعنى بالمقابلة بين اللغات التى تندرج تحت فصيلة لغوية واحدة ، بل يقابل بين لغتين أياً كان انتسابهما[1] .

ولا شك أن المناهج الثلاثة الأخيرة تتخذ من المنهج الوصفى أساساً ومنطلقاً لها نحو دراسة اللغة ، إذ لا يمكن تطبيق أى من هذه الثلاثة على اللغة ، إلا بعد الانتهاء من تطبيق المنهج الوصفى عليها .

مما تقدم ، يتسنى لنا أن نجمل دلالة فقه اللغة فى الأغراض التى يرمى إليها من دراسته للظواهر اللغوية التى سبق بيانها ، دراسة تأريخية تحليلية مقارنة ، والتى تنحصر فيما يلى :

أ) الوقوف على حقيقة الظواهر اللغوية ، والعناصر التى تتألف منها ، والأسس القائمة عليها .

ب) الوقوف على الوظائف التى تؤديها اللغة فى مختلف مظاهرها ، وفى شتى المجتمعات الانسانية .

جـ) الوقوف على العلاقات التى تربطها بعضها ببعض ، والعلاقات التى تربطها بما عداها من الظواهر ، كالظواهر الاجتماعية ، والنفسية ، والتاريخية ، والجغرافية ، والطبيعية ... الخ .

د) الوقوف على أساليب تطور اللغة ، واختلافها باختلاف العصور ، والأمم الناطقة بها .

هـ) كشف القوانين التى تخضع لها اللغة فى جميع نواحيها ، والتى تسير عليها فى مختلف مظاهرها - فى تكوينها ، ونشأتها ، وأدائها لوظائفها - وعلاقاتها المتبادلة ، وعلاقاتها بغيرها ، وتطورها ... الخ .

---

(١) أنظر : علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة . د. محمود فهمى حجازى : ٩ ، والمصدر السابق .

الباب الأول

اللغة
اشتقاقها ونشأتها

الفصل الأول : نشأة اللغة
الفصل الثانى : فصائل اللغات
الفصل الثالث : اللغات السامية



الباب الأول

اللغـــــــــــة
اشتقاقها ونشأتها

أصل كلمة (لغة)

بناء على ما قدمه علماء المعاجم العرب ، من معالجة للفظة (لغة) ، تكون (لغة) كلمة عربية أصيلة ، ذات جذور عربية ، وتجرى فى اشتقاقها ودلالاتها على سنن الكلم العربية .

بينما ذهب فريق من التابعين إلى أن الكلمة منقولة من اللغة اليونانية ، حيث أخذها العرب من كلمة (لوجوس Logos) اليونانية ، ومعناها : الكلام أو اللغة ، ثم عرّبوها إلى (لوغوس) ، ثم أعملوا فيها من الإعلال والإبدال ، وغيرهما من الظواهر الصرفية ، على النحو الذى رسمه ابن جنى بقوله : « انتحاء سمت كلام العرب من إعلال أو إبدال أو حذف أو إعراب أو بناء » ، حتى اندرجت ضمن الكلم العربية على الوجه الذى نراه الآن ، ويستدل هذا الفريق لصحة ما ذهب إليه بعدة دلائل منها :

١ – التشابه الكبير بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، فيما عدا حرف (S) فى اليونانية علامة الجمع ، إذ أن الكلام عندهم عبارة عن جمع (كلمة) ؛ مع دلالة اللفظتين على معنى واحد هو (الكلام) .

٢ – عدم ورود لفظة (لغة) فى القرآن الكريم بالمعنى المعروف لدينا ، وإنما جاء القرآن الكريم ليعبر عن هذا المعنى فى أكثر من موضع بلفظة (اللسان) نحو قول الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ »[1] ، وقوله تعالى أيضاً : « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »[2] ، وقوله – عز من

---

(١) سورة ابراهيم : من الآية ٤ .

(٢) سورة الشعراء : من الآية ١٩٥ .

قائل - : « لِسَانُ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ »[١] ...

٣ - عدم ورود لفظة (لغة) فى الشعر الجاهلى ، أو النثر العربى ، إلا بعد قيام العرب بترجمة علوم الأمم الأخرى كالفرس ، والهند ، والأغريق (اليونان)[٢] .

أما (اللغة) فى الاصطلاح ، فقد قال ابن الحاجب[٣] فى مختصره : « حد اللغة : كل لفظ وضع لمعنى »[٤] .

وقال الإسنوى[٥] فى (شرح منهاج الوصول) : « اللغات : عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعانى »[٦] . وواضح أن الحد الذى ساقه الأسنوى هو الحد نفسه الذى ساقه ابن الحاجب ، غير أنه أورده بصيغة الجمع .

أما ابن جنى[٧] فيقول : « حد اللغة : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[٨] .

---

(١) سورة النمل : من الآية ١٠٣ .

(٢) فقه اللغة العربية للدكتور ناجح مبروك : ١٩ - ٢٠ .

(٣) عثمان بن عمر بن أبى بكر ، ولد بإسنا من صعيد مصر سنة ٥٧١ هـ ، وقد سمى بابن الحاجب ، لأن والده كان يعمل حاجباً لحاكم مصر « موسك الصلاحى » من حكام المماليك ؛ وهو من كبار علماء اللغة العربية ، ألف كثيراً فى النحو والصرف واللغة . توفى سنة ٦٤٦ هجرية . (بغية الوعاة : ١٣٤/٢) .

(٤) المزهر للسيوطى : ٨/١ .

(٥) جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوى ، ولد بإسنا من صعيد مصر أيضاً سنة ٧٠٤ هـ ، فنسب إليها ، من كبار علماء اللغة والأدب والفقه ، ألف فى الفقه والأصول والنحو : الكواكب الدرية ، وشرح الألفية ، وعروض ابن الحاجب ، توفى سنة ٧٧٢ هجرية (بغية الوعاة : ٩٢/٢) .

(٦) المزهر : ٨/١ .

(٧) أبو الفتح عثمان بن جنى ، من كبار علماء اللغة فى القرن الرابع الهجرى ، تتلمذ على أبى على الفارسى ، ألف فى النحو والصرف واللغة والعروض ، توفى سنة ٣٩٢ هجرية (إنباه الرواة : ٢٣٥/٢) .

(٨) الخصائص : ٧٣/١ .

ويعد تعريف ابن جنى هذا ، تعريفاً جامعاً مانعاً ، حيث تضمن العناصر الأساسية للغة . وهى كونها :

١ - نظاماً من الأصوات المنطوقة .

٢ - يستخدمها مجتمع من بنى الانسان .

٣ - تستخدم للتفاهم والتعبير عن المشاعر والأفكار .

وهذا عين ما قال به علماء اللغة فى العصر الحديث ، بعد انقضاء عصر ابن جنى بنحو عشرة قرون .

اشتقاق كلمة (لغة)

قال الأزهرى فى (تهذيب اللغة) : « اللغة : من الأسماء الناقصة ، وأصلها (لغوة) من : لغا ، إذا تكلم[١] .

وأنشد ابن برى لعبد المسيح بن عسلة :

بَاكَرْتُـهُ قَبْـلَ أَنْ تَلْغَــى عَصَافِـرُهُ   مُسْتَخْفِياً صَاحِبِى وَغَيْرُهُ الْخَافِى[٢]

قال : هكذا روى : « تَلْغَى عَصَافِرُهُ » . وهذا يدل على أن فعله (لَغَى) . إلا أن يقال إنه فتح لحرف الحلق ، فيكون ماضيه (لَغَا) ومضارعه : يَلْغُو ، وَيلْغَى[٣] .

وقال الجوهرى : « أصلها : لُغَيٌ أو لُغَوٌ ، والهاء عِوَض ، ومصدره : اللَّغْوُ ، وهو الطرح ، فالكلام - لكثرة الحاجة إليه - يرمى به ؛ وحذفت (الواو) تخفيفاً »[٤] .

---

(١) أنظر : تهذيب اللغة :

(٢) المراد بقوله (صاحبى) : فرسه ، والمعنى : أن فرسه طويل مشرف لا يخفى ، فى حين أن غيره يخفى لأنه أقل منه طولاً وإشرافاً .

(٣) أنظر : اللسان : ٥/٤٠٥٠ (مادة : لغو) .

(٤) أنظر : الصحاح للجوهرى ، والقاموس المحيط للفيروزابادى (مادة : ل غ و) ، وفقه اللغة العربية للدكتور ناجح مبروك : ١٦ .

وقال الراغب الأصفهاني : « لَغَى بكذا إذا لهج به ، ولهج العصفور بِلغَاه ، أي : بصوته ، ومنه قيل للكلام الذى يلهج به فرقة فرقة : لُغَة »[١] .

وقال الجويني : « هي من : لَغِيَ يَلْغَى ، من باب : رَضِيَ ، إذا لهج بالكلام »[٢] .

وقال الزمخشرى : « لَغَوْتُ بكذا : لفظت به وتكلمت ؛ وإذا أردت أن تنتفع بالأعراب فَاسْتَلْغِهِم »[٣] .

وزاد ابن منظور : « أي : اسمع من لغاتهم من غير مسألة ، قال الشاعر :

وإنِّي إذَا اسْتَلْغَانِيَ الْقَوْمُ فِي السُّرَى   بَرِمْتُ ، فَأَلْفَوْنِي بِسِرِّكَ أَعْجَمَا[٤]

وقال الفيومي : « لَغِيَ بالأمر ، يَلْغَى ، من باب (تَعِبَ) : لهج به »[٥] .

وقال ابن سيده : « لَغَوْتُ ، أي : تكلمت ، وأصلها (لُغْوَة) ، ونظيرها : كُرَة ، وقُلَة . وثُبَة ؛ كلها لامها واو ، لقولهم : قَلَوْتُ بالقلة[٦] ، وكَرَوْتُ بالكرة ؛ ولأن (الثبة) كأنها من مقلوب : ثاب يثوب . والجمع : لُغَات ، ولُغُون ، ككُرَات ، وكرِين ؛ يجمعونها بالواو والنون إشعاراً بالعوض من المحذوف مع الدلالة على التغيير ؛ وربما كسروا أوائل مثل هذا وقالوا : لَغِيَ يَلْغَى »[٧] .

---

(١) المفردات : ٤٥٢ .

(٢) معجم « متن اللغة » للشيخ أحمد رضا : ١٣ ، وفقه اللغة العربية للدكتور مبروك : ١٦ .

(٣) أساس البلاغة للزمخشري : مادة (ل غ و) .

(٤) استلغاني قومي : أرادوني على الكلام ، والمعنى : أنني كتوم ، حافظ لسرك ، مهما أغراني الناس ، وأرادوني على البوح به ، وإفشائه .

(٥) المصباح المنير : مادة (ل غ و) .

(٦) القلة : عود من الخشب يلعب به الصبيان ، يشبه العصا التي تستخدم في لعبة التحطيب .
الثبة : الفرقة والجماعة من الناس ، وقيل : من الفرسان . (المزهرة : ٧/١) .

(٧) أنظر : المخصص : ٦/١–٧ ، الخصائص : ٣٧/١ .

وهذا الذى أورده ابن سيده فى (المخصص) يكاد يكون نقلاً عما أورده ابن جني فى (الخصائص) ، وقد علق عليه مصحح الكتاب بقوله : « وأصلها (لُغْوُ) أى قبل الإعلال والتعويض ، ثم استثقلت الحركة على (الواو) فنقلت للساكن الصحيح قبلها وهو (الغين) فبقيت (الواو) ساكنة ، فحذفت ، وعوض عنها (هاء) التأنيث ؛ ووزنها بعد الإعلال (فِعَة) بحذف (اللام) كما لا يخفى ؛ وقوله (كَكُرَة) تشبيه لها بعد الاعلال والتعويض ، وإلا لقال : كَكُرَوٍ ، وإعلالها واحد » .

وقال ابن منظور فى (لسان العرب) : « اللغة : اللسن . وهى (فُعْلَةٌ) من لَغَوْتُ أى : تكلمت ... قال ثعلب : قال أبو عمرو لأبى خيرة : يا أبا خيرة سمعت لغاتهم ؟ فقال أبو خيرة : وسمعت لغاتهم ، فقال أبو عمرو : يا أبا خيرة ، أريد أكثف منك جلداً ، جلدك قد رق - ولم يكن أبو عمرو سمعها - ومن قال : لغاتِهم - بفتح التاء - شبهها بالتاء التى يوقف عليها بالهاء ؛ والنسبة إليها : لُغَوِيٌّ ، ولا تقل : لَغَوِيٌّ »[1] .

---

(١) أنظر : لسان العرب : مادة (لغو) .



الفصل الأول

نشأة اللغـــة

الفصل الأول

نشأة اللغة

(١)

لم يظفر بحث من البحوث اللغوية بقدر وفير من التأمل والتفكير ، مثل ذلك الذى ظفرت به نشأة اللغة ، ومع هذا فقد كانت النتيجة دائماً سلبية ، ولم يهتد الباحثون – بعد كل ما بذلوه من جهد – إلى رأى يجمعون عليه ، أو يطمئنون إليه .

ففى كل العصور ، ومنذ الحضارة الإنسانية القديمة ، والعلماء لا ينقطعون عن البحث فى نشأة الكلام وأصله ، ويفترضون فى هذا الفروض ، ويجرون فى هذا التجارب ، حتى أوائل القرن العشرين ، حين بدأ العلماء ينصرفون عن هذا النوع من البحث ، إذ يرون أنه من مسائل الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة ، وأنه لا جدوى من الاستمرار فيه .

ولم يقتصر البحث فى نشأة اللغة على علماء اللغة فى العصور القديمة ، بل تناوله أيضاً فلاسفة اليونان ، والمتكلمون ، وعلماء الأصول ، فى القرن الرابع الهجرى من العرب ؛ وفى العصر الحديث تناول الموضوع نفسه بالبحث والدرس كثير من الفلاسفة واللغويين الأوروبيين[١] .

ونعرض فى الصفحات التالية أهم الآراء التى طرحت حول نشأة اللغة ، والكلام عن أصلها ، وما وجه إلى كل منها من مآخذ واعتراضات ، حيث يرى فريق من علماء اللغة وفلاسفتها أن اللغة توقيف من الله – تبارك وتعالى – لآدم عليه السلام ، بينما ذهب فريق آخر إلى أنها مواضعة واصطلاح من جانب البشر ، بينما ذهب غيرهم إلى أنها بدأت بالاصطلاح وانتهت بالمواضعة ، وذهب فريق رابع إلى عكس ذلك ، وذلك على النحو التالى :

---

(١) أنظر : دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس : ١٣–١٥ ، وعلم اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى : ٩٧ ، وفقه اللغة العربية للدكتور ناجح عبد الحافظ مبروك : ٣٢ .

أولاً: التوقيف[1] :

وهذا الرأى قال به من فلاسفة الإغريق الأقدمين « هيراقليطس » ، ومن فلاسفة اليونان « بيراكلت » ، كما نسب هذا الرأى إلى « أفلاطون » ؛ وذهب إليه أبو الحسين أحمد بن فارس القزوينى ، وأبو على الفارس ، وأبو الحسن الأخفش – فى أحد قوليه – ، وأبو الحسن الأشعرى ، من علماء القرن الرابع الهجرى ؛ ومن علماء اللغة فى العصر الحديث : الأب « لامى »[2] ، والفيلسوف الفرنسى « دى بونالد »[3] .

وفحوى هذا الرأى أن اللغة نشأت عن طريق الوحى والإلهام من الله – تعالى – لأبي البشر آدم – عليه السلام – ، إذ معنى التوقيف : أن الله – سبحانه – وقَّف وألْهَم ولقَّن وعلَّم آدم كل ما يتعلق باللغة كتقطيع الأصوات ، وتكوين الكلمات ، ووضعها بإزاء معانيها الدالة عليها[4] .

أما عن القدر الذى علمه الله – تعالى – لآدم من اللغة ، فقد اختلف فيه القائلون بالتوقيف إلى ثلاث فرق :

١ – فريق يرى أن الله – سبحانه – علم آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارفها الناس ، من دابة ، وأرض ، وسهل ، وجبل ، وجمل ،

---

(١) التوقيف : مصدر الفعل الثلاثى المضعف (وقف) بمعنى : علم ، ولقن ، وألهم ، وأوحى ؛ وقد يعدى بالهمزة فيقال : أوقف .

(٢) دوم فرانسوا لامى . ولد بمنتيرو من أعمال فرنسا سنة ١٦٢٦م ، وقد قام بتدريس الفلسفة فى كثير من المعاهد الدينية ، وإليه يرجع الفضل فى نشر آراء الفيلسوف « ديكارت » القائمة على مبدأ الشك ، توفى بسان دينى سنة ١٧١١م . (علم اللغة : ٩٧) .

(٣) لويس جبرائيل امبرواز . ولد فى مدينة (ميو) من أعمال فرنسا سنة ١٧٥٤م ، له مؤلفات كثيرة فى السياسة والفلسفة ، وكان من أشهر المتعصبين لنظام الحكومة الملكية الخاضعة لنظام النفوذ الدينى الكاثوليكى . توفى ببلدة « تريجيبه » سنة ١٨٢٣م . (علم اللغة : ٥٦) .

(٤) فقه اللغة : ٣٤ .

وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ؛ وهذا قول عبد الله بن عباس – رضى الله عنه – ، كما روى خصيف عن مجاهد قوله : « علمه اسم كل شيء»[١] .

٢ – ويرى فريق آخر أنه – سبحانه – علم آدم أسماء الملائكة ، وقيل : علمه أسماء ذريته أجمعين[٢] .

٣ – ويرى الفريق الثالث أن الله – تبارك وتعالى – علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية ، والفارسية ، والسيريانية ، والعبرانية ، والرومية ، وغير ذلك من سائر اللغات ؛ فكان آدم وولده يتكلمون بها ، ثم إن ولده تفرقوا فى الدنيا ، وعلق كل واحد منهم بلغة من تلك اللغات ، فغلبت عليه ، واضمحل عنه ما سواها ، لبعد عهدهم بها[٣] .

أدلة أهل التوقيف :

وقد استدل أصحاب القول بالتوقيف لرأيهم بعدة أدلة ، بعضها نقلى ، وبعضها الآخر عقلى ، نذكر منها :

أ) الأدلة النقلية :

استدل الفلاسفة وعلماء اللغة القدامى من المسلمين وغير المسلمين بأدلة نقلية ، التمسوها مما ورد بالكتب المقدسة كالتوراة والقرآن ، وأقبلوا يفسرونها تفسيراً يلائم ما ذهبوا إليه نحو :

١ – ما جاء فى التوراة ما نصه : « وقال الرب الإله لا يحسن أن يكون الانسان وحده ، فأصنع له عوناً بإزائه ؛ وجعل الرب الإله من الأرض كل

---

(١) المزهر : ٨/١ .
(٢) الصاحبى لابن فارس : ٣٢ ، والمزهر : ٣٠/١ .
(٣) الخصائص لابن جنى : ٤١/١ . والمزهر : ١١/١ .

حيوانات البرية ، وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذا نفس حية ، فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم ، وطيور السماء ، وجميع حيوانات البرية »[1] .

٢ – ما جاء فى التوراة أيضاً ، عن قصة مدينة « بابل » حين حاول الناس أن يتخذوا لأنفسهم مدينة عظيمة ، وبرجاً شامخاً يطاول السماء ؛ فبلبل الله ألسنتهم ، وجعلهم فرقاً وشيعاً ، لا يفهم بعضهم بعضاً ، بعد أن كانوا أهل لغة واحدة ، ولسان واحد ؛ فانتشروا فى الأرض ، وتعددت لغات البشر[2] .

٣ – ما جاء فى القرآن الكريم من قول الله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ »[3] .

٤ – ما جاء فى القرآن الكريم أيضاً من قوله تعالى : « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ »[4] . وذلك ذماً لقوم لإطلاقهم أسماء غير توقيفية .

٥ – ما ورد فى القرآن الكريم من قوله الله – تبارك وتعالى – : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ »[5] .

ب) الأدلة العقلية :

لم يكتف أصحاب مذهب التوقيف بالأدلة النقلية التى تقدم ذكرها ، بل أخذوا يسوقون الأدلة العقلية الجدلية للبرهنة على صحة ما ذهبو إليه ، وذلك على النحو التالى :

---

(١) أنظر سفر التكوين – الإصحاح الثانى – الآيات : ١٨ – ٢٠ .

(٢) أنظر : دلالة الألفاظ : ١٥ . والإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين .

(٣) سورة البقر : من الآية ٣١ .

(٤) سورة النجم : من الآية ٢٣ .

(٥) سورة الروم : من الآية ٢٢ .

١ - إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب ، فيما يختلفون فيه ، أو يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم ؛ ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً ، لم يكن أولئك فى الاحتجاج بهم أولى من الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم[1] .

٢ - الكلام أجل من أن يبتدعه إنسان ، وكيف يبتدعه ؟! وهو إنما يفكر بألفاظ متخيلة يناجى بها نفسه ، فالفكرة متوقفة على الكلام ؛ وإذا كان الطفل لا يفكر إلا بعد أن يكلمه أبواه ، فكذلك الإنسان الأول ، لم يكن ليفكر إلا بعد أن يكلمه الله[2] .

٣ - لو كانت اللغات اصطلاحية ، لاحتيج فى التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة يعود إليها الكلام ، ويلزم إما الدور وإما التسلسل فى الأوضاع ، وهو محال ، فلابد من الانتهاء إلى التوقيف[3] .

راى علم اللغة الحديث فى ادلة التوقيفيين :

رغم ما قدمه أصحاب مذهب التوقيف ، ليؤيدوا به مذهبهم من أدلة نقلية وعقلية ، إلا أننا نجدهم يلجأون إلى تفسير الأدلة النقلية على حسب أهوائهم ، وبما يخدم أهدافهم ، كما نجد الأدلة العقلية غير قاطعة ، بل لا تقوم على ساق ، ولا تتفق ومبادىء علم اللغة الحديث ، ولعل أبا الحسين أحمد بن فارس القزوينى ، قد أحس بما سوف يتوجه إلى مذهب التوقيف من نقود ومآخذ وأفانيد ، فأخذ يثير التساؤلات التى يمكن أن تصدر من المناهضين لمذهب التوقيف . فيصدرها بقوله : فإن قلت ... ، ثم يرد عليها متسهلاً بقوله : قلت ... ؛ متبعاً فى ذلك أسلوب الحوار والمناقشة .

---

(١) الصاحبى : ٣٣ ، والمزهر ١/٩ ، ودلالة الألفاظ : ١٦ .

(٢) فقه اللغة : ٤٢ .

(٣) المزهر : ١/١٨ .

ولا يسعنا الآن إلا أن نعرض لأدلة التوقيفيين ، النقلية منها والعقلية ، دليلاً دليلاً ، لنتبين رأى علم اللغة فى كل منها ، قبل أن نعرض للمذهب المقابل وأدلته .

أولاً : بالنسبة لما جاء فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين ، نلحظ أن الآيات لم تتعرض إلا لنوع واحد من الأسماء ، وهى أسماء النفوس الحية ، أما أسماء الجمادات والمعانى والأفعال والحروف ، فلا ذكر لها ، وكأنها ليست من اللغة ؛ ودعوى أن الانسان الأول كان يهتم بالأشياء الحية فحسب ، لأنها هى التى تدخل فى دائرة احتياجاته ، فهى دعوى هزيلة ، لأن بعض الأشياء غير الحية تهم الإنسان أيضاً ، بل قد تكون حاجته إليها أشد ، كالطعام والشراب والهواء والندم والمشى ... الخ .

كما أن الآيات لم توضح لنا الصورة الأولى التى ظهرت بها هذه الأصوات ، أى الأسلوب الذى سار عليه الإنسان - فى مبدأ الأمر - فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، ولا كيف اهتدى آدم - عليه السلام - لتركيب أصوات ذات مقاطع متميزة فى صورة كلمات ، والعوامل التى وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره ، مما هو أساس البحث العلمى فى نشأة اللغة[1] .

ثانياً : ما جاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين عن قصة بناء مدينة « بابل » . فقد أكد البحث العلمى أن (بابل) ليست مشتقة من بلبلة الألسن ، وإنما معناها : باب الرب ، وأصلها (باب إيل)[2] .

ثالثاً : بالنسبة لما جاء فى القرآن الكريم من قول الله - تعالى - : « وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... » ، فقد جوز أبو الفتح ابن جنى أن يكون تأويله : أقدره

(١) علم اللغة : ٩٦ - ٩٨ ، فقه اللغة : ٣٦ .
(٢) دلالة الألفاظ : ١٥ .

على أن واضع عليها ؛ وهذا المعنى - لا محالة - من عند الله ، فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر ، سقط الاستدلال به[1] .

كما جوز الراغب الأصفهانى أن يكون المراد بتعليم الأسماء ، هو أن يجعل له قدرة بها نطق ، ووضع أسماء الأشياء[2] .

من هذا نرى أن كلاً من رأى ابن جنى ، ورأى الراغب الأصفهانى صريحان فى أن (علم) يجوز أن يراد منه (أقدر) ، كما فى قول الله تعالى عن داود - عليه السلام - : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُم »[3] ، بل رأى الراغب الأصفهانى صريح فى أن آدم - عليه السلام - هو الذى وضع أسماء الأشياء[4] .

وأما تفسيرهم الأسماء بالألفاظ ، فهذا اصطلاح نحوى متأخر ، وأصل وضع الأسماء فى اللغة أن تكون علامة ودليلاً على المسمى ؛ وإنما يدل على الشىء بصفاته وخصائصه ، فيحتمل - بل يترجح - أن يكون المراد بالأسماء الخصائص والصفات ، وليس الألفاظ ؛ قال فخر الدين الرازى : « وإذا لم يتعين حمل الأسماء على الألفاظ ، سقط الاستدلال به »[5] .

رابعاً : ما جاء فى القرآن الكريم من قول الله - تعالى - : « إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » . أنه ليس مناط الاستشهاد بهذه الآية الكريمة ، كونهم ابتدعوا أسماء ثم أطلقوها على الأصنام ، وإنما مناط الاستشهاد

---

(١) الخصائص : ٤١/١ ، والمزهر : ١١/١ .

(٢) المفردات للراغب الأصفهانى : ٢٤٤ .

(٣) سورة الأنبياء : من الآية ٨ .

(٤) فقه اللغة : ٣٨ .

(٥) مفاتيح الغيب : ١٩٢/١ ، فقه اللغة : ٣٩

هو كونهم اعتقدوا في هذه الأصنام ، واتخذوها آلهة تعبد من دون الله ؛ وعلى ذلك لا تقوم الآية الكريمة دليلاً على توقيف اللغة .

خامساً : ما جاء في القرآن الكريم أيضاً من قول الله - تبارك وتعالى - : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » . أن (اللسان) هو الجارحة المخصوصة ، وهي غير مراده باتفاق ، أما كون المراد بالألسنة : اللغات مجازاً ، فيعارضه مجازات أخر ، نحو مخارج الحروف ، والقدرة على النطق بها ، ومن ثم فلا يثبت الترجيح[1] . وفي هذا يقول العلامة النسفي[2] - عند تعرضه لتفسير الآية - : « وقيل : أراد أجناس النطق وأشكاله ، خالف بينها ، حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين ، حتى لو تكلم جماعة من وراء حائط ، يعرف كل بنطقه ونغمته ، لا يشبه صوت أحد صوت الآخر »[3] .

أما بالنسبة لما ساقه التوفيقيون من الأدلة العقلية ، فهي الأخرى لا تسلم إلى القطع بأن اللغة توفيق من الله - تعالى - لآدم - عليه السلام - حيث أمكن تفنيد هذه الأدلة ، والرد عليها على النحو التالي :

أولاً : الإجماع على الاحتجاج بلغة القوم لا يقوم دليلاً على أصل اللغة ونشأتها ، وإنما هو دليل على توحد لغات قبائل العرب في لغة واحدة ، أصبحت هي لغة الكتابة والأدب والشعر ، وبها نزل القرآن الكريم ، وهي لغة قريش ؛ كما أنه لا يمنع من كونها مواضعة واصطلاحاً ، بل يصح الاحتجاج به على ذلك[4] .

---

(١) المزهر : ١/١٩ .

(٢) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، من كبار علماء التفسير ، وله كتاب (تفسير الخازن) .

(٣) تفسير الخازن : ٣/٤٣١ .

(٤) معجم « متن اللغة » : ١٦ .

ثانياً : الفكر لا يتوقف على الكلام المنطوق ، بل العكس هو الصحيح ، إذ النطق بالفكرة مترتب على قيامها بالنفس ، لأنه يعبر عنها بالكلام ، أما تعلم الطفل الكلام فيختلف تماماً مع ما قالوا به من إطلاق آدم الأسماء على الأشياء ، حيث يكتسب الطفل النطق بالألفاظ من المحيطين به بعد مران عليه ، وتدريب لأعضاء النطق ، ومحاولة ربط كل لفظ بمعناه ، فهو يتنقل فى كلامه من لغو الأطفال ، إلى لثغة الوليد ، إلى تمرين الصبى ، إلى لهجة العشيرة ، فتهذيب المدرسة ؛ وكل ذلك يتم عن طريق التقليد لما هو موجود فعلاً[١] .

ثالثاً : الاصطلاح لا يستدعى تقدم اصطلاح آخر ، بدليل تعليم الوالدين الطفل دون سابقة اصطلاح ثمة[٢] . إذ يتدرج الطفل فى تعلم لغة قومه حتى يتقنها ، فيؤديها من تلقاء نفسه دون الحاجة إلى اصطلاح سابق - على النحو المبين آنفاً - كما نجد الأخرس يتفاهم مع أفراد بيئته دون وجود اصطلاح بينهم[٣] .

ثانيا: الاصطلاح :

وفحوى هذا الرأى : أن اللغة نشأت عن طريق المواضعة والاصطلاح ، وهذا ما يفسره ابن جنى بقوله : « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعون لكل واحد منها سمة ولفظاً ، إذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره . وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض فى إبانة حاله ، بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال إلى ذكر ما

(١) المصدر السابق : ١٤ - ١٥ .
(٢) المزهر : ١/١٩ .
(٣) فقه اللغة : ٤٣ .

لا يمكن إحضاره ، ولا إدناؤه كالفانى ، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، وكيف يكون ذلك لو جاز ، وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة والتعذر مجراه ؟! فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم ، فأومأوا إليه وقالوا : إنسان إنسان إنسان ؛ فأى وقت سمع فيه هذا اللفظ ، علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق ؛ وإن أرادوا سمة عينه أو يده ، أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ، أو نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرفت معنيها ، وهلم جرا فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف .

ثم لك - من بعد ذلك - أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها ، فتقول : الذى اسمه (إنسان) فليجعل مكانه (مَرْدْ)[١] ، والذى اسمه (رأس) فليجعل مكانه (سَرّ)[٢] ، وعلى هذا بقية الكلام[٣] .

ومعنى هذا أن منشأ اللغة من وضع واصطلاح الإنسان .

وقد قال بهذا عدد كبير من الفلاسفة وعلماء اللغة ، فمن فلاسفة اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد : الفيلسوف (ديموكريت) ، ومن الفلاسفة واللغويين العرب - ومعظمهم من المعتزلة الذين استمدوا أدلتهم من المنطق العقلى - : أبو هاشم الجبائى ، وأبو الحسن الأخفش ، وأبو على الفارس ، وأبو الفتح عثمان ابن جنى - فى أحد أقواله - ومن فلاسفة الغرب فى العصر الحديث : آدم سميث ، وريد ، ودوجالد ستيوارت[٤] .

---

(١) « مرد » بالفارسية معناها : إنسان .

(٢) « سر » بالفارسية معناها : رأس .

(٣) الخصائص : ١/٤٤ - ٤٥ ، المزهر : ١/١٢ .

(٤) علم اللغة : ٦٨ ، وفقه اللغة : ٤٩ .

أدلة القائلين بالاصطلاح :

كان أصحاب مذهب الاصطلاح يعتمدون في الاستدلال لصحة ما ذهبوا إليه على تفنيد وهدم أدلة أصحاب مذهب التوقيف ، حيث دأبوا على ملاحقة ما استدل به التوفيقيون ، ومعارضته واحداً واحداً ، ومحاولة إبطاله واستنكاره ، كما أيدوا مذهبهم بما يلي :

١ – لو كانت اللغات توقيفية ، لتقدمت واسطة البعثة على التوقيف ؛ والتقدم باطل ؛ وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية ، فلابد من واسطة بين الله والبشر – وهو النبي – لاستحالة خطاب الله – تعالى – مع كل أحد ؛ وبيان بطلان التقدم قوله الله – تعالى – : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ »[1] ، وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة[2] .

٢ – لو كانت اللغات توقيفية ، فذلك إما بأن يخلق الله – تعالى – علماً ضرورياً في العاقل ، أنه وضع الألفاظ لكذا ، أو في غير العاقل ؛ أو بألا يخلق علماً ضرورياً أصلاً ؛ والأول باطل ، وإلا لكان العاقل عالماً بالله بالضرورة ، لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكون الله وضع كذا لكذا ، كان علمه ضرورياً ، ولو كان كذلك لبطل التكليف ؛ والثاني باطل ، لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاء تمام هذه الألفاظ ؛ والثالث باطل لأن العلم بها إذا لم يكن ضرورياً ، احتيج إلى توقيف آخر ، ولزم التسلسل[3] .

٣ – لا يجوز لله – تعالى – أن يوصف بأن يواضع أحداً على شيء ، إذ قد ثبت أن المواضعة لا بد معها من إيماء أو إشارة بالجارحة نحو المومأ إليه والمشار نحوه ، والله – سبحانه – منزه عن الجوارح ، فلا يصح الإيماء

---

(١) سورة ابراهيم : من الآية ٤ .

(٢) المزهر للسيوطي : ١٨/١ .

(٣) المصدر السابق .

والإشارة منه بها ، فبطل أن تصح المواضعة على اللغة منه – تقدست أسماؤه –[١] .

رأى علم اللغة الحديث فى الاصطلاح :

على الرغم من أن القائلين بالاصطلاح معظمهم من المعتزلة ، الذين هم أرباب الفكر ، وفرسان العقل ، والذين انطلقوا فى رأيهم هذا من قضايا المنطق العقلى ، وكانت لديهم القدرة على تأويل ما ورد من نصوص ، بحيث تلائم أتجاههم ، وتنسجم مع منطقهم ، إلا أن رأيهم هذا لم يسلم من نقد ، وأدلتهم واحتجاجاتهم لم تخل من مأخذ أو تفنيد ، من وجهة نظر علم اللغة الحديث ، وبيان ذلك ما يلى :

١ – القول بتوقيف اللغة لا يتوقف على البعثة ، لجواز أن يخلق الله – سبحانه – فى بنى الانسان العلم الضرورى بأن الألفاظ وضعت لكذا وكذا ؛ أو يتخذ – سبحانه – أول نبى ، ثم يوحى إليه باللغة ، فيتعلمها قومه ، ثم يرسل إليهم ، وفى هذا يقول أبو الحسين أحمد بن فارس القزوينى :

« وقف الله – سبحانه – آدم – عليه السلام – على ما شاء أن يعلمه إياه ، مما احتاج إلى علمه فى زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم من الأنبياء – صلوات الله عليهم – نبياً نبياً ما شاء الله أن يعلمه ، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد – ﷺ – فآتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحداً من قبله ، تماماً على ما أحسنه من اللغة ، ثم قر الأمر قراره ، فلا نعلم لغة من بعده حدثت »[٢] .

---

(١) المزهر : ١٣/١ .

(٢) الصاحبى : ٨ .

ويقول ابن السبكى فى كتابه (رفع الحاجب) : « لأن لآدم حالتين : حالة النبوة - وهى الأولى - وفيها الوحى ، الذى من جملته تعليم اللغات ، وعلمها الخلق إذ ذاك ، ثم بعث بعد أن علمها قومه ، فلم يكن مبعوثاً لهم إلا بعد أن علمهم اللغات ، فبعث بلسانهم »(١) .

٢ - يجوز أن يخلق الله - تبارك وتعالى - العلم الضرورى فى العقلاء ، بأن واضعاً وضع تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وعلى هذا لا يكون العلم بالله ضرورياً ، كما يجوز أن يكون الإله معلوم الوجود بالضرورة لبعض العقلاء ؛ وأما إبطال التكليف ، فيجوز أن يكون بالمعرفة ؛ أما بسائر التكاليف ، فهذا غير مقصود(٢) .

٣ - ليست كل الأمور تعتمد فيها المواضعة على الإيماء والإشارة ، إذ هناك من الأشياء ما لا يمكن إحضاره حتى يمكن الإيماء أو الإشارة إليه ، كالمعانى وغالبية الأفعال والحروف ، فكيف تم التواضع عليها إذن ؟! .

كما أنه يصح أن يواضع الله - سبحانه - عباده على اللغة ، وإن كان منزهاً عن الجوارح التى يومأ ويشار بها ، كأن يحدث فى جسم من الأجسام - خشبة أو غيرها - إقبالاً على شخص من الأشخاص ، وتحريكاً لها نحوه . ويسمع فى حال تحرك الخشبة نحو ذلك الشخص صوتاً ، يضعه اسماً له ؛ ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفعات ، مع أنه - عز اسمه - قادر على أن يقنع فى تعريفه ذلك بالمرة الواحدة ، فتقوم الخشبة فى هذا الإيماء ، وهــذه الإشارة مقام الجارحــة لابن آدم فى الإشــارة بـهـا فـى المواضعة ، وكما أن الانسان أيضاً قد يجوز - إذا أراد المواضعة - أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه ، فيقيمها فى ذلك مقام يده ، لو أراد الإيماء بها نحوه(٣) .

---

(١) المزهر : ١/٢٥ - ٢٦ .

(٢) المزهر : ١/١٧ .

(٣) الخصائص : ١/٤٥ - ٤٦ ، والمزهر : ١/١٤ .

وهكذا ، وقفنا مما تقدم على أن الأمر بالنسبة لنشأة اللغة ، كان سجالاً بين العلماء ، سواء منهم الفلاسفة ، أو علماء الكلام ، أو اللغويون ، حيث انقسموا فريقين - كما رأينا - فريق ذهب إلى أنها نشأت عن طريق التوقيف والوحى الإلهى ، وفريق ذهب إلى المواضعة والاصطلاح من جانب البشر ، ولم ينته سجالهم إلى رأى قاطع ، أو كلمة سواء فى هذا الأمر ، بل كل فريق أخذ فى سوق الحجج والبراهين والأدلة على صحة ما ذهب إليه ؛ ثم أخذ الفريق الآخر يعمل معول الهدم والتفنيد فى هذه الحجج والبراهين والأدلة ، دون أن ينتهى أى منهما إلى القول الفصل ، ولم يقل واحد منهما الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع ، إذ أن كل ما قدمه كلا الفريقين لا يعدو أن يكون آراء ظنية . تعتمد فى بعض نواحيها على الحدس والتخمين ، وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة ، لا يطمئن إلى مثلها التحقيق والبحث العلمى ؛ وهكذا شأن جميع البحوث والدراسات التى تعرض لأصول النظم الانسانية .

حتى إن كثيراً من العلماء يرى إخراج هذا الموضوع برمته من نطاق علم اللغة ، وإلحاقه بالبحوث الفلسفية الميتافيزيقية ، لأن منهج البحث فيه لا يتفق فى شىء مع ما ينبغى أن تكون عليه مناهج البحث فى العلوم[1] ؛ وإلى هذا ذهب ابن السبكى فى (رفع الحاجب) حيث يقول : « الصحيح عندى أنه لا فائدة لهذه المسألة » ، وهو ما صححه ابن الأنبارى وغيره ، ولذا قيل : « ذكرها فى الأصول فضول »[2] .

---

(١) علم اللغة : ٦ .

(٢) المزهر : ٢٦/١ .

(٢)

لما كان مذهب أهل التوقيف ينتهى بأن الله – سبحانه – أوحى إلى آدم – عليه السلام – أو ألهمه نطق الكلام ، فنطقه على النحو الذى قدمنا ؛ فقد توقف بهم البحث فى اللغة عند هذا الحد ولم يعد لديهم ثمة ما يدعو إلى الاسترسال فى البحث والتنقيب عنه كيفية نشوء اللغة ، وتطور هذا النشوء ، وكيف تطورت وارتقت حتى أصبحت على النحو الذى تستخدم به الآن ، والظروف التى أدت إلى تطورها ورقيها حيناً ، وضعفها وانحسارها أحياناً ، إلى غير ذلك من البحوث اللغوية .

أما أصحاب مذهب الاصطلاح ، فلم يكن مذهبهم ليقف عند حد قولهم بأن اللغة مواضعة واصطلاح من جانب البشر ، وإنما كان لزاماً عليهم أن يكشفوا لنا عن كيفية هذه المواضعة وهذا الاصطلاح ، وعن القدر من النطق الذى بدأ به الاصطلاح ، ثم يستمرون فى الكشف عن الظروف والتطورات التى صاحبت اللغة فى مسار حياتها حتى وصلت إلى ما نحن عليه الآن .

ومن ثم فسوف نعرض فى الصفحات التالية ما قال به أصحاب مذهب الاصطلاح عن نشأة اللغة سواء فى ذلك العلماء العرب والأجانب ... فنقول وبالله التوفيق .

أولاً : اللغويون العرب :

لم نظفر من بين العلماء واللغويين العرب ، الذين حملوا لواء المواضعة والاصطلاح ، بمن تناول نشأة اللغة سوى العالم اللغوى أبو الفتح عثمان بن جنى ، من علماء القرن الرابع الهجرى ، الذى كان يبنى آراءه على إعمال الفكر المجرد ، دون التقيد بتقاليد سابقة ، فكان فى ذلك على غير سنن الكثيرين من علماء عصره ، فلم يرض أن يكون القول بالتوقيف قولاً برأسه ،

بل صرفه بالتأويل المقبول إلى غير ما حملوه عليه ، حيث يقول : « إن أبا على - رحمه الله - قال لى يوماً : هى من عند الله ، واحتج بقول الله - تعالى - : « وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا » ، وهذا لا يتناول موضع الخلاف ؛ وذلك أنه يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله - سبحانه - لا محالة ، فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر ، سقط الاستدلال به[1] .

ثم يفترض ابن جنى فرضين ، لعل فرضاً منهما يصيب جوهر القضية ، ويكون هو أساس أصل اللغة الانسانية وهما :

أ) « أن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً ، إذا ذكر عرف مسماه ، ليمتاز من غيره ، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض فى إبانة حاله ... فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم ، فأومأوا إليه وقالوا ، إنسان إنسان إنسان ؛ فأى وقت سمع هذا اللفظ ، علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق ، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ، أو نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا ، عرف معينها ، وهلم جرا فيما سوى ذلك من الأسماء[2] .

ب) ويعرض ابن جنى فرضه الثانى بقوله : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها ، إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ؛ وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل » [3] .

---

(١) الخصائص : ١/٤١ ، والمزهر : ١/١٠ - ١١ ، ومتن اللغة : ١٨ .

(٢) الخصائص : ١/٤٤ .

(٣) المصدر السابق : ١/٤٦ .

ونظراً لأن ابن جنى لم يكن مسبوقاً بدراسات من هذا القبيل ، التى تقوم على العمق فى التفكير ، وبعد النظر ، وقدح الذهن ، فضلاً على أنه عالم مسلم ، تحكمه الضوابط والأحكام الدينية فيما يقول ، ويحوطه سياج إسلامى متين يعصمه من أن يلقى القول على عواهنه ، دون سند من نقل أو عقل ، يقدم دليلاً وبرهاناً على صحة ما ذهب إليه ؛ نجده يحترز لما اختمر فى ذهنه ، وما هداه إليه عقله وتفكيره ، فلا يدعى الجزم بترجيح ما عن له وارتآه ، وإنما يعطى لنفسه فرصة أوسع لإعمال فكره ، وقدح زناد عقله ، عله يصل إلى وجه الصواب فى ذلك حيث يقول :

« واعلم – فيما بعد – أننى – على تقادم الوقت – دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغول على فكرى ، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ، ما يملك علىّ جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ؛ فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا – رحمهم الله – ومنه ما حذوته على أمثلتهم ، فعرفت بتتابعه ، وانقياده ، وبعد مراميه وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما أسعدوا به ، وفرق لهم عنه ، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة ، بأنها من عند الله – تعالى – فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفاً من الله – سبحانه – وأنها وحى .

ثم أقول فى هذا : إنه كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله – تعالى – قد خلق من قبلنا – وإن بعد مداه عنا – من كان ألطف منا أذهاناً ، وأسرع خواطر ، وأجرأ جناناً ؛ فأقف بين تين الخلتين حسيراً ، وأكاثرهما فأنكفىء مكثوراً ؛ وإن خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف بإحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها ، قلنا به ؛ وبالله التوفيق »[1] .

---

(١) المزهر : ١/١٥ – ١٦ ، ومتن اللغة : ١٨ – ١٩ ، والخصائص : ١/٤٧ .

ثانياً : علماء الغرب المحدثون :

أما المحدثون من علماء اللغة فى أوروبا ، فقد صالوا وجالوا فى هذا الصدد ، ووجدوا لذة ومتعة فى بحث ودراسة هذا الموضوع ، خلال القرن التاسع عشر ، مما أدى آخر الأمر إلى ظهور عدة نظريات وافتراضات عن أصل اللغات ، نوجزها فيما يلى :

١ - محاكات اصوات الطبيعة (Bow-wow)

فقد رجح كل من المستشرف (وتنى) و (آدم سميث) و (دونالد ستيوارت) و (سبنسر) أن النشأة الأولى للألفاظ ، لا تعدو أن تكون تقليداً لأصوات الطبيعة التى سمعها الانسان الأول ، واتخذ منها أسماء لمصادر هذه الأصوات ، فنباح الكلب - مثلاً - اتخذ رمزاً يعبر أو يدل على الحيوان نفسه ، كما اتخذ عواء الذئب ، وزئير الأسد ، ومواء القط أعلاماً على هذه الحيوانات ذاتها ؛ كما سمع الإنسان الأول حفيف الشجر ، وزفير النار ، وقصف الرعد ، وخرير الماء وغيرها ، فاتخذ منها أسماء لكل الظواهر الطبيعية التى تسمع لها أصوات ؛ وبهذا تكونت له مجموعة من الكلمات تعد - فى رأى أصحاب هذه النظرية - من أقدم الكلمات فى اللغة الإنسانية[1] .

إلا أن هذه الكلمات كانت فى مبدأ أمرها محدودة ، قليلة التنوع ، قريبة الشبه بأصوات الطبيعة التى أخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود ، ثم أخذت هذه الكلمات يتسع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير ، واتساع حاجات الانسان ، ومظاهر حياته وتطورها ، تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التى تعتور الصوت ، وأعضاء النطق الانسانى ، وكعلاقة المجاورة ، والمشابهة التى تعتور الدلالات ، حتى أصبحت الكلمات فى تطورها لا تقف فى دلالتها عند حدود مصدرها الأصلى ، بل قد تتعداه إلى أمر لا صلة له

(١) دلالة الألفاظ : ٢٠ - ٢١ .

بذلك المصدر ، وإلى معنى جديد لا يكاد يمت إلى الدلالة الأصلية بصلة وثيقة ، كأن نجد لنباج الكلب – مثلاً – فى معاجمنا العربية الآن معنى جديداً ، بعيداً عن الكلب وصوته ، مثل : « النباح : مَنَاقِفُ صغار بيض مكسية ، تجعل فى القلائد »[١] ، كما نجد أن (الفحيح) وهو بمعنى صوت الأفعى ، يورده الفيروزابادى بقوله : « فحفح : صحح المودة وأخلصها »[٢] ، ونجد أيضاً أن لفظة (الثغاء) التى هى صوت الغنم يوردها بقوله : « أتيته فما أثغى : أى ما أعطى شيئاً »[٣] .

وهذه النظرية هى ما ذهب إليها العلامة اللغوى أبو الفتح بن جنى فى القرن الرابع الهجرى ، مما يوحى بما زود به من حدة فى الذهن ، وقوة فى الفكر ، ورجاحة فى العقل ، ورهافة فى الحس ، قل أن تتوافر فى عالم غير ابن جنى .

وهذه النظرية – رغم ما وجه لها من اعتراضات ، وما أخذ عليها من مآخذ – تعد أدنى نظريات البحث فى أصل اللغات إلى الصحة ، وأقربها إلى العقل ، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور ، وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات والظواهر الطبيعية ، فضلاً على أنها تفسر الاسلوب الذى سار عليه الانسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وتبرز العوامل التى وجهت إلى هذا الاسلوب دون غيره ، كما لم يقم دليل يقينى على خطئها ، مثل ما لم يقم دليل يقينى أيضاً على صحتها ، وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها ، وإنما يقرب تصورها ، ويرجح الأخذ بها[٤] .

---

(١) القاموس المحيط : مادة (ن ب ح) .
(٢) المصدر السابق : مادة (ف ح ح) .
(٣) المصدر نفسه : مادة (ث غ و) .
(٤) علم اللغة : ١٠٤ – ١٠٥ .

ولذا يقول الدكتور ابراهيم أنيس : « ولذلك لا يصح أن ننساق مع بعض المعترضين على هذه النظرية فى تهكمهم عليها ، بأنها تقف بالفكر الانسانى عند حدود حظائر الحيوانات ، وتجعل اللغة الانسانية الراقية ، مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغريزية ، لأن وراء هذه الأصوات سوراً حصيناً ، عنده - فى الحقيقة - تبدأ لغة الانسان ، ذات الدلالات المتميزة المتباينة ، فالمعترضون يفترضون فى هذا النوع من الأصوات عقماً ، ولا تصلح لأن ينحدر منها تلك الدلالات الانسانية السامية ، ولكن الواقع يبرهن على أن كثيراً من كلمات اللغة الانسانية قد انحدرت عن تلك الأصوات الغريزية المبهمة ، ثم سمت وتطورت ، وأصبحت تعبر عن الفكر الانسانى فى أجلى صوره ومعانيه[1] .

٢ - الأصوات الانفعالية (Pooh - pooh)

يرى أصحاب هذا الرأى أن اللغة الإنسانية بدأت فى صورة شهقات وتأوهات ، صدرت عن الإنسان الأول بشكل غريزى ، لتعبر عن فرح أو دهشة أو غضب أو ألم ، أو نحو ذلك من انفعالات قوية ؛ ويدين هؤلاء بما نادى به (داروين) فى نظريته المشهورة (النشوء والارتقاء)[2] ، فقد بين (داروين) أن الانسان لا يعدو أن يكون تطوراً لأرقى الأجناس من الحيوان ؛ ولم يقتصر تفكير (داروين) على التطور الجسمانى ، بل شمل أيضاً التطور الفكرى والعقلى ، ومن ثم كان يفكر أن الانسان هو المخلوق المتميز بالفكر والنطق ، بل يشركه فى هذا بعض الحيوانات الراقية ، مع تفاوت فى درجة التفكير أو النطق ، فالانسان ينطق والحيوان ينطق ، وليس الفرق بينهما إلا فى الدرجة ،

---

(١) دلالة الألفاظ : ٢١ - ٢٢ .

(٢) يجب التنبه والإحاطة أن نظرية (النشوء والارتقاء) لداروين ، مرفوضة من وجهة النظر الدينية ، لمناقضتها لما ورد بالكتب السماوية عن قصة خلق آدم - عليه السلام - لذا وجب التنويه ، والله الموفق .

فقد تعددت وتنوعت أصوات الإنسان ، فى حين ظلت أصوات الحيوانات محدودة ، ولذلك ربط (داروين) بين النشأة اللغوية للانسان ، وبين تلك الأصوات الغريزية والانفعالية من آهات أو تأوهات ، وأصوات الدهشة والتعجب ، وجعلها جميعاً الأساس الأول الذى منه استمدت اللغة الانسانية نشأتها[١] .

كما حاول (داروين) أن يربط بين هذه الأصوات الانفعالية ، وبين ما يصاحبها من تغييرات فسيولوجية ، كتقلصات أعضاء النطق أو انبساطها ، وتقلص عضلات الوجه أو انفراجها ، مما يترتب عليه صدور هذه الأصوات فى مواقف انفعالية معينة .

والحقيقة أن بين هذه الأصوات الانفعالية ، وبين الكلام أو التكلم فجوة واسعة ، وبون شاسع ، فهذه الأصوات تصدر فجأة ، منعزلة عن الكلام الذى يصدر عن المرء بصورة إرادية ، مما يجعلنا نعدها صورة سلبية للكلام ، إذ لا تصدر عن الإنسان إلا حين يعييه التعبير ، أو يرتج عليه فيعجز عن الكلام[٢] .

كما أن هذه الأصوات الانفعالية ، لا تعدو أن تكون أصواتاً عرفية ، تختلف باختلاف الأمم والشعوب ، إذ لكل شعب صوت خاص عند البكاء ، أو الأنين ، أو الدهشة ، أو الازدراء ، وغيرها من الانفعالات الغريزية[٣] .

٣ - ملكة زود بها الانسان الأول (Ding dong)

ذهب الفيلسوف الألمانى (ماكس موللر) والفيلسوف الفرنسى (رينان) إلى أن الانسان الأول ، قد خلق مزوداً بملكة الكلام ، كما خلق مزوداً بملكة

---

(١) دلالة الألفاظ : ٢٣ .

(٢) المصدر السابق : ٢٤ .

(٣) دلالة الألفاظ : ٢٤ .

التفكير ، وملكة التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، كانبساط أسارير وجهه في حالة الفرح والسرور ، وانقباضها في حالة الغضب والحزن ؛ فقد خلقه الله - تعالى - ولديه القدرة على تمكنه من وضع الألفاظ بإزاء المعاني ، ثم امحت منه هذه الغريزة تدريجياً ، وحل محلها الكلام الصناعي[١] . وفي هذا الصدد يقول (ماكس موللر) :

« إن الفضل في نشأة اللغة ، يرجع إلى غريزة ، زود بها الإنسان في الأصل ، للتعبير عن مدركاته ، وأن هذه الغريزة كانت متحدة عند جميع الأفراد ، في طبيعتها ووظائفها ، وما يصدر عنها ؛ وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات ، وتشابهت طرق التعبير عند الجماعة الانسانية الأولى ، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الانسانية الأولى ، لم يستخدم هذه الغريزة ، فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً ، حتى تلاشت ، كما انقرض - لهذا السبب - كثير من الغرائز الانسانية القديمة »[٢] .

ولا يخفى ما تنطوي عليه هذه النظرية من فساد ، إذ لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصددها ، بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر غموضاً وتعقيداً ، وهي مشكلة (الغريزة الكلامية) كما أنها لم توقفنا على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة على النطق ، والإنتفاع بها في تكوين الكلام الانساني ، أي الاسلوب الذي سار عليه الانسان في بادئ الأمر ، لوضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الاسلوب دون غيره[٣] .

---

(١) فقه اللغة : ٦٠ - ٦١ .
(٢) الوجيز في فقه اللغة : ٦٤ - ٦٥ ، وفقه اللغة : ٦١ .
(٣) علم اللغة : ١٠١ - ١٠٢ .

٤ - الأصوات الجماعية (yô - hê - hô)

وفحوى هذا الرأى أن النطق الإنسانى نشأ أولاً فى صورة جماعية ، فقد صدر عن مجموعة من الناس ، فى أثناء قيامهم بعمل شاق مضن ، تعاونوا على آدائه ، إذ أن الانسان يجد الراحة فى أثناء قيامه بعمل شاق ، إذا تنفس وتنهد بقوة وعنف ، وكرر هذا عدة مرات ، فهو يصدر من رئتيه قدراً من الهواء ، ويستريح لهذه العملية العضلية ، لأنها تخفف من عناء عمله ومشقته ، ويترتب على صدور الهواء ، وانبعاثه إلى خارج الفم أو الأنف أن يمر بالوترين الصوتيين ، فيحركهما ، فتسمع لهما ذبذبات ذات أنغام مختلفة ، ويشبه هذا ما نسمعه أحياناً من بعض العمال الآن حين يؤدون عملاً شاقاً مضنياً ، إذ تراهم يرددون عبارات بدائية ، لا تكاد تتضمن معنى معقولاً مفهوماً ، وهم بهذه العبارات يلتمسون عوناً لأنفسهم فى أثناء قيامهم بعملهم الشاق ، ويجدون فيها متنفساً وتشجيعاً ، فيكررونها ويعيدون تكرارها دون ملل أو سأم ، ثم لا تلبث هذه الأصوات أن ترتبط بالعمل نفسه ، وتصبح بمثابة علم عليه ، ينطقون بها كلما تكرر هذا العمل ، فى الظروف المختلفة ، ومثل هذه الأصوات الجماعية هى التى بدأ بها الكلام ، وهى التى تعد النواة الأولى فى نشأة اللغة[١] .

ولعل أهم ما يميز هذه النظرية عن النظريات السابقة ، أنها عالجت النشأة اللغوية فى ضوء المجتمع الانسانى ، وربطت بين اللغة والمجتمع ربطاً وثيقاً ، إذ تتضمن أن اللغة نشأت حين اجتمع الانسان بأخيه الانسان ، ولم تنشأ عنه وهو منفرد ومنعزل ، فى حين أن كل النظريات الأخرى تفترض أن الكلمات الأول ، صدرت عن الانسان المنفرد ، ثم قلده غيره فى نطقه[٢] .

---

(١) دلالة الألفاظ : ٢٦ .

(٢) المصدر السابق .

ورغم ما تمتاز به هذه النظرية ، إلا أنها غير سديدة ، ولا تحتل مكان القبول لدى علم اللغة الحديث ، إذ تفترض أن الانسان ظل صامتاً ، لا ينطق أمداً طويلاً ، ثم نطق بكلمات كاملة ، بل بعبارات كاملة ، بطريقة فجائية ، دون مران أو دربة على النطق ؛ وهذا مناقض لقانون التطور ، حيث المقطوع به أن الانسان لا ينطق إلا بعد تدريب طويل لأجهزة النطق على إنتاج الأصوات ، ثم التأليف بينها ، فتنتج الكلمات ، ثم العبارات ، وهكذا يتم الكلام .

تلك هى النظريات التى اشتهر أمرها فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى - كما ترى - لم تحل مشكلة نشأة اللغة ، ولم تفسرها تفسيراً تطمئن إليه النفس ، حيث يمكن أن توجه إليها الافتراضات التالية :

١ - إن هذه النظريات على تعددها لم تفسر لنا إلا ناحية واحدة من نواحى اللغات ، وتركتنا حائرين أمام النواحى الأخرى ؛ وربما كان ما فسرته لنا أقل جوانب اللغة قيمة ، وذلك لأن الألفاظ التى تبدو لنا الآن ، وقد ارتبطت أصواتها بمدلولاتها ، لا تتجاوز نسبة ضئيلة من كلمات كل لغة .

٢ - كلها - فيما عدا النظرية الأخيرة - قد أهملت الربط بين اللغة والمجتمع ، مما لا يستطيع اللغوى الحديث أن يتصوره .

٣ - إنها تفترض أن الانسان الأول ظل صامتاً فترة من الزمن ، قبل أن تنشأ لغته ، ثم نطق بألفاظ كألفاظ لغتنا ، وأدت عضلات نطقه وظيفتها أداء كاملاً ؛ ومثل هذا يخالف ما نعهده من أن العضو لا يبدأ وظيفته بدءاً كاملاً ، حيث يحتاج إلى المران الطويل ، قبل أن يؤدى تلك الوظيفة الأداء الكامل ؛ ومن ثم فالمعقول أنها كانت تنطق نوعاً من النطق ، وتصوت نوعاً من التصويت ، حتى إذا اكتمل لأعضاء النطق نموها

وتطورها ، صدر عنها تلك الأصوات الانسانية التى تشبه ما يصدر عن الانسان الآن[1] .

ونظراً لما وجه إلى النظريات السابقة من اعتراضات ، فقد دأبت مجموعة من علماء اللغة المحدثين على البحث عن نظرية تكون أقرب إلى الاطمئنان أو الترجيح ، وتلقى القبول لدى علم اللغة الحديث ، حتى اهتدى هذا الفريق وعلى رأسه العالم اللغوى السويسرى (چسبرسن) إلى نظرية تأخذ بكل النظريات السابقة مجتمعة ، وتبنى عناصرها على أسس علمية واضحة المعالم ، كما أنها تخضع للتجربة والملاحظة ، وتعتمد هذه النظرية على أسس ثلاثة :

١ - دراسة نمو اللغة عند الأطفال .

٢ - دراسة اللغة عند الأمم البدائية .

٣ - دراسة تاريخية للتطور اللغوى .

وذلك على التفصيل الآتى :

أ) فبالنسبة لنمو اللغة عند الأطفال ، اعتمد أصحاب هذه النظرية على ما قطع به علماء التشريح من أن الجنين يمر خلال شهور الحمل الأولى فى نفس المراحل التى مر بها الانسان قبل أن تكتمل إنسانيته ، فتوهموا أن هذا التشابه فى التطور الفسيولوجى ، يصاحبه تشابه مماثل فى التطور اللغوى ، فاعتقدوا أن مراحل نمو اللغة عند الأطفال ، هى المراحل نفسها التى يمر بها الانسان الأول ، متناسين البون الشاسع بين ظروف الأطفال حين يتعلمون لغة أبويهم ، وبين الظروف التى عاش فيها الانسان الأول فى أثناء نشأة الكلام ، حيث يقلد الطفل مثالاً قائماً أمامه - وهو لغة والديه ومجتمعه - على خلاف ما كان عليه الانسان الأول[2] .

---

(١) دلالة الألفاظ : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢٩ .

غير أنه مع هذا يمكن أن يستأنس بمراحل نمو اللغة عند الأطفال ، مقصورة على السنة الأولى من عمرهم ، حيث يناغون ويتفوهون بأصوات مبهمة ، لا تهدف إلى شيء سوى اللذة والمتعة ؛ وبعد السنة الأولى وقبل نهاية السنة الثالثة ، نرى بعض الأطفال ينطقون بألفاظ مخترعة لا تكاد تمت في أصواتها ومدلولاتها للغة أبويهم بصلة ما[1] .

وخير مثال لذلك ما توصل إليه العالم اللغوى الانجليزى (لويس) من أن الطفل فى غضبه يصدر أصواتاً أنفية تشبه حرف (الميم) و (النون) بينما يصدر فى فرحه وسروره أصواتاً حلقية ، أو قريبة من الحلق ، مثل (الكاف) و (الغين) و (الجيم) ؛ حيث يتسنى لنا أن نقول أن صوت الغضب الفطرى ، قد تولدت عنه فى آخر الأمر تلك الأدوات التى تعبر عن النفى فى اللغات (لم – لا – لن – ما – no – non) .

ب) أما بالنسبة للغة عند الأمم البدائية . فيرى القائلون بهذه النظرية أن لغات هؤلاء الأقوام تمثل مرحلة قديمة فى نمو اللغات وتطورها ، وأنه بمقارنتها بلغات الأمم المتمدينة ، يمكن التعرف على الطريق الذى سلكته اللغة فى تطورها .

وقد وهم أيضاً أصحاب هذه النظرية فى تصورهم أن لغات الأمم البدائية قريبة الشبه بلغة الانسان الأول ، إذ هى تمثل مرحلة متأخرة نسبياً من مراحل التطور اللغوى ، فلا شك أن آلافاً من السنين قد مرت على لغة الانسان ، قبل أن تصل إلى مرحلة تلك الشعوب .

جـ) بالنسبة للدراسة التاريخية للتطور اللغوى . وقد بدأ العلماء هذه الدراسة بطريقة عكسية ، إذ بدأوا البحث فى لغات العصر الحاضر ، ثم عادوا إلى الوراء جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، معتمدين على النصوص

(١) دلالة الألفاظ : ٢٩ .

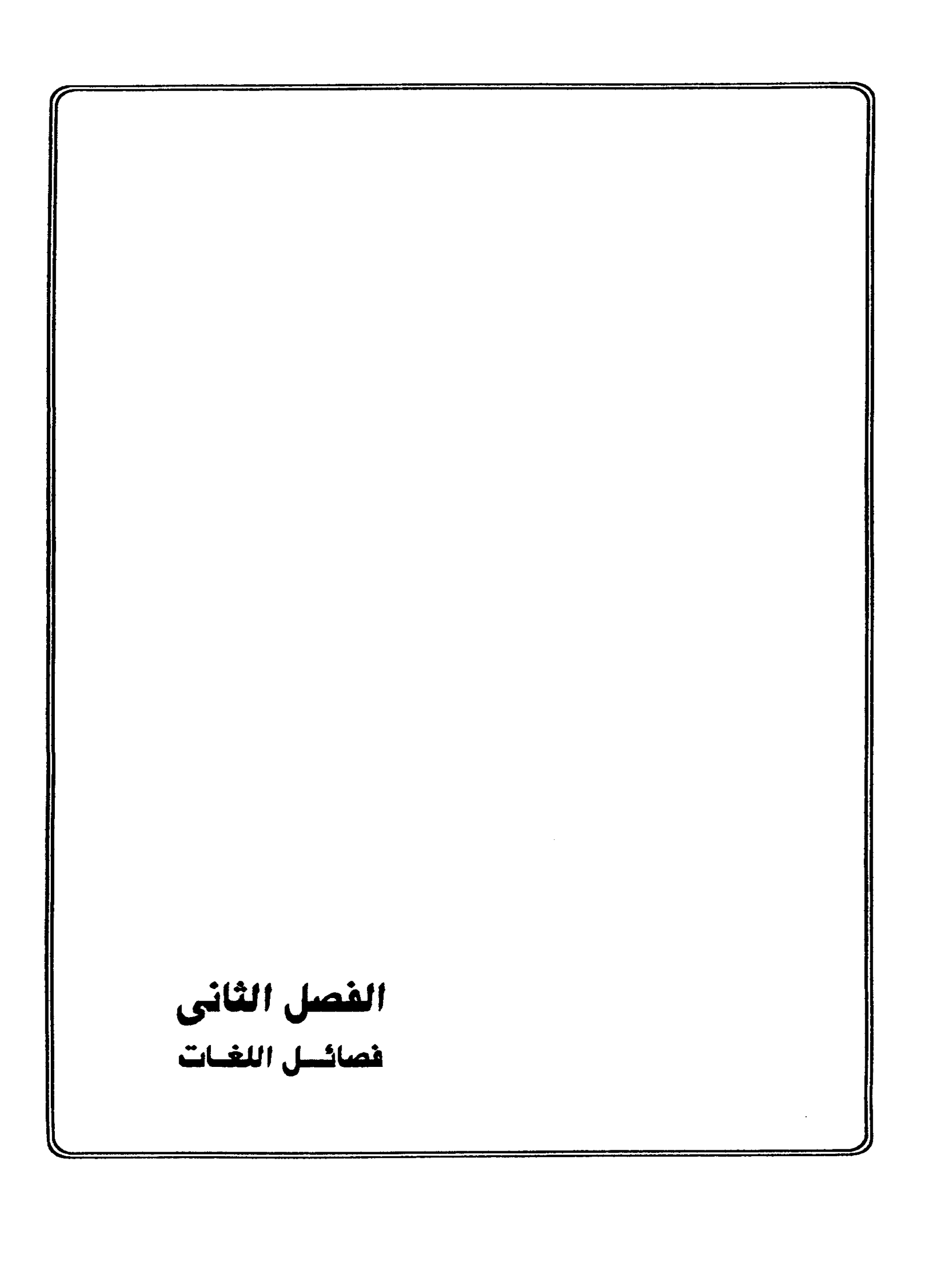
اللغوية ، والمستندات التاريخية ، والمقارنة بينها ، بهدف استنباط قوانين أو قواعد عامة للتطور اللغوى خلال العصور التاريخية التى روى عنها نصوص لغوية ، يمكن تطبيقها على عصور ما قبل التاريخ ، واستنباط الحال التى كانت عليها اللغات فى تلك العصور البعيدة التى لا نكاد ندرى من أمرها شيئاً[1] .

ومن ثم كان هذا الأساس التاريخى ، هو أهم الأسس الثلاثة فى دراسة النشأة اللغوية ، لمسايرته لأسس البحث العلمى الجاد ، الذى يقوم على الدراسة التاريخية المقارنة الاستنباطية .

---

(١) المصدر السابق : ٣٠ - ٣١ .





الفصل الثانى

فصائــل اللغــات

الفصل الثانى

فصائل اللغات

إن حياة اللغات وارتقاءها ، يتوقفان على نصيب أهل كل لغة من الرقى والتقدم ، وعلى مقدار جهودهم فى صيانتها ورعايتها والحفاظ عليها ؛ ومن ثم نرى لغات قد انتشرت وارتقت ، ولغات ماتت واندثرت ، فكم من أمة تلألأ نجمها وازدهر ، ونالت حظها من الرقى والتقدم ، ثم عدت عليها العوادى ، فشتتت شملها ، ومزقتها كل ممزق ، فضعف بنوها واستكانوا ، وذهبت بذهابهم قوميتهم وهويتهم ، وأصبحوا أثراً بعد عين ، فكان ذلك نصيب لغتهم ؛ وتبعاً لذلك قام علماء اللغات بتقسيم لغات العالم إلى ثلاثة أقسام :

١ - اللغات الحية : وهى اللغات المستخدمة اليوم ، وهى التى لغات أمم حية ، يتم تفاهمهم المطلق بها ، كالعربية ، والفارسية ، والحبشية ، والانجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والروسية ... الخ .

٢ - اللغات البائدة : وهى اللغات التى بادت أممها ، وانقرض أهلها ، فطمست معالمها ، إلا بقايا أخذت عن النقوش الأثرية التى عثر عليها ، وأعان البحث وبذل الجهد على فك رموزها ، وقراءة خطوطها ، والوقوف على معانيها ، كاللغة المصرية القديمة ، والفينيقية ، والبابلية ، والآشورية .

٣ - اللغات الميتة : وهى التى نزلت بأهلها الكوارث ، وحلت بهم المصائب ، فنزعت منهم لغتهم وهويتهم وقوميتهم ، أو غلبوا على أمرهم فيها ، فانساحوا بين الشعوب ، واندمجوا فى سلك المتكلمين بغيرها من اللغات الحية ، ولم يبق من أبنائها من يتم التفاهم بينهم بها اليوم ، كالسريانية ، والعبرانية - مما لا تزال معروفة متداولة ، ولكنها ليست لغة شعب حصر تفاهمه المطلق فيها [1] .

---

(١) أنظر متن اللغة : ١/٢٩ .

وذهب فريق آخر من علماء اللغة إلى تقسيم اللغات الإنسانية إلى فصائل ، يجمع بين أفراد كل فصيلة فيها صلات قرابة لغوية ، إذ تتفق فى أصول الكلمات ، وقواعد البنية ، وتركيب الجمل ... وما إلى ذلك ؛ ويتكون من الأمم الناطقة بها ، مجموعة إنسانية متميزة ، ترجع إلى أصول شعبية واحدة ، أو متقاربة ، وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية ، والتاريخية ، والاجتماعية .

وأشهر نظرية قسمت اللغات على هذه الأسس ، هى نظرية « ماكس مولر » التى ترجع اللغات الإنسانية جميعاً إلى ثلاث فصائل[1] :

١) الفصيلة الهند أوروبية :

وكان القدامى من علماء اللغة يطلقون عليها اسم (اللغات الآرية) نظراً لأن غالبية المتكلمين بها ينتمون إلى الجنس الآرى ، ولكن المحدثين منهم آثروا العدول عن هذا الاسم ، اتقاء لمظنة الخلط واللبس ، إذ قصروا اسم (اللغات الآرية) على مجموعة اللغات الهندية - الإيرانية فحسب ؛ وفصيلة اللغات الهند أوروبية هذه تنتظم ثمان طوائف من اللغات هى :

١ - اللغات الهندية - الإيرانية (الآرية) .
٢ - اللغات الأرمينية .
٣ - اللغات الإغريقية .
٤ - اللغات الألبانية .
٥ - اللغات الإيطالية .
٦ - اللغات السلفية (الكلتية) .
٧ - اللغات الجرمانية .
٨ - اللغات البلطيقية (السلافية)[2] .

---

(١) علم اللغة : ١٩٦ .
(٢) علم اللغة : ١٩٧-١٩٩ .

ولا ريب أن الشعوب الناطقة بلغات هذه الفصيلة (الهند أوروبية) هى أرقى شعوب العالم حضارة فى العصر الحاضر ، وأعظمها نشاطاً ، وأعلاها شأناً ، وأكثرها إنتاجاً فى مختلف فروع الحياة ، وأجلها أثراً فى الحضارة الإنسانية الحديثة ؛ كما أنها أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً ، إذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوروبا ، والأمريكتين ، واستراليا ، وجنوب إفريقيا ، ما عدا بعض جماعات قليلة بأوروبا ، والسكان الأصليين للأمريكتين ، واستراليا ، وجنوب افريقيا ، الذين انقرض معظمهم ، ولم يبق منهم الآن إلا عدد يسير جداً ، آخذ فى الانقراض ؛ كما يتكلم بها عدد كبير من سكان آسيا مثل : الهند ، وفارس ، وأفغانستان ، وكردستان ، والقوقاز ، وأرمينيا[١] .

ويرجع الفضل فى انتشار هذه الفصيلة إلى عوامل كثيرة ، أهمها الغزو الاستعمارى ، إذ على إثر غزو الأوروبيين للهند ، انتشرت لغاتهم فى هذه البلاد ، وقضت على لغات السكان الأصليين ، وعلى إثر استعمار الأوروبيين للأمريكتين واستراليا وجنوب افريقيا ، انتقلت إلى هذه المناطق اللغات : الانجليزية ، والأسبانية ، والفرنسية ، والبرتغالية .

أما الموطن الأصلى لهذه الفصيلة ، فغير معروف على وجه التحقيق ، إذ ذهب العلماء فى شأنه مذاهب شتى ، تعتمد فى معظم نواحيها على الحدس والتخمين ، وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة ، ودلائل واهية ، لا يطمئن إلى مثلها التحقيق العلمى ، فمن قائل أنها نشأت بأرض بابل أو أرمينيا ، ثم نزح أهلها إلى الهند[٢] ؛ إلى قائل بأنها نشأت فى أوروبا الشرقية بالمناطق الروسية ؛ وثالث يقول بأنها نشأت بمناطق بحر البلطيق[٣] ، دون أن يصيب أحد عين الصواب ، على وجه القطع أو الجزم .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) فقه اللغة ، للدكتور ابراهيم نجا الأبيارى : ٣٠ .

(٣) علم اللغة : ٢٠٠ .

ب) الفصيلة السامية - الحامية :

وتنتظم هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات ، إحداهما مجموعة اللغات السامية ، والثانية مجموعة اللغات الحامية ؛ أما مجموعة اللغات السامية فتنتظم طائفتين :

١ - اللغات السامية الشمالية . وتشمل : الأكادية ، والآشورية ، والبابلية ، والكنعانية (العبرية ، والفينيقية) ، والآرامية .

٢ - اللغات السامية الجنوبية . وتشمل : العربية ، واليمنية القديمة ، واللغات الحبشية السامية .

وتنتظم مجموعة اللغات الحامية ثلاث طوائف :

١ - اللغات المصرية . وتشمل : المصرية القديمة ، والقبطية .

٢ - اللغات اللينة (البربرية) . وهى لغات السكان الأصليين لشمال إفريقيا ، وجنوب المغرب ، وجزر كناريا .

٣ - اللغات الكوشية . وهى لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا ، ما عدا نحو ثلثى الحبشة الذين يتكلمون لغات سامية ، وبعض المناطق السودانية .

وواضح أن المنطقة التى تشغلها الفصيلة (السامية - الحامية) أصغر كثيراً من تلك التى تشغلها الفصيلة (الهند أوروبية) ، فبينما تشغل الفصيلة (الهند أوروبية) أوروبا ، والأمريكتين ، واستراليا ، وجنوب افريقيا ، وقسماً كبيراً من آسيا ؛ نجد الفصيلة (السامية - الحامية) لا تشغل إلا بلاد العرب ، وشمال إفريقيا ، وجزءاً من شرقيها ؛ فمساحتها لا تجاوز عشرين مليون كيلو متر مربع ، قسم كبير منها صحراوى (بلاد العرب ، وشمال

افريقيا) ، وعدد الناطقين بها لا يتجاوز مائة وخمسين مليون نسمة ، أى نحو عشر سكان أوروبا وحدها[1] .

ولكن صغر المساحة هذا ، أضفى على هذه الفصيلة من الميزات ما لا يتوفر لأختها (الهند أوروبية) منها :

١ - منطقتها متماسكة الأجزاء ، مترابطة الأطراف ، لا يتخللها عنصر أجنبى .

٢ - الناطقون بها يشكلون مجموعة شديدة التجانس ، تتلاقى شعوبها فى أصول واحدة .

٣ - تتفق شعوبها فى أساليب الحياة ، ونوع الحضارة ، والنظم الاجتماعية .

وقد أسلم ذلك إلى أن صارت اللغات السامية منها ، يجمع بينها كثير من الصفات المشتركة ، المتعلقة بأصول الكلمات ، والأصوات ، ومخارج الحروف ، وقواعد النحو والصرف ؛ على غير الملاحظ فى اللغات الحامية ، التى ظلت كل منها محافظة على استقلالها وانعزالها ، مما حدى بالعالم الفرنسى (مارسيل كوهين) إلى جعل هذه الفصيلة أربع مجموعات هى : السامية ، والمصرية ، والبربرية ، والكوشية[2] .

ونظراً لما كانت عليه مجموعة (اللغات السامية) من التمازج والتآلف ، فقد تسنى لها التغلب على أختها - مجموعة اللغات الحامية - واحتلت كثيراً من مناطقها ؛ فاللغات القبطية ، والبربرية ، قد انهزمت أمام اللغة العربية ، ولم يبق من البربرية إلا فلول ضئيلة ؛ وكذلك كانت نهاية الكوشية فى صراعها مع اللغات السامية ، إذ احتلت السامية معظم مناطقها ، ولم يبق الآن من اللغات الكوشية إلا بعض لهجات قليلة من بلاد الصومال والحبشة والمناطق المتاخمة لهما .

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) علم اللغة : ٢٠٣ .

كما نشب الصراع بين اللغات السامية بعضها وبعض ، وأول صراع وقع بين الآرامية وبين الأكادية والكنعانية ، حيث قضت الآرامية على الأكادية فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم صرعت المصرية فى أواخره ، ثم سحقت الفينيقية فى القرن الأول قبل الميلاد ؛ والصراع الثانى كان بين العربية وأخواتها ، حيث قضت على اللغات اليمنية القديمة قبل الإسلام ، ولم ينج منها إلا بعض مناطق متطرفة منعزلة ، ثم قضت على الآرامية فى القرن الثامن الميلادى ، فيما عدا بعض المناطق المتطرفة المنعزلة أيضاً ؛ ثم امتد أثر العربية إلى الأمم الآرية ، والطورانية التى اعتنقت الدين الإسلامى - كالفرس ، والهنود ، والأتراك ، والإندونيسيين ... الخ - إذ احتلت لدى هذه الأمم والشعوب مكانة مقدسة سامية ، وتركت بصمات واضحة على كثير من لغاتها ، فاتسعت بذلك رقعة نفوذها ، حتى بلغ عدد الناطقين بها ، والمتأثرين بسلطانها ، نحو ستمائة مليون نسمة من سكان المعمورة[1] .

جـ) *الفصيلة الطورانية* :

وهذه لا تكاد تؤلف فصيلة لغوية بالمعنى الصحيح ، ترجع إلى أصول واحدة ، ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وتقارب ، بل هى أمشاج من لغات شتى ، لا يؤلف بينها سوى صفة سلبية ، هى عدم انضوائها تحت أى من الفصيلتين السابقتين ، إذ عمد (ماكس مولر) و (بولسن) و (رينان) إلى جمع ما تبقى من لغات العالم - خارج نطاق الفصيلتين السابقتين - وأطلقوا عليه اسم (اللغات الطورانية) .

ثم ما لبثت (جمعية علم اللغة) بباريس ، إلا أن خرجت على العالم بنظرية ضمنتها موسوعتها المعروفة باسم (لغات العالم) تقوم على تقسيم اللغات الطورانية هذه إلى فصائل ، يجمع بين أفراد كل فصيلة منها صلات

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٤-٢٠٥ .

تشابه وقرابة لغوية ، إذ تتفق فى أصول الكلمات ، وقواعد البنية ، وتركيب الجمل ؛ ويتكون من الناطقين بها مجموعة إنسانية متميزة ، ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ، ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ؛ ومن ثم فقد تم تقسيم هذه الفصيلة (الطورانية) إلى تسع عشرة طائفة على النحو التالى :

١ - اللغات اليابانية .
٢ - اللغات الكورية .
٣ - لغة الإينو (بعض الجزر اليابانية الروسية) .
٤ - اللغات الصينية - التبتية .
٥ - اللغات الأسيوية الاسترالية .
٦ - اللغات الدرافيدية (جنوب الهند) .
٧ - اللغات القوقازية الشمالية .
٨ - اللغات القوقازية الوسطى .
٩ - اللغات الآسيوية القديمة .
١٠- اللغات التركية والمغولية والمنشورية.
١١- اللغات الغينية والأجرية والسامريدية .
١٢- لغة الباسك .
١٣- اللغات الهيبيربورية .
١٤- اللغات الملايوية - البولينيزية .
١٥- لغات سكان استراليا الأصليين .
١٦- اللغات الأمريكية (الهنود الحمر) .
١٧- لغات السودان الجنوبى وغانة .
١٨- اللغات البنطوية .
١٩- لغات النيجيريين ، والهوتنتوت ، البوشيمان[١] .

---
(١) راجع علم اللغة : ٢٠٦ - ٢١٦ .

ولما كانت هذه الطوائف التسع عشرة ممثلة للقسم البدائى ، أو الذى وقف نموه من لغات بنى الإنسان عند حد معين من التطور ، فإن أهميتها النسبية أقل كثيراً من أهمية الفصيلتين السابقتين ، كما أن الباحثين لم يصلوا بعد فى دراسة معظمها ، إلى نتائج ذات بال ؛ ونظراً لأن المقام لا يتسع فى عجالة كهذه ، للكلام عن الفصائل الثلاث ، بكل لغاتها ، والخصائص المنوطة بكل منها ، فضلاً على أن ما يعنينا فى هذه الدراسة هو الفصيلة التى تندرج تحتها (اللغة العربية) ، حيث هى محور دراستنا ، ومناط بحثنا ، ألا وهى (الفصيلة السامية - الحامية) ، كما أننا سوف نقصر دراستنا ، ونقف بحثنا على مجموعة اللغات السامية دون الحامية ، منعاً من تشتت الفكر ، وتفرق المعانى والدلالات ، فنقول وبالله التوفيق .



الفصل الثالث

اللغات السامية

الفصل الثالث

اللغات السامية

جاء في التوراة ما مفاده : أنه بعد أن استوت سفينة نوح – عليه السلام – على الجودى بعد انتهاء الطوفان ، وكان ذلك بأرض أرمينيا ، بالقرب من حدود كردستان ، كان على متنها أبناء نوح الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ؛ وعندما تفرق الناجون من الطوفان ، نزح (سام) مع أبنائه إلى جنوب العراق ، ثم إلى شبه جزيرة العرب ؛ حيث ذكرت التوراة أن أبناء (سام) هم : عيلام ، وآشور ، وأرفكشاد ، ولود ، وآرام ؛ وأنه قد ولد لأرفكشاد : شيلاش ، وولد لشيلاش : عابر (أبو العبرانيين) ؛ بينما نزح (حام) مع ولده إلى قارة افريقيا[1] .

ومن ثم فقد أطلق العالم الألمانى (شلوتزر) على الشعوب التى انحدرت من (سام) والتى كانت تسكن شبه الجزيرة العربية والعراق – وهى : الشعوب الآرامية ، والفينيقية ، والعبرية ، والعربية ، واليمنية ، والبابلية ، والأشورية – اسم (الساميين) ؛ كما أطلق على الشعوب التى انحدرت من (حام) والتى كانت تسكن افريقيا اسم (الحاميين) .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، انضم العالم الألمانى (وايكهورن) إلى زميله (شلوتزر) فى إطلاق اسم (اللغات السامية) على لغات الشعوب التى انحدرت من الأصل السامى ، واسم (اللغات الحامية) على لغات الشعوب التى انحدرت من الأصل الحامى .

ولقد توفر عدد من العلماء والباحثين على دراسة (اللغات السامية) ، والبحث فيها ؛ فقد اتجه العالم الفرنسى (رينان) إلى دراسة تاريخها ، ونشأتها ، وحياتها ، وتطورها ، وألف فى منتصف القرن التاسع عشر ،

(١) أنظر سفر التكوين : الإصحاح العاشر .

كتاباً جليلاً تناول فيه كل ذلك ، وسماه (التاريخ العام للغات السامية) ؛ إلا أن العالم الألمانى (نولدكه) قد استدرك عليه كثيراً من الأخطاء ؛ كما توفر كل من العالمين (زيميرن) و (رايت) على دراسة أصواتها ، وقواعدها ، ومفرداتها ، والمقارنة بينها على هذه الأسس ؛ بينما جمع العالم الألمانى (بروكلمان) بين الدراسة التاريخية التطورية لهذه اللغات ، وبين دراسة أصواتها ، وقواعدها ، ومفرداتها فى دراسة واحدة .

الموطن الأصلى للشعوب السامية :

اختلف العلماء اختلافاً بيناً ، حول تعيين الموطن الأصلى للشعب السامى ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، دون أن يصيب أحدهم عين الحقيقة ، وتنحصر آراء العلماء فى هذا الصدد فى آراء ستة :

١ – أن الساميين قد نشأوا ببلاد الحبشة ، ومنها نزحوا إلى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية عن طريق (باب المندب) ، ثم واصلوا انتشارهم فى مختلف أرجاء شبه الجزيرة .

٢ – أن الموطن الأول للساميين كان شمال إفريقيا ، ومنه نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس .

٣ – أن المهد الأول للشعب السامى كان بلاد أرمينية بالقرب من حدود كردستان .

٤ – أن الموطن الأصلى للشعوب السامية كان جنوب العراق ، وإلى هذا ذهب المستشرق (جويدى) ؛ وهذا الرأى يتفق مع ما ورد فى سفر التكوين من التوراة من أن أقدم بقعة عمرها أولاد نوح بعد الطوفان هى أرض بابل .

٥ – أن المهد الأول للشعوب السامية كان بلاد كنعان ، وهى منطقة سوريا والشام .

٦ - أن الموطن الأصلي للساميين كان القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ، ونجد ، واليمن) .

وإلى هذا الرأى الأخير ، يميل كثير من المستشرقين - قدامى ومحدثين - وعلى رأسهم العالمان (رينان) الفرنسي ، و (بروكلمان) الألماني ، حيث يتوفر له عدد لا بأس به من الأسانيد والأدلة ، وتؤيده اثار هذه الأمم وحقائق التاريخ ، ويمكن حصر هذه الأدلة - على اختلاف طبيعتها - في ثلاثة أدلة :

١) دليل تاريخي :

ويتمثل في الهجرات التى كانت تخرج من شبه الجزيرة العربية إلى خارجها ؛ فقد ثبت تاريخياً أن جميع الهجرات التى خرجت في عصور ما قبل التاريخ ، وفي العصور التاريخية ، نزحت جميعها من القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ، ونجد ، واليمن) ، متوجهة إلى الشمال والشرق (سوريا والعراق) ، وهي على النحو التالي :

* في نحو القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد ، نزح الساميون إلى جنوب العراق ، وغزوا بلاد السومريين ، وغلبوهم على أمرهم ، وأسسوا بهذه المنطقة دولة عظيمة ، ومدنية زاهرة ، هي مملكة (بابل) .

* في نحو القرن السادس والعشرين قبل الميلاد ، نزح الساميون إلى بلاد الشام ، فتكونت من سلالاتهم الشعوب التى عرفت باسم (الكنعانيين) ، ويبدو أن تخلف منهم بشمال الحجاز تلك القبائل التى عرفت عند العرب باسم قبائل (ثمود) ، التى تركت في هذه المنطقة نقوشاً ، كان لها شأن كبير في الوقوف على جانب كبير من تاريخ اللغات السامية عامة ، واللغة العربية بصفة خاصة[١] .

---

(١) أنظر (النقوش الثمودية) ، ص ١٠٢ .

* في نحو القرن السادس عشر قبل الميلاد ، نزح الساميون إلى بلاد العراق ، وأسسوا بها الدولة (الكلدية) الخامسة التى كان من ملوكها (حمورابى) .

* في نحو القرن السادس قبل الميلاد ، نزح بعض قبائل الاسماعيليين - وهم نسل اسماعيل عليه السلام ، وكان موطنهم الأصلى بلاد الحجاز - إلى الشمال ، وكان من أشهر هذه القبائل (بنو قيدار) و (بنو نابت) ، وقد نزح بنو قيدار من الحجاز إلى يثرب ، ثم إلى مدائن صالح ، حيث تركوا نقوشاً ، وفق العلماء حديثاً إلى كشفها وحل رموزها ، ومن مدائن صالح تابعوا هجرتهم شمالاً إلى خليج العقبة ، ومنه إلى وادى موسى .

أما بنو نابت ، فقد نزحوا إلى الشمال واستقروا فى منطقة خليج العقبة ، حيث كونوا مملكة عظيمة وتركوا اثاراً كثيرة ، وعنهم عرف الخط النبطى الذى اشتق منه الخط العربى .

* فى أوائل التاريخ الميلادى ، نزحت بعض القبائل المعدية - نسبة إلى معد بن عدنان ، وكان موطنها الحجاز - إلى الشام ، كما نزحت بعض القبائل القحطانية من موطنها فى اليمن ، إلى الحجاز والشام والشرق ، فنزل منها خزاعة بمكة ، ونزل الأوس والخزرج بيثرب ، وغسان بالشام ، ولخم بالعراق .

* يقرر معظم الباحثين أن أول هجرة سامية إلى الحبشة خرجت من بلاد اليمن .

ب) دليل جيولوجي :

ذهب العالم الجيولوجى الفرنسى (الأمير كيتانى دى تيانو) إلى أن القسم الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ، ونجد ،

واليمن) كان فى العصور السابقة للتاريخ ، كثيف السكان ، خصب الأرض ، موفور الخيرات ، تخترقه ثلاثة أنهر كبيرة على الأقل ، وأنه على إثر بعض الظواهر البحرية ، وانحسار جبال الثلج الكبيرة إلى الشمال ، فقد الاقليم خصبه ، وجفت أنهاره ، فنزح معظم سكانه إلى جهات أخرى ؛ وقد اعتمد فى نظريته على أدلة مستمدة من البحوث الجيولوجية التى أجريت بهذه المنطقة .

وقد اتفق العالم الانجليزى (توينبى) مع الأمير كيتانى ، فيما ذهب إليه ، حيث نشر مقالاً بجريدة (مانشستر جارديان) العدد التاسع والعشرين ، الصادر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، يتضح منه اتفاقهما فى الرأى على وجه التقريب[١] .

جـ) دليل عقلى [٢] :

لاحظ علماء اللغات ، ممن يهتمون بالفكر والثقافات لدى الشعوب التى يعنون بدراسة لغاتها ، أمثال العالم الفرنسى (رينان) ، أن العقلية السامية القديمة ، كانت عقلية أساسها المُحَسّ المُشَاهَدُ ، لا المعنوى المتخيَّل ، قليلة العمق فى المعقولات المحضة ، لا تكاد تلمس ما وراء الطبيعة إلا برفق وسذاجة ، وفى نطاق محدود ؛ وليس أدل على ذلك من أن معظم الكلمات السامية الدالة على الحقائق الكلية ، والأمور المعنوية ، والظواهر النفسية ، ترجع أصولها إلى أمور مادية ، تتصل بعالم الحس ؛ فجميع الكلمات والجُمل التى يعبر بها فى العبرية عن الغضب مثلاً ، تدل فى الأصل على أمور حسية ، فأحياناً يعبر عنه بكلمة تدل فى الأصل على التنفس السريع القوى الذى يصحب الغضب عادة ؛ وأحياناً بكلمة تدل على الرعشة ، أو ارتفاع الحرارة ، أو الغليان .

---

(١) أنظر فقه اللغة : ١٣ .

(٢) آثرنا تسميته (الدليل العقلى) لأنه يقوم على ملاحظة العقلية السامية ، ومدى نضجها ، ودرجة تطورها .

والخوف يعبر عنه بكلمة تدل فى الأصل على ارتخاء الكليتين .

والتكبر يعبر عنه بكلمة تدل فى الأصل على الشموخ بالرأس ، أو استطالة القامة ، واعتدالها .

واليأس يعبر عنه بكلمة تدل فى الأصل على تقطع نياط القلب .

والصبر يعبر عنه بكلمة تدل فى الأصل على طول النفس .

والرغبة يعبر عنها بكلمة تدل فى الأصل على الظمأ .

والعفو يعبر عنه بكلمة تدل فى الأصل على المحو والإزالة .

ومن الواضح أن عقلية هذا شأنها ، لا تنشأ إلا فى مواطن صحراوية ، قليلة المظاهر الطبيعية ، غير متنوعة الأجواء ، لأن المناطق المتنوعة الأجواء ، الغنية بمظاهر الطبيعة ، تنمى قوة الخيال ، وتؤدى إلى تنوع التفكير ؛ وهذه الأوصاف من التصحر ، وقلة مظاهر الطبيعة ، والافتقار إلى تنوع الأجواء ، متوفرة فى المنطقة الجنوبية الغربية من شبه جزيرة العرب (بلاد الحجاز ، ونجد ، واليمن) ، مما يقوم دليلاً عقلياً على أنها كانت الموطن الأصلى للشعوب السامية[1] .

اللغة السامية الأم :

لم يكن اختلاف العلماء فى الموطن الأول للشعب السامى ، بأكثر منه فى الوقوف على اللغة الأولى التى كان يتكلمها الساميون ، إبان اجتماعهم فى موطن واحد .

فقد اعتقد أحبار اليهود فى العصور القديمة أن اللغة العبرية هى أقدم لغة سامية ، وذاع هذا الاعتقاد وانتشر حتى صدقه بعض العلماء العرب ، ومالوا إلى القول به .

---

(١) راجع : فقه اللغة : ١٠ - ١٤ .

وذهب بعض العلماء إلى أن اللغة الآشورية البابلية ، هى أقدم لغة سامية عرفها التاريخ ، واستدلوا لذلك بوجود بعض الألفاظ الآشورية البابلية فى بعض اللغات السامية بعد انشعابها عن اللغة الأم .

وذهب فريق من العلماء المحدثين ، وعلى رأسهم العلاقة (أولسهوزن) إلى أن اللغة العربية هى أقرب اللغات إلى اللغة السامية الأم .

كما عمد بعض علماء اللغة ، إلى تحرى الظواهر المشتركة بين اللغات السامية فى المفردات وقواعد الأبنية والتراكيب ، واتخذوا منها صورة متخيلة للغة السامية الأم ، واعتبر أقرب اللغات السامية إلى هذه الصورة ، هى أقدم اللغات نشأة ، وأولها وجوداً .

ولكن كل هذه المزاعم والتخرصات ، لا ترقى إلى مستوى التحقيق العلمى ، ولا يمكن الأخذ بها ، والاعتماد عليها ، حيث إنها جميعها ظنية ، تقوم على الحدس والتخمين ، بل تفتقر إلى الدليل القطعى ، والبرهان الثابت ، نظراً لأنه من المقطوع به علمياً أن كل هذه اللغات قد اعتراها من التطور والتغير - قبل أن تصل إلى الصورة التى أتيح للعماء الوقوف عليها - ما جعلها تبتعد تماماً عن النقطة الأولى التى بدأت منها ، ولا سيما مع تفرق مناطقها ، وتعدد طوائف المتكلمين بها .

غير أن ثمة عدداً كبيراً من علماء الاستشراق المحدثين يكاد يسلم بأن اللغة العربية ، قد احتفظت بالكثير من الأصول السامية القديمة ، فى مفرداتها ، وقواعد بنيتها ، وتراكيبها ، وأنها تنفرد بهذه الميزة دون غيرها من الساميات ، ويرجعون السبب فى هذا إلى أن المتكلمين بالعربية ، كانو يقيمون فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ، ونجد ، واليمن ، وما إليها) ، وهى بلاد بداوة وتصحر ، مما جعلهم فى عزلة تامة عن أهالى البلاد المتمدينة ، مما جعل التطور والتغير يسرى فى لغتهم ، سرياناً بطيئاً ، لقلة احتكاكها باللغات الأخرى .

فإذا كانت اللغة العربية - بظروفها هذه - أبعد بنات السامية عن التطور والتغير والتحريف ، كانت أقرب البنات إلى الأم ، إن لم تكن هى الأم نفسها ؛ وعليه تكون اللغة العربية هى اللغة السامية الأم ، أو أقرب الساميات إلى اللغة السامية الأم[1] .

خصائص اللغات السامية :

تشترك اللغات السامية فى خصائص بعينها ، جعلت علماء اللغة يجعلون من هذه اللغات فصيلة واحدة ، وأبرز هذه الخصائص :

أ) يتألف الأصل السامى - غالباً - من ثلاثة أصوات ساكنة ، لا يشركها أى من الأصوات اللينة ، وذلك نحو (ق ت ل) و (ض ر ب) و (ر ج ع) ؛ وذلك بالنسبة للكلمات التى تدل على معنى مستقل ، أما التى لا تفيد معنى مستقلاً بذاته كالحروف نحو (قد ، وعن ، وبل) والضمائر نحو (هو ، وهى ، وهم ...) وأسماء الشرط والموصول نحو (من ، وما ، وذا ، وذى) ، فإنها تكون على صوتين اثنين .

وثمة فريق من العلماء ، وعلى رأسه الأب (مرمرجى الدومنكى) ، يذهب إلى أن الأصول السامية ثنائية لا ثلاثية ، وأن الثلاثى متفرع عن الثنائى ، ويستدل هذا الفريق بما يلى :

١ - ثمة أفعال لا يبقى منها سوى حرفين فى بعض وجوه تصرفها نحو (قُلْتُ ، نِلْتُ ، صُمْتُ ، رُمْتُ ... الخ) .

٢ - أن غالبية الأفعال ليست جميع أصوات حروفها بدرجة واحدة من الأهمية فى تأدية المعنى ، بل تزيد فيها - غالباً - أهمية صوتين على أهمية الصوت الثالث ؛ فالمعنى العام يتعلق فيها بصوتين فقط ، أما الصوت الثالث فيحدد هذا المعنى العام ، ويوجهه وجهات خاصة .

---

(١) أنظر : فقه اللغة : ١٥ - ١٦ ، ومتن اللغة : ٣٤ .

فالمعنى العام للتفرقة – مثلاً – يؤدى فى العربية بالصوتين (ف ، ر) ، ثم يضاف لهذين الصوتين صوت ثالث ، يشار به إلى نوع التفرقة ، والمادة التى حدثت فيها نحو : فَرَى ، فَرَمَ ، فَرَضَ[1] ، فَرَصَ[2] ، فَرَثَ[3] ، فَرِحَ ، فَرَقَ ، فَرَزَ ... الخ .

والمعنى العام للقطع بالصوتين (ق ، ط) أو صوت شبيه بالطاء كالدال ، ثم يضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث ، يشار به إلى نوع القطع ، والمادة التى حدثت فيها نحو : قطع ، قطف ، قطم[4] ، قطّ[5] ، قدّ ... الخ .

ب) المعنى الأساسى للكلمة يشار إليه – غالباً – بالأصوات الساكتة ، أما الأصوات اللينة[6] ، فلا تعدو وظيفتها – فى الغالب – تحديد هذا المعنى ، وتوجيهه وجهات خاصة ؛ فمثلاً (قَ تْ لْ) تدل على المعنى العام للقتل ، و (قَ تَ لَ) تدل على وقوع القتل فى زمن مضى مسند إلى المفرد الغائب ، و (قُ تِ لَ) تدل على وقوع القتل فى زمن مضى مسند إلى المفعول ، و (قاتِل) تدل على وقول القتل ومن أوقعه ، و (مقتول) تدل على وقول القتل ، ومن وقع عليه ... الخ .

---

(١) تقول : فرضت الخشبة فرضاً ، من باب (ضرب) : حززتها .

(٢) الفرص : القطع ، والمفراص : الذى تقطع به الفضة .

(٣) أفرث الكرش : شقها ، وألقى ما فيها من بقايا الطعام .

(٤) تقول : قطمه قطماً ، من باب (ضرب) : عضه وذاقه ، أو قطعه .

(٥) تقول : قططت القلم قطاً ، من باب (قتل) : قطعت رأسه عرضاً فى برية .

(٦) الأصوات اللينة نوعان :

أ) طويلة . وهى : الألف ، والواو ، والياء .

ب) قصيرة . وهى : الفتحة ، والضمة ، والكسرة .

ولـذا نجـد الأصوات الساكنـة ، تنال أكبر قسط من الأهمية لدى المتكلم ، فهى لذلك أوضح فى الجرس من الأصوات اللينة ، وأظهر منها فى السمع .

جـ) الأصوات اللينة قد تغفل إغفالاً تاماً ، أو يشار إليها بإشارات مضطربة ، غير دقيقة ، كما فى رسم المصحف .

د) ليس للفعل فى معظم اللغات السامية سوى زمنين اثنين ، فعل انتهى زمنه وهو الماضى ، وفعل لم ينته زمنه وهو المضارع ، للحال والاستقبال والأمر .

هـ) يؤنث الاسم والصفة بإضافة (تاء) إلى الاسم المذكر نحو : كلب - كلبة ، قط - قطة ، قائم - قائمة ، منطلق - منطلقة ، مستفهم - مستفهمة .

الباب الثانى

اللـــغة العربـــية



الباب الثانى

اللغة العربية

منزلتها بين اللغات السامية :

تنشعب اللغات السامية إلى شعبتين :

أ) اللغات السامية الشمالية . وتشمل اللغتين :الآرامية ، والكنعانية .

ب) اللغات السامية الجنوبية . وتشمل ثلاث لغات : العربية ، واليمنية القديمة ، والحبشية السامية[1] .

وقد جاء هذا التقسيم تبعا لما يربط بين لغات كل شعبة ، من صلات القرابة والمشابهة فى أصول الكلمات ، والأصوات ، والقواعد ؛ غير أن صلة القرابة بين اليمنية والحبشية أقوى كثيرا من تلك التى بين كل منها وبين اللغة العربية ، ويرجع ذلك إلى عاملين اثنين :

١ - أن اللغة الحبشية قد انشعبت - بشكل مباشر - عن اللغة اليمنية القديمة ، وذلك بفضل المهاجرين الأوائل من اليمن الى بلاد الحبشة ، حاملين معهم لغتهم .

٢ - اللغة العربية أقرب جوارا للغات الشمالية من أختها اليمنية والحبشية ، حيث موطنها بلاد الحجاز ونجد .

نشأة اللغة العربية . وأقسامها :

لايجوز لأحد أن يدعى العلم بشئ عن طفولة اللغة العربية ، وما اجتازته من مراحل فى عصورها الأولى ، إذ أن أقدم ما عثر عليه من آثار العربية البائدة ، لايتجاوز القرن الأول قبل الميلاد ، وأقدم ماعثر عليه من آثار العربية

---

(١) أطلق على هذه اللغة اسم (الحبشية السامية) ، لأن بعض القبائل الحبشية يتكلم لغات اخرى تنسب الى الأصل الحامى .

الباقية ، لايكاد يتجاوز القرن الخامس الميلادى[١] ، ولكن ما المقصود بالعربية البائدة ، والعربية الباقية " وماسبب هذه التسمية ؟

على ضوء ما عثر عليه من آثار اللغة العربية ، ذهب علماء اللغة إلى تقسيمها قمسين :

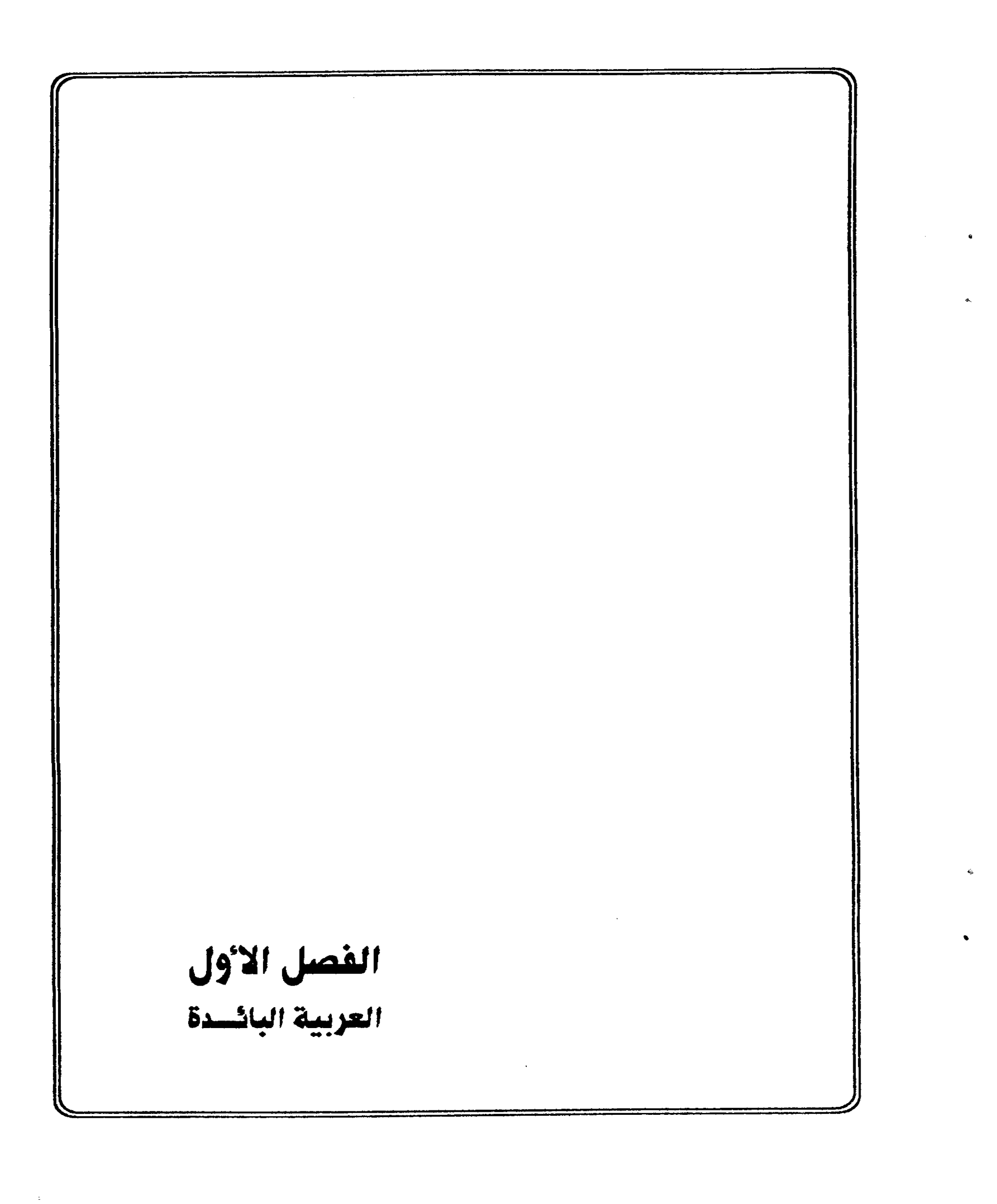
أ) العربية البائدة . ويطلقه اللغويون على لهجات ، كان يتكلم بها عشائر عربية تسكن شمال الحجاز ، على مقربة من حدود الآراميين ، وفى داخلها؛ ونظرا لتطرف هذه اللهجات فى الشمال . وشدة احتكاكها باللغات الآرامية ، وبعدها عن الموطن الأصلى للغة العربية فى نجد والحجاز ، فقدت كثيرا من مقوماتها ، وصبغت بالصيغة الآرامية ؛ وقد بادت هذه اللهجات قبل الاسلام ، ولم يصل إلينا منها إلا بعض نقوش ، عثر عليها فى الموطن الأصلى الذى كانت تعيش فيه ؛ ونظرا لأن كل ما يعرف عن هذه اللهجات ، إنما هو مبنى على ما توحى به هذه النقوش ، يطلق عليها بعض علماء اللغة اسم (عربية النقوش) .

ب) العربية الباقية . وهى التى لاتزال تستخدم حتى الآن ، لغة أدب وكتابة وتأليف ، وقد نشأت ببلاد الحجاز ونجد ، ثم انتشرت فى كثير من المناطق التى كانت تشغلها من قبل أخواتها من اللغات السامية والحامية، بعد أن قضت عليها ، وانشعبت منها اللهجات التى يتكلم بها فى العصر الحاضر ، فى بلاد الحجاز ونجد اليمن ، وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق والكويت ومصر والسودان وبلاد المغرب العربى ومالطة .

أما الطريق الذى وصلتنا عنه ، فهو آثار العصر الجاهلى ، والقرآن الكريم ، والحديث النبوى ، وآثار العصور الاسلامية المختلفة ، وسوف نفرد لكل قسم من قسمى العربية حديثا يخصه فى الصفحات التالية .

---

(١) أقدم ماعثر عليه من آثار اللغة الاكادية يرجع الى ماقبل القرن العشرين (ق.م) ، وماعثر عليه من آثار اللغة العبرية الى القرن الثانى عشر (ق.م) ، وماعثر عليه من آثار الفينيقية الى القرن العاشر (ق.م) ، وما عثرعليه من آثار الآرامية الى القرن التاسع (ق.م) . أنظر : فقه اللغة : ٩٧ .



الفصل الأول

العربية البائـــدة



الفصل الأول

العربية البائدة

عرفنا مما تقدم أن اسم (العربية البائدة) اطلقه اللغويون على لهجات عربية ، كانت تستخدم قديما فى مناطق متاخمة للحدود الآرامية ، وفى داخل هذه الحدود ، وعلى وجه التحديد فى واحات تَيْمَاء والحِجْر (مدائن صالح) ، ومنطقة العُلا فى شمال الحجاز ؛ ولم يعلم شئ عن هذه اللهجات إلا عن طريق النقوش التى عثر عليها أخيرا فى المنطقة المحصورة بين دمشق ومنطقة العلا ، وكان أكثر هذه النقوش فى واحتى : تيما والحجر ؛ وقد استدل اللغويون على أن المتكلمين بهذه اللهجات ، كانوا فى معزل عن عرب الحجاز ونجد ، وأنهم فقدوا كثيرا من مقوماتهم العربية ، وصبغوا بالحضارة الارامية والنبطية ، من أنهم كانوا يؤرخون نقوشهم بحرب النَّبَطِ ، وتاريخ بُصْرَى ، وحرب الفرس والروم .

وتتفق اللغة التى دونت بها هذه النقوش مع العربية الباقية ، فى كثير من مقوماتها وخصائصها فى الأصوات والمفردات والقواعد ، إذ تشتمل على معظم الأصوات التى تمتاز بها عن أخواتها الساميات ، كأصوات (الذال ، والثاء ، والغين ، والضاد) كما تشتمل على أهم خاصية للعربية الباقية وهى علامات الإعراب[1] . وصوغ أفعل التفضيل ، وحذف علامة الإعراب عند الإضافة ، إلا أن أداة التعريف بها (هاء) تأثرا بالآرامية ، بينما هى فى العربية الباقية (أل) .

وتنقسم النقوش التى عثر عليها إلى قسمين :

---

(١) علامات الإعراب وردت فى النقوش عبارة عن أصوات مد قصيرة ، تلحق بآخر الكلمة ، لبيان وظيفتها وعلاقتها ببقية عناصر الجملة ، كما سيبين من النقوش .

أ) قسم شديد التأثر باللغة الآرامية ، وقد كتب بالخط المسند[١] ، ومادته ضحلة ، لا تشتمل إلا على بعض أسماء الأعلام ، وبعض عبارات قصيرة ، وتنقسم باعتبار المناطق التى عثر عليها فيها ، والعشائر التى يظن أنها كانت تستخدمها الى ثلاث مجموعات :

١ - *النقوش اللحيانية :*

وتنسب الى قبائل (لحيان) ، وأقدمها لا يتجاوز القرن الثانى (ق.م) وأحدثها لايتجاوز القرن السادس الميلادى ؛ ومعظمها يعرض لتعداد ملوك (لحيان) وألقابهم ؛ وقد كتبت بخط مشتق من الخط المسند ، ويسير مستعرضا من اليمن الى اليسار ؛ وغالبية هذه النقوش عثر عليها فى (وادى المعتدل) من منطقة العلا ، و(شِرْوَان) من واحة تيماء .

٢ - *النقوش الثمودية :*

وتنسب هذه النقوش الى قبائل (ثمود) التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ستا وعشرين مرة ، وقد عثر على هذه النقوش فى منطقة (العلا) أيضا ، وواحة (تيماء) ، كما عثر على بعض منها فى مناطق أخرى ، تقع إلى شمال العلا وتيماء ، ويرجع معظمها الى القرنين الثالث والرابع الميلاديين، وقد كتبت بخط مشتق من الخط المسند أيضا ، إلا أنه أقل نظاما ورونقا من ذلك الذى كتبت به النقوش اللحيانية ، كما كان متعدد الاتجاهات ، فمرة يسير من أعلى إلى أسفل ، ومرة أخرى من أسفل إلى أعلى ، وثالثة من اليمين إلى اليسار ، ورابعة من اليسار إلى اليمين ، ولكنه كان -فى الغالب- يتجه من أعلى إلى أسفل وتتسم هذه النقوش بالوجازة ، فلا تعدو السطر أو السطرين أو العبارة الواحدة أو العبارتين ، وبحروف مستقلة غير متصلة .

---

(١) سمى (المسند) لأن حروفه تستند الى أعمده ، وتمثل بذلك طرازهم المعمارى ، الذى كان يرتكز على الاعمدة فى تشييد القصور ، والمعابد ، والسدود ، وأبواب المدن ، والأسوار . (فقه اللغة : ٧٨) .

نماذج من النقوش الثمودية :

أ) وجد نقش على قبر سيدة ، ربما كانت من ذوات الشأن فى قومها ؛ ويرجع تاريخه الى القرن الرابع الميلادى ، وهذا نصه :

ذن ل ق ض ب ن ت ع ب د م ن ت

وإذا ألحقنا بهذه الحروف الساكنة ، أصوات المد التى تلحق بعضها ، والتى لم يرمز لها فى هذا النقش ، يصبح النص بعد تمامه :

ذين لقيض بنت عبد مناة

وترجمته الى العربية : « هذا القبر لقيض بنت عبد مناة »[١] .

ب) وجد نقش على قطعة من الحجر إلى الشمال من واحة (تيماء) ، وقد نقشت إلى جانبه صورة (وعل) ، ويعتقد أن النقش عبارة عن التوقيع باسم الفنان الذى قام برسم هذا الوعل ، وهذا نصه :

ل ت م ى غ ث ب ن ج ش م هـ و ع ل

وبإضافة أصوات المد التى أغفل الرمز اليها فى هذا النقش ، ووصل حروف الكلمات ببعضها ، يصبح بعد تمامه :

لتيم يغوث بن جشم هوعل

وترجمته الى العربية : « الوعل لتيم يغوث من جشم »[٢] .

ومما تجب ملاحظته أن حرف (الهاء) فى (هوعل) هى أداة التعريف فى العربية البائدة .

---

(١) انظر : تاريخ اللغات السامية للدكتور اسرائيل ولفنون : ١٧٨ ، وفقه اللغة : ١٠١ .
(٢) المصدران السابقان .

جـ) وجد نقش ثالث مدونا على قطعة من الحجر الى الشمال من واحة (الحِجْر) . ولعله يمثل شطرين من الشعر ، هذا نصه :

ل ح ز م و ت ش و ق ال ع م ت

وترجمته الى العربية : « لحزم وتشوق الى عمة » ؛ ويفهم منه أن حزما كان متشوقا الى عمة له[1] .

٣ - النقوش الصفوية :

وتنسب هذه النقوش الى المنطقة التى اكتشفت على مقربة منها : وهى منطقة (الصفا) ، فقد عثر عليها فى صحرة واقعة بين تلول الصفا وجبل الدروز ، ويرجع تاريخها الى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، وقد كتبت بخط مشتق من الخط المسند أيضا ، كما كان أيضا مختلف الاتجاهات ؛ وأهم ما يميز اتجاهاته ، أنه كان يأخذ أحيانا شكلا دائريا ، بحيث يبدأ من أطراف الحجر ، وينتهى فى وسطه .

ويرجع الفضل فى حل رموز هذه النقوش الصفوية الى المستشرق الألمانى (ليتمان) ، الذى جمع من هذه المنطقة نحوا من ألف وأربعمائة نقش ، ثم عكف على دراستها زمنا طويلا ، فكشف حروفها الابجدية ، وحل معظم رموزها ، واستدل على تاريخ نقشها بورود اسم (أُذَيْنَة) بها ، وهو زوج (الزَّبَّاء) التى كانت إحدى ملكات القرن الثالث الميلادى ، ولم يكن العرب يستعملون هذا الاسم من قبل[2] .

وقد عثر العلماء فى العصر الحاضر على نقوش صفوية كثيرة ، فقد عثر العالم اللغوى (وينيت) على مايقرب من تسعين نقشا فى (إثْرَا) و (القَرْقَر) بوادى السِّرحان سنة ١٩٦٣ ميلادية كما عثر العالم (ألبرت جام) فى سنة

---

(١) المصدران أنفسهما

(٢) انظر : الوجيز فى فقه اللغة : ١٠٣ .

١٩٦٩ على ستة وخمسين نقشا فى (عَرْعَرَ) بمنطقة الوديان ، بالمملكة العربية السعودية[١] .

نماذج من النقوش الصفوية :

١ – وجد نقش ، يسجل به صاحبه أنه أقام بهذا المكان فى فصل الشتاء ، وقدم قربانا الى الله ، وهذا نصه :

ل ب ر د ب ن اص ل ح ب ن ا ب ج ر و ش ت ى هـ د ر و
ذ ب ح ف هـ ل ت س ل م

وترجمته الى العربية : « لبرد بن أصلح بن أبجر ، وشَتَى فى هذا المكان (أو فى هذه الدار) وذبح ، فيا الله سلام »[٢] .

ويلاحظ أن حرف (الهاء) فى (هـ د ر) هى أداة التعريف ، و (در) تنطق (دار) غير أن هذا الرسم يغفل أصوات المد .

٢ – كما وجد نقش أخر ، يسجل به صاحبه نزوله بهذا المكان ، وارتكابه جريمة قتل ، وفراره ؛ وقد جاء هذا النقش محيطا بصورة لشخص على جواد ، وبيده حربة طويلة ، يطعن بها شخصا آخر ؛ وهذا نصه :

ل ن ص ر ل ب ن ج م ر هـ خ ط ط و ح ض ر هـ د ر
ف ه ا ث ع س ل م و خ ر ص ق ع ص ن و ف ر

وصورته بعد إيصال حروفه ، وإضافة حروف المد :

---

(١) اللغة العربية فى عصور ما قبل الاسلام : ٦٥ ، وفقه اللغة العربية : ١١١ .

(٢) فقه اللغة : ١٠٢ ، شتى : أقام فى الشتاء ، ذبح : قدم ذبيحة قربانا . فيا الله : أرى أن الأقرب والأنسب (يا اللات) وهو الصنم المعروف عند العرب حيث لم يكن الاسلام قد جاء بعد ، كما أن (ل ت) التي وردت بالنقش أقرب إلى (لات) من (الله) حيث لا ينقصها غير حرف المد ، الذى تغفل إثباته هذه اللغة . سلام : استلم وتقبل .

لنصر ال بن جمر هـخطط وحضر هدر ، فيا أثع سلام ، وخرص فعصن وفر .

وترجمته الى العربية :

« هذا الخط لنصرال بن جمر ، وحضر فى هذه الدار ، فيا أثع سلام عليك ، وقتل فعصن وفر »[١] .

ويلاحظ أيضا أن حرف (الهاء) فى (هـخطط) هى أداة التعريف فى العربية البائدة ، وكذا (الهاء) فى (هدر) ، كما جاء تكرير (الطاء) فى (خطط) للتشديد حيث تنطق مشددة ، مما يدل على عدم معرفتهم للإدغام .

٣ - وهذا نقش يسجل به صاحبه انتصاره ، ويؤرخ له بحرب مشهورة عندهم ، وهذا نصه :

ل ا ن ع م ب ن ق ح ش و غ ن م س ن ت ح ر ب ن ب ط

وترجمته الى العربية :

« لأنعم بن قحش ، وغنم سنة حرب البنط »[٢] .

وبملاحظة هذه النقوش جميعا ، يبين منها أنه كلما بعد العهد بينها وبين اللغة الآرامية ، قل تأثرها بها ، وزاد تحررها من أسلوبها ونظامها . كما زاد القرب والتشابه بينها وبين العربية الباقية ؛ وربما ظهر هذا بصورة أجلى وأوضح فى نقوش القسم الثانى .

---

(١) أثع : اسم صنم من أصنام أهل الصفا . سلام : سلام عليك ، خرص : قتل . فعصن : اسم رجل.

(٢) انظر : تاريخ اللغات السامية : ١٨٠ ، وفقه اللغة : ١٠٢ .

(ب) القسم الثانى ، وهو نقوش أقل تأثرا باللغة الارامية ، وأقرب شبها إلى العربية الباقية ، ونقوش هذا القسم ، أغزر مادة من نقوش القسم الأول ، وأقل تأثرا باللغة الآرامية ، وأدنى كثيرا الى العربية الباقية ، سواء فى مفرداته ، أو أسلوبه أو قواعده ؛ مع أن المنطقة التى اكتشفت فيها نقوش هذا القسم ، لاتبعد كثيرا عن المنطقة التى اكتشفت بها نقوش القسم الأول ؛ وينتظم هذا القسم ثلاثة نقوش : نقش أنمارة ، ونقش زبد ونقش حوران .

أولا : نقش أنمارة[1]

عثر على هذا النقش فى منطقة خرائب (أَنْمَارَةَ) ، وهى أطلال قصر للروم ، تقع فى قضاء (حوران) على مقربة من دمشق ، جنوب منطقة الصفا ، ويرجع تاريخة الى سنة ٣٢٨ ميلادية ، وقد عثر عليه على قبر امرئ القيس بن عمرو بن عدى اللخمى ، من ملوك الحيرة ، وامتد نفوذه الى الشام ؛ وقد كتب النقش بالخط النبطى المتصل الحروف ، والرسم النبطى هو أحد أنواع الخط الآرامى ، ومن هذا النوع اشتق الرسم العربى ، ولذا يشتد الشبه بين الخط الذى دون به هذا النقش والرسم العربى فى أول مراحله[2] ، وقد قام بنقل هذا النقش الى متحف اللوفر بباريس العالم (ديسو) ، ويتكون النقش من خمسة أسطر ، ونصه بالعربية :

١ – تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج .

٢ – وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا .

---

(١) لوحظ أن كل المصادر والمراجع التى أوردت هذا النقش ، تطلق عليه اسم (نقش النّمارة) حيث نقلته هكذا من المصادر الأجنبية ، دون تدقيق أو تمحيص ؛ والصحيح (أَنْمَارَة) وليس (النّمارة) نسبة الى المنطقة التى عثر عليه بها ، وهى (خرائب أَنْمَارَة) بحوران على مقربة من دمشق بالشام ، والاسم الصحيح أطلقه على النقش الشيخ أحمد رضا عضو المجمع العلمى بدمشق ، وهو خير من يستفتى فى ذلك ، إذ هو من مواطنى هذه الديار . (انظر : فقه اللغة : ٣٧) .

(٢) فقه اللغة : ١٠٤ ، وفقه اللغة : ٣٧ .

٣ - برجى فى جبح نجرن مدينة شمر وملك ومعدو ونزل بنيه .

٤ - الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ - عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعدو ذو ولده .

ولتوضيح بعض الكلمات التى وردت بالنقش نقول :

١ - (تى) : اسم إشارة للمؤنث ، كما هو فى العربية الباقية ، ومثلها (ذى).

(نفس) : روعى فى الإشارة إليها جانب اللفظ ، والمراد بها (القبر) الذى هو مثوى النفس ، وقيل معناها فى العربية البائدة : القبر .

(مر قيس) : الهمزة فى (امرئ) تلفظ ولا تكتب ، لأن الخط النبطى ليس فيه صورة لحروف اللين ولا للهمزة .

(بر عمرو) : بر بمعنى ابن ، وهى نبطية .

(ذو أسرا لتج) : ذو : بمعنى (الذى) وهى لفظة طائية ، أسر : بمعنى حاز ولبس ، وحذفت (ألف) التاج ، لأنها حرف لين ، وليس له صورة فى الخط النبطى .

٢ - (ملك الأسدين) : ربما يقصد بهما الغساسنة والمناذرة ، ويعنى أخضعهما ، وملك رقابهما .

(نزرو) : بنى نزار ، سقطت ألفها لأنها حرف لين ، ولحقتها (الواو) سيرا على نظام إلحاقها الأعلام في اللغة النبطية[1] ، ومثلها (مذحجو).

(عكدى) : غلابا وقوة .

٣ - (نزجى) وقيل : بزجى ، وقيل : برجى ، وهو اسم مكان ، وقيل : مكان مرتفع .

---

(١) يرى المستشرق (ليتمان) أن حرف (الواو) يلحق آخر أسماء الأعلام فى اللغة النبطية ، ليكون نيابة عن التنوين فى حالة الرفع ؛ ولعل كاتب هذا النقش أراد بإثبات (الواو) أن يدل القارئ على النطق الصحيح للكلمة . (أنظر : تاريخ اللغات السامية : ٢٧٨ ، وفقه اللغة : ١٠٤) .

(جبح نجران) : الجبح - فى العربية - : مجتمع القوم ، أو الحى .

٤ - (وكلهن): تأتى (النون) علامة للجمع فى الآرامية ، مكان (الميم) فى العربية.

٥ - (بكسول) : كسلول ، وهو شهر نبطي ، يقابل فى العربية ، (كانون الأول) ديسمبر .

(بلسعد نوولده) : دام بالسعد نسله وذريته[1] .

وتبعا لذلك تكون ترجمة النقش الى العربية كالاتى :

« هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذى لبس التاج وأخضع الاسدين ونزاراً وملوكهم بقوته ، وجاء الى نزجى فى حى نجران مدينه شمر ، وملك معدا ، واستعمل بنيه على القبائل ، وكان ذلك لهم وكالة للفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه فى القوة ، توفى يوم ٧ كانون أول ، دام بالسعدنسلهوذريته[2] .

ومما يلحظ فى هذا النقش ، أنه مع ظهور بعض الآثار الآرامية ، فإنه يشتمل على مفردات وجمل كثيرة تتفق كل الاتفاق مع العربية الباقية ، كما هو واضح فى لغة النقش .

ثانيا : نقش زَبَد :

وقد عثر على هذا النقش فى الاطلال المسماة (زَبَد) ، وهى كنيسة تقع فى الجنوب الشرقى من مدينة حلب ، بين قنسرين والفرات ، ويرجع تاريخه الى سنة ٥١٢ أو ٥١٣ بعد الميلاد ، وهو مدون بثلاث لغات : العربية البائدة ، والسريانية ، واليونانية ، ولم يبق من قسمه العربى سوى القطعة التى أمكن نقل النص منه ، وقد كسرت منه بعض قطع تحوى بعض الحروف ، وقد

---

(١) راجع : فقه اللغة : ١٠٤ ، ومتن اللغة : ٣٧ - ٣٨ .

(٢) المصدران السابقان .

كتب النقش بخط مشتق من الخط النبطى المتصل الحروف ، وهو يمثل الخط العربى فى أقدم مراحله ، ويقع النقش فى سطرين ونصه :

١ - (بسـ) م الإله سرجو برأمت منفو وهنئ بر مر القيس .

٢ - وسرجو بر سعدو وسترو (وشر) يحو بتميمى[1] .

ويلاحظ على هذا لنقش :

١ - أنه توجد بعض قطع مكسورة أو مطموسة ، وضاع ما دُوِّن فوقها من حروف ، وهى التي وضعت فى النص بين قوسين .

٢ - القطعة المكسورة فى صدر السطر الأول ، يظن أنه كان بها حرفان ، حيث أمكن قراءة الحرف الباقى على أنه (مـ) ، فيكون الحرفان الذان فى القطعة المكسورة (بسـ) ، وتكون العبارة (بسم الإله) ، بينما يقرأ المستشرق الألمانى (ليتمان) الحرف الباقى على أنه (ر) ويذهب الي أن الحروف الضائعة ثلاثة هى (بنص) وتكون العبارة (بنصر الإله)[2] .

٣ - حرف (الواو) المختتمة به اسماء الاعلام وهى عوض عن التنوين - كما يرى المستشرق (ليتمان) - وأن كلمة (بر) معناها : ابن .

٤ - كلمة (بتميمى) التى وردت فى نهاية النص ، مدونة بالسريانية .

وعلى ذلك تكون ترجمة النقش للعربية كما يلى :

« بسم الإله سرج بن أمة منف ، وهنئ بن امرئ القيس ، وسرج بن سعد ، وسترو ، وشريح بتميمى » .

---

(١) فقه اللغة : ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق .

ثالثا : نقش حوران[١]

عثر على هذا النقش على حجر فوق باب كنيسة بمنطقة (حوران اللّجا) الواقعة جنوبى دمشق فى الجزء الشمالى من جبل الدروز ، ويرجع تاريخه الى سنة ٤٦٨ بعد الميلاد ، وهو مدون باللغتين : العربية البائدة ، واليونانية ، وقد وصل الينا قسمة العربى سليما كامل الكلمات ، ولاتختلف اللغة التى كتب بها هذا القسم عن العربية الباقية إلا فى أمور يسيره ؛ أما الخط الذى دوّن به فهو من نوع الخط النبطى المتصل الحروف ، إلا أنه أقرب كثيرا الى الخط العربى ، ويقع فى أربعة أسطر ، ونصه :

١ - نا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول .

٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد .

٣ - خيبر .

٤ - بعم .

ومما يلاحظ على نقش حوران :

١ - أن الضمير (نا) هو المستخدم فى العربية الباقية للتعبير عن المتكلم ، وإنما تدخل عليه (الهمزة) للتوصل بها للنطق بالساكن ، وهو حرف (النون) .

٢ - كلمة (بن) مستخدمة فى العربية الباقية كما هى .

٣ - اسم الاشارة (ذا) يستخدم فى العربية الباقية حتى الان ، دون دخول (هاء) التثبية عليه لمراعاة القرب .

(١) كتبها بروكلمان (Hauran) ، وكتبها كوهين (Hauran) ، وما كتبه بروكلمان أقرب الى الاسم العربى المعروف (حوران) ، إلا أن الشيخ احمد رضا قد ذكرها فى معجمه (متن اللغة) : حرّان ، وهو العالم السورى وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق !! ونرى أن الصحيح (حران) نسبه حران ونصيبين فى الشمال وهى منطقة اكتشاف النقوش بخلاف (حوران) فى الجنوب .

٤ - اداة التعريف (أل) فى كلمة (المرطول) هى المستخدمة فى العربية الباقية حتى الآن .

٥ - حذف حرف المد من (شراحيل) و (ظالم) و (عالم) .

٦ - إلحاق (الواو) فى آخر الاسم عوضا عن التنوين ، هو من آثار الارامية أيضا .

٧ - المقصود بقوله (مفسد خيبر) أى : انهيار أو تدمير حصن خيبر ، وكان ذلك على أثر غارة شنها عليه أحد ملوك بنى غسان ، وانتهت بانهياره ، وأسروسبى كثيرا من أهله[1] .

وعلى ذلك تكون ترجمته الى العربية :

« أنا شراحيل بن ظالم ، بنيت هذه الكنيسة سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام » .

وبتفقد هذا النقش ، واللغة التى استخدمت فيه ، لانرى فيه خروجا عن العربية الفصحى ، بل هى منها ، ومن لبابها - لفظا وأسلوبا ومعنى - ، ولا غرو فإن تاريخه كان قبل ميلاد النبى - ﷺ - بفترة وجيزة جدا ، وفى زمن زهرة الجاهلية ؛ كما جاء بعد نقش (أَنْمَارَة) بنحو مائتين وأربعين عاما ، فلنلاحظ مدى التطور فى لغة كلا النقشين خلال هذه الفترة من الزمن .

---

(١) ذكر ابن قتيبه فى المعارف أن الملك الغسانى الذى أغار على حصن خيبر هو : الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وذكر ابن خلدون فى تريخه انه : أبو جبيلة الغسانى ، الذى غزا اليهود فى الحجاز ، واستباحهم . (انظر : فقه اللغة : ٣٩) وربما قصد ابن خلدون ان يقول (أبو حليمة) نسبة الى ابنته حليمة ، وجاء التحريف من جانب النساخ (انظر المعارف : ٦٤٢) .

الفصل الثانى

العربيـة الباقية



الفصل الثانى

العربية الباقية

إذا قيل (العربية) على إطلاقها ، كان المقصود بها العربية الباقية ، التى تستخدم الآن فى كل البلاد العربية كلغة أدب وكتابة وتأليف .

مولدها ونشأتها :

لم يتوفر لأحد من علماء اللغة أن يقف على شئ من طفولة العربية الباقية ، فقد ذهب علماء الغرب حيال ذلك الأمر مذاهب ثلاثة :

١ – فريق رأى استحالة الوقوف على مولد هذه اللغة وطفولتها ، لأن العرب فى ذلك العصر لم يتركوا آثارا ، حيث كانت الأمية آنذاك سائدة فيهم(١) .

٢ – يرى العالم « إسرائيل ولفنسون » أن ما تركه العرب فى ذلك العصر من الآثار لم يكتشف بعد ، ويأمل أن يكتشف يوما ما(٢) .

٣ – يرى المستشرق الألمانى (ليتمان) أن ما تركه العرب من الآثار قد عفا واندثر ، فلا أمل فى كشف شئ منه(٣) .

أما اللغويون العرب فقد حاولوا الوقوف على طفولة العربية الباقية عن طريق الاستنتاج مما وصل إليهم من الآثار المكتوبة ، ممثلة فى الأدب الجاهلى الذى ينسب الى طائفة من شعراء العصر الجاهلى وخطبائه وحكمائه ، حيث وجدوا أن أقدم ما وصلهم من ذلك معلقه أمرئ القيس بن حجر الكندى المشهورة ، التى يرجع تاريخها الى ما قبل البعثة المحمدية بمائه عام ، ثم عثروا بعد ذلك على قصيدة لخال امرئ القيس ، وهو مهلهل بن

---

(١) فقه اللغة : ١٠٧ .

(٢) تاريخ اللغات السامية : ١٩٤ .

(٣) انظر تعليق ليتمان فى (تاريخ اللغات لإسرائيل ولفنسون) : ٢٧٨ (فقه اللغة : ١٠٧) .

ربيعة يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام بمائتى عام . فذهب الأولون إلى التحديد بمعلقة امرئ القيس ، أي بمائة عام فى الجاهلية ، وذهب آخرون الى التحديد بمائتى عام ، آخذين فى اعتبارهم قصيدة مهلهل بن ربيعة ، وتوسط فريق ثالث ، فذهب الى التحديد بقرن ونصف قرن فى الجاهلية .

وإذا استأنسنا بما أورده الشريف المرتضي فى أمالية عند كلامه على العربية الباقية ، وجدناه يتفق – على نحو من التقريب – مع ما ذهب إليه العلماء العرب ، وما توصلوا إليه فى استنتاجهم ، حيث : « إن الربيع بن ضبع الفزارى – أحد معمرى العرب – أجاب عبد الملك بن مروان ، لما سأله عن عمره ، بأنه عاش مائتى سنة فى فترة عيسى – عليه السلام – ومائة وعشرين سنه فى الجاهلية ، ثم ستين سنة فى الاسلام ، وقد روى عنه قوله :

هَا أَنَذَا آمُلُ الْخُلُودَ وَقَـــدْ ... أَدْرَكَ عَقْلِي وَمَوْلِدِي حُجْـــرَا

أَبَا امْرِئِ الْقَيْسِ ، هَلْ سَمِعْتَ بِهِ ؟ ... هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذَا عُمُـــرَا !

ومعنى هذا أن مولده كان زمن حجر بن عمرو الكندى – أبى امرئ القيس – وأنه شب ونضج فى أيامه أيضا ؛ ولاريب ان ابنه امرأ القيس ، الذى طرده – أبوه قبل موته ، حين انكر عليه سيرته وتصرفاته فى قومه ، فهو مقارب فى سنه للربيع الفزارى ، إن لم يكن أكبر منه ، وقد ولدا مرؤ القيس سنة ٥٠٠ من الميلاد ، فيكون مولد الربيع فى مفتتح القرن السادس بعد الميلاد ، ويكون سنه وقت جوابه لعبد الملك نحو مائة وثمانين سنة ، وهى مائه وعشرون فى الجاهلية ، وستين فى الاسلام[١] .

من هذا يتضح أن أول عهد العلماء الباحثين بالعربية الباقية ، كان منتصف القرن الخامس بعد الميلاد تقريبا ، وكان اعتمادهم فى ذلك علي ما وصل اليهم من الأدب الجاهلى .

---

(١) فقه اللغة : ١/٤٥ .

ولكن ما وصل من الآثار الأدبية ، يمثل اللغة العربية فى عنفوان عظمتها واكتمالها ، بعد ان اجتازت مراحل كثيرة من التطور والارتقاء ، وبعد ان تغلبت لهجة من لهجاتها - وهى لهجة قريش - على اخواتها الاخريات ، واستأثرت دونهن بميادين الأدب - شعره ونثره - فى مختلف القبائل العربية ؛ ومن ثم يظل الحديث عن مولد هذه اللغة وطفولتها ضربا من الغيب ، وخبطا فى المجهول[١] .

صراع اللهجات العربية وتغلب لهجة قريش :

سيرا على قانون تطور اللغات ، تبعا لما يعرض لها من ظروف الحياة بأنواعها المختلفة ، فقد انشعبت اللغة العربية فى شبه الجزيرة الى لهجات عدة ، وكان قوام هذا الانشعاب عاملان أساسيان :

١ - الانعزال بين بيئات الشعب الواحد :

فحين تكون لغة من اللغات قد اتسعت رقعتها ، وفصل بين أجزاء أراضيها عوامل جغرافية نحو جبال أو أنهار أو صحارى وما إلى ذلك ، بحيث يترتب على هذا الانفصال قلة احتكاك أبناء الشعب الواحد بعضهم ببعض ، فتتكون مجاميع صغيره فى البيئات المنقولة ، التى لا تلبث أن تتطور لغتهم تطورا مستقلا ، يباعد بين صفاتها ، ويشعبها الى لهجات متمايزة .

أضف الى هذا الانعزال الجغرافى ، انعزالا من نوع آخر لا يقل أهمية عنه ، هو الانعزال الاجتماعى ، إذ أن البيئات المنعزلة جغرافيا ، تتخذ فيها العلاقات بين أفراد الأسرة شكلا خاصا ، ونظاما خاصا ، فضلا عما ينشأ فيها من مهن خاصة ، وزراعة خاصة ، وتجارة خاصة .

---

(١) فقه اللغة : ١٠٨ .

ب - *الصراع اللغوي نتيجة الغزو أو الهجرات* :

فقد يغزو شعب من الشعوب أرضا يتكلم أهلها لغة أخرى ، فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوة ، وتكون النتيجة عادة ، إما القضاء على إحدى اللغتين قضاء يكاد يكون تاما ، أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين ، تشتمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك[١] ، وهذا ما حدث بالنسبة للغة العربية ، حين تشعبت الى لهجات فى شبه الجزيرة العربية .

وما لبثت هذه اللهجات المتعددة ، أن أتيح لها الكثير من فرص الاحتكاك ، بفضل تجار القبائل العربية ، وتنقلها فى طلب الكلأ والماء ، وتبادل التجارة ، وتبادل المنافع ، إلى جانب تجمعها فى الحج ، والأسواق ومواجهاتها فى الحروب الاهلية ؛ فكان من نتيجة ذلك أن اشتبكت هذه اللهجات فى صراع لغوى مع بعضها البعض ، كتب النصر فيه للهجة قريش ، فطغت على جميع اللهجات الاخرى فى المحادثة ، واستأثرت بميادين الأدب – شعره ونثره – فى مختلف القبائل العربية ، حتى أصبح العربى – أيا كانت لهجة قبيلته – يؤلف شعره ، وخطابته ، ونثره الفنى بلهجة قريش .

عوامل تغلب لهجة قريش

ساعد على تغلب لهجة قريش علي غيرها من اللهجات العربية عدة عوامل أهمها :

١ - عامل دينى :

نظرا لأن قريشاً هم جيرة البيت الأدنين ، ويقومون على سدانته وخدمته . وهو الحرم المقدس لدى القبائل العربية فى الجاهلية ، فيه يقيمون

---

(١) فى اللهجات العربية : ٢١ – ٢٣ .

أصنامهم ، وإليه يحجون ليؤدوا مناسكهم ويقدمون قرابينهم ، فقد كان لقريش السلطان الدينى على بقية القبائل العربية .

٢ - عامل اقتصادى :

كانت معظم التجارة فى يد قريش ، ينتقلون بها فى مختلف بقاع شبه الجزيرة من الشام شمالا ، إلى اليمن جنوبا ، وبذا أصبح زمام الثروة فى شبه الجزيرة فى يد قريش .

٣ - عامل سياسى :

ترتب على هذين العاملين السابقين - الدينى والاقتصادى - أن تحقق لقريش نفوذ سياسى قوى فى سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وقد نوه بذلك أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يوم انتقال الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الى الرفيق الأعلى ، فى سقيفة بنى ساعدة بقوله : « لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله » .

٤ - عامل لغوى :

حيث كانت لهجة قريش أوسع اللهجات العربية ثروة ، وأغزرها مادة ، وأرقها أساليب ، وأقربها إلى الكمال ، وأقدرها على التعبير فى مختلف فنون القول[1] ، إذ كانوا ينزلون بالقبائل الضاربة فى طريق تجارتهم ، فيتخيرون الحسن من الأقوال ، والعذب من الألفاظ ، ويحرصون كل الحرص على أن يكون لكل ما يتخذونه من ذلك المكان الأول ، فكان يؤخذ بما يتخذون بالقدوة[2]؛ وفى هذا يقول أبو الحسين احمد ابن فارس القزوينى :

---

(١) فقه اللغة : ١٠٨ - ١١٠ .

(٢) فقه اللغة : ٤٣ .

« أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواه لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم ، أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله – عز وجل ثناؤه – آختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبى الرحمة محمدا – ﷺ – فجعل قريشا قُطَّان حرمه ، وجيران بيته ، وولاته فكانت وفود العرب من حجاجهم وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش فى أمورهم ؛ وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم ؛ ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم ، وتسميهم (أهل الله) لأنهم الصريح من ولد اسماعيل – عليه السلام – لم تشبهم شائبة ، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة ، فضلا من الله – جل ثناؤه – لهم وتشريفا ، إذ جعلهم رهط نبيه الأدْنِينَ ، وعترته الصالحين .

وكانت قريش – مع فصاحتها وحسن لغتها ، ورقة لسانها ، إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروه من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[1] .

وقال ابن منظور – فيما يرويه عن قتاده – « قال : كانت قريش تجتبى أفضل لغات العرب ، حى صارت لغتها أفضل لغاتهم ، فنزل القرآن بها ، وتحدى العرب وفصحاءهم أن يأتوا بمثله ، تحديا يدل على عظيم منزلته البلاغية عندهم »[2] .

---

(١) الصاحبى : ٤٠ .

(٢) لسان العرب : مادة (ل غ و) .

أثر الإسلام فى اللغة العربية

لعل من أجل العوامل التى ساعدت على نهضة لهجة قريش ، وأعظمها ، هو اختيار الله - تبارك وتعالى - رجلا من أحد بطون قريش ، وهم بنو هاشم ، ليكون حامل رسالته ، ومبلغ دعوته الى الناس كافة ، وهو محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - ، وما تبع ذلك من نزول القرآن الكريم بلهجة قريش ، ومجئ كل ما يصدر عن النبى من أحاديث بلهجة قريش ؛ وقد كان لذلك أعظم الآثار فى تقوية هذه اللهجة وأهمها :

١ - تقوية سلطان لهجة قريش ، وتوطيد دعائمها ، وتثبيت سلطانها على الألسنة ، ولا سيما بعد أن اعتنق الدين الاسلامى غالبية قبائل العرب ، بل جميعهم بعد ذلك .

٢ - تهذيب اللغة العربية ، وتنقيحها والنهوض بها الي أرقى مستوى للغات الآداب ، ويتبدى هذا الآثر واضحا جليا فى شتى مناحى اللغة ، من أغراض ، ومعان ، وأخيلة ، وأساليب ، وألفاظ ، وذلك على النحو التالى :

أ) فقد أتى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، بكثير من الاغراض الجديدة ، والأمور التى لم يكن لها وجود فى العربية من قبل ، كسن القوانين ، والتشريع ، والقصص ، والتاريخ ، والعقائد ، والجدل فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) ، والاصلاح الاجتماعى ، والنظم السياسية ، وشئون الاسرة ، وأصول القضاء والمعاملات ، ودراسة مظاهر الفلك والطبيعة والحيوان ، والنبات .... الخ .

ب) نتج عن توسع اللغة العربية فى الاغراض ، اتساع اخر فى جانب المعانى والأخيلة والأساليب ؛ فقد تمكنت من تجليه المعانى الدقيقة التى تطلبتها العلوم والفنون مثل : الرياضة ، والفلك ، والطبيعة ،

والكيمياء ، والمنطق ، والفلسفة ، والفقة ؛ وكذا ما احتيج إليه فى مقاومة الزندقة والإلحاد ، واستخدمت فيها الحجج العقلية ، والبراهين المنطقية ، وأدخلت فيها عناصر جيدة للخيال ، والتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وغيرها من المحسنات البديعية ، فتهذبت ألفاظها وأساليبها ،وتشكلت فى صورة الأساليب العلمية[١] .

جـ - تجرد كثير من الألفاظ من معانيها العامة القديمة ، وأصبحت تدل علي معان خاصة تتصل بالعبادات وإقامة الشعائر ، وشئون السياسة ، والإدارة ، والحرب ، نحو الفاظ : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحجج ، والخليفة ، والإمام ، وأمير المؤمنين ، والموالى ، والقاضى ، والكاتب ، والمشير ، والشرطة .... الخ .

كما اقتبس العرب ألفاظا أعجمية من لغات أخرى ، وخاصة الفارسية ، والسريانية ، واليونانية ، بعد تعريبها وصقلها بمناهج اللسان العربى مثل الفاظ : الديوان ، والعسكر ، والبَنْد (العلم الكبير) ، والصهريج والقيروان (القافلة) ، والطنبور ، والاسطولاب ، والمغناطيس ، والأسطول .... الخ .

كما قضى الاسلام علي كثير من الألفاظ الجاهلية التى تدل على أمور حرمها الاسلام ، كأسماء الانصبة التى كانت لرئيس الحرب نحو : المِرْبَاع والصَّفَايا والنَّشِيط ، والفُضُول ، والفاظ اخرى مثل : الأُتاوة ، والمَكْس والصَّرُورَة ، والنَّوَافِح ، كما قضى على أسماء الأيام والشهور التى كانت فى الجاهلية ، لاتصالها بأمور وثنية أو نظم جاهلية ، راسخة فى أذهان العرب ، واستبدل بها الاسماء الحالية[٢] .

ومن أمثلة الاساليب الجديد ، التى تفيض بلاغة وفصاحة ، والتى زود بها الاسلام اللغة العربية ، مع أن العرب هم ملوك البلاغة وفرسان البيان ، قول

(١) انظر : فقه اللغة : ١١٨ - ١١٩ .

(٢) انظر : فقه اللغة : ١٢٠ - ١٢١ .

الله تعالى - « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا »[١] كناية عن الحسرة والندم ، وقول الرسول الكريم - ﷺ - : « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ » ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « المَرْأَةُ الحَسْنَاءُ فِي المَنْبَتِ السُّوءِ »[٢] ، كناية عن تحرى البيئة الطيبة والوسط الصالح عند اختيار الزوجة وقوله - صلوات الله وسلامه عليه - « الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ »[٣] ، كناية عن أن الحرب قد استعرت واشتد لهيبها ، إلى غير ذلك من الأساليب البليغة ، والتراكيب المجازية التى كان لها أكبر الأثر فى إشاعة الخيال فى اللغة ، واهتمام العرب بالأمور المعنوية ، وبعد أن كان جل اهتمامهم بالمحسوس المشاهد - كما تقدم - ، وفي هذا يقول ابن فارس :

« كانت العرب - فى جاهليتها - على إرث من إرث أبائهم ، فى لغاتهم ، وآدابهم ، ونسائكهم وقرابينهم ؛ فلما جاء الله - جل ثناؤه - بالاسلام ، حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة الفاظ من مواضع إلى مواضع أخر ، بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت وشرائط شرطت »[٤] .

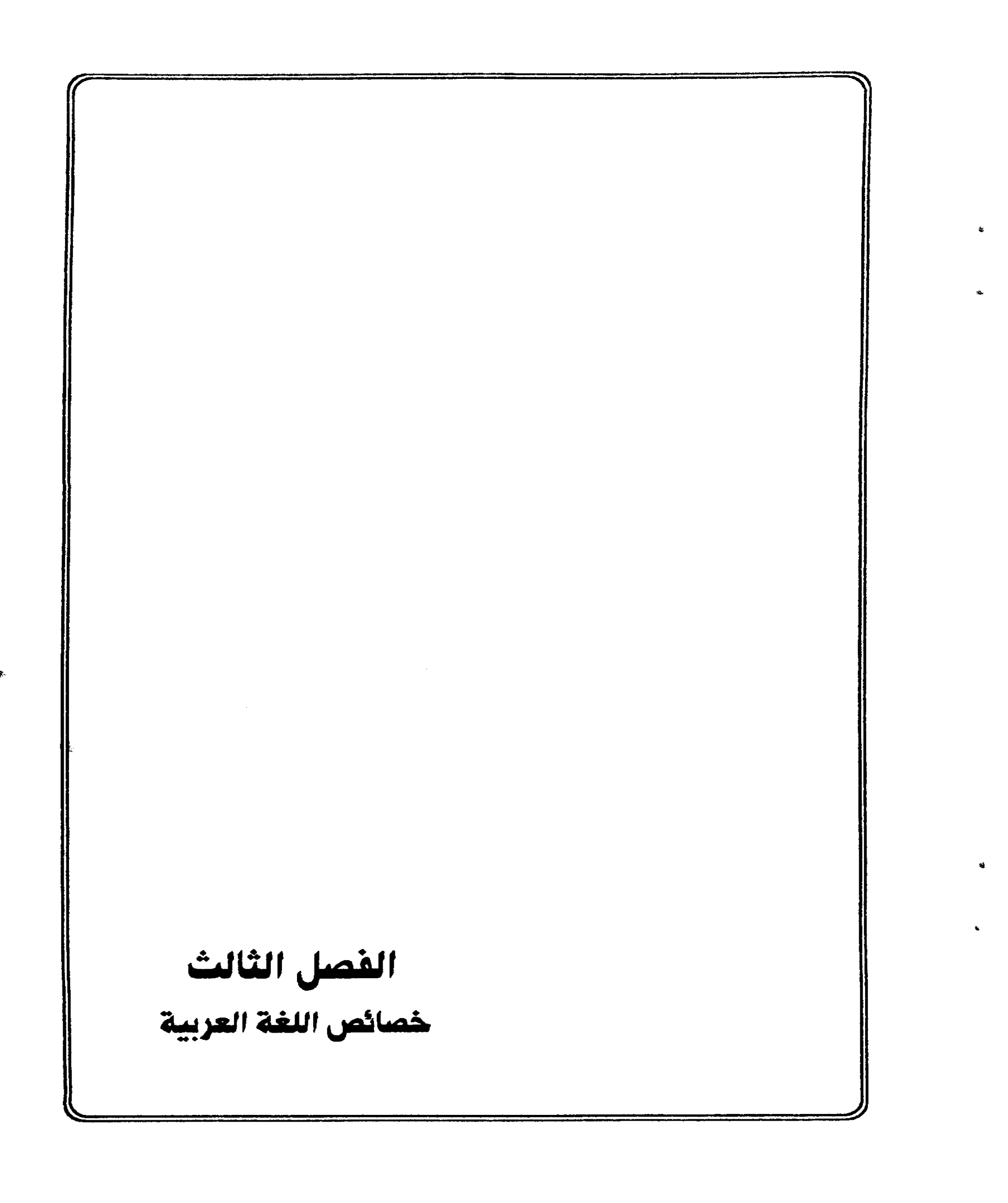
---

(١) سورة الكهف : ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) انظر فى الحديث : الجامع صغير للسيوطى

(٣) انظر فى الحديث : الجامع صغير للسيوطى

(٤) انظر الصاحبى : ٧٨ .



الفصل الثالث

خصائص اللغة العربية



الفصل الثالث

خصائص اللغة العربية

يقول أبو الحسين احمد بن فارس القزوينى :

« لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها ، قال – تعالى – : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »(١) ، فوصفه – سبحانه – بأبلغ ما يوصف به الكلام ، وهو البيان ؛ وقال – تعالى – : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »(٢) ، فقدم – سبحانه – ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه ، وتفرد بإنشائه ، من شمس وقمر ، ونجم وشجر ، وغير ذلك من الخلائق المحكمة ، والنشايا(٣) المتقنة ؛ فلما خص – سبحانه – اللسان العربى بالبيان ، علم أن سائر اللغات قاصرة عنه ، وواقعة دونه »(٤) .

وقد توفر للغة العربية عاملان ، لم يتوفرا لغيرها من اللغات السامية :

الأول : أنها نشأت فى أقدم موطن للساميين(٥) .

الثانى : أن الموقع الجغرافى لهذا الموطن ، قد ساعد على بقائها أطول فترة من الزمن متمتعة باستقلالها وعزلتها .

وكان من نتيجة هذين العاملين ، أن احتفظت العربية بأكبر قدر من مقومات اللسان السامى الأول وبقى فيها من تراث هذا اللسان ، ما تجردت منه أخواتها الساميات ، فتميزت عنها – بفضل ذلك – بخواص كثيرة(٦)

(١) سورة الشعراء : الايات ١٩٢ – ١٩٥ .
(٢) سورة الرحمن : الآيتان ٣ ، ٤ .
(٣) النشايا : لغة فى المنشآت المبتكرات .
(٤) الصاحبى : ٤٠ .
(٥) فقه اللغة : ١٦٤ .
(٦) المصدر السابق .

تتضح بجلاء فى كل عنصر من عناصرها الثلاثة : الاصوات ، والألفاظ ، والأساليب وذلك على النحو التالى :

أولا : الأصوات :

تمتاز اللغة العربية بأنها أكثر أخواتها الساميات احتفاظا بالأصوات السامية ، فقد اشتملت على جميع الأصوات التى اشتملت عليها أخواتها الساميات ، فيما عدا حرفى (p , v) ؛ ولكن الدكتور صبحى الصالح يرى أن هذين الحرفين – وإن كنا لاننطق بهما – يوشكان أن يكونا من صميم لغتنا العربية ، لأن مخرجى (الباء) و (الفاء) يغنيان عنهما ، أو يعوضانهما عند الحاجة إليهما(١) .

* فضلا على أنها زادت عليها أصواتا كثيرة لا وجود لها فى أخواتها الساميات مثل : الثاء ، والذال والغين ، والضاد .

* انفردت العربية بثبات أصولها ، إذ بالرغم مما يقرره علماء اللغة ، من أن النظام الصوتى لا يمكن استمراره ثابتا على مدى تطور اللغة(٢) ، نجد اللغة العربية لم يطرأ عليها أدنى تغيير فى نطق حروفها ، مثلما طرأ على سائر اللغات فى العالم ، حيث إن النطق بحروفها اليوم ، لايختلف فى قليل أو كثير عما كان ينطق به القوم منذ العصر الجاهلى .

ولعل ذلك راجع إلى سعة مدرج اللغة العربية الصوتى ، إذ للأصوات العربية نحو خمسة عشر مخرجا ، تتوزع بين الجوف والحلق ، واللسان ، والشفتين ؛ ويضم الجوف والحلق أربعة مخارج ، ينتج عنها ستة أصوات ، ويضم اللسان مع الحنك تسعة مخارج ، ينتج عنها ثمانية عشر صوتا ،

---

(١) دراسات فى فقه اللغة : ٢٨٥ .

(٢) اللغة – لفندريس : ٢٦٤ ، وفقه اللغة العربية للدكتور ناجح عبد الحافظ : ١٣٦ .

وتضم الشفتان مخرجين ينتج عنهما أربعة أصوات[1] . وسوف نفرد قولا خاصا بمخارج الأصوات العربية وصفاتها بعد قليل .

ثانيا : الألفاظ :

من أهم ما تمتاز به اللغة العربية فى مجال الألفاظ ، أنها :

* أوسع أخواتها الساميات ثروة فى أصول الكلمات والمفردات . فهى تشتمل على جميع الأصول التى تشتمل عليها غيرها من الساميات ، أو على معظمها ، وتزيد عليها بأصول كثيرة ، احتفظت بها من اللسان السامى الأول ، ولا يوجد لها نظير فى أية أخت من أخواتها .

فضلا على أنه قد تجمع فيها من المفردات فى مختلف انواع الكلمة - اسمها وفعلها وحرفها ، ومن المترادفات فى الاسماء ، والافعال والصفات - ما لم يجتمع مثله للغة سامية اخرى ، بل ما يندر وجود مثله فى لغة من لغات العالم ، فقد جمع للأسد خمسمائه اسم ، وللثعبان مائتا اسم ، وللعسل ما يزيد على ثمانين اسما ، وللسيف نحو ألف اسم ، وللداهية نحو أربعمائه اسم ، ويوجد لكل من المطر ، والريح ، والنور ، والظلام ، والناقة ، والحجر ، والماء ، والبئر ، أسماء تبلغ عشرين اسما فى بعضها ، وتصل إلى ثلاثمائة اسم فى البعض الآخر .

وقد ذكر المستشرق (رينان) أن الاستاذ (دوهامر) قد جمع المفردات العربية المتصلة بالجمل وشئونه فبلغت أكثر من خمسة آلاف وستمائه وأربع وأربعين[2] .

---

(١) راجع فى ذلك : الأصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس - الأصوات العربية للدكتور كمال بشر ، وفقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى : ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) فقه اللغة : ١٦٩ .

وأورد السيوطى خبرا مفاده أن أبا عبد الله ابن خالويه الهمزانى قال : « جمعت للأسد خمسمائه اسم ، وللحية مائتين »(١) .

وقال ابن فارس القزوينى : « جمع حمزة بن حسن الاصبهانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى »(٢).

وقال ابن فارس أيضا : « وأخبرنى على بن احمد بن الصباح قال : .حدثنا ابو بكر بن دريد قال : حدثنا ابن اخى الاصمعى عن عمه أن الرشيد سأله عن شعر لابن حزام العكلى ، ففسره ، فقال : يا أصمعى . إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا أمير المؤمنين ، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما ؟!(٣) .

ولايقف الإعجاب من غزارة مادة اللغة العربية ، ووفرة مفرداتها ، وكثرة ألفاظها على علماء اللغة العرب وحدهم ، بل تعداه الى علماء اللغة الغربيين ، حيث يقول المستشرق الالمانى بروكلمان : « ومعجم العربية اللغوى لا يجاريه معجم فى ثرائه ، إنه نهر تقوم على أرفاده منابع اللهجات الخاصة التى تنطق بها القبائل العربية »(٤) .

* مناسبة ألفاظها لمعانيها ، فقد لاحظ علماء اللغة منذ القدم أن من أبرز ميزات اللغة العربية أن كل لفظ فيها قد تم وضعه بإزاء المعنى المنوط بالدلالة عليه فى دقة تامة ، وعناية فائقة ، فهذا جلال الدين السيوطى يقول : « وأما أهل اللغة العربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ

---

(١) المزهر : ١ / ٣٢٥ .

(٢) الصاحبى لابن فارس : ٢١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) فقه اللغات السامية : ٣١ .

ومعانيها »(١) كما عقد ابن جنى فى كتابه (الخصائص) بابا سماه (فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى)(٢) .

ذكر فيه طائفة لا بأس بها من صور التناسب بين الالفاظ ومعانيها ، ونقله عنه السيوطى فى (المزهر)(٣) ، وتتمثل هذه المناسبة بين الالفاظ والمعانى ، فى أن اللفظ يحكى صوتا من أصوات الإنسان ، أو الحيوان ، أو الطير ، أو الفعل الذى يحدثه الانسان أو غيره ، وذلك على النحو التالى :

١ - الألفاظ التى تحكى صوت الانسان :

من الألفاظ العربية ما يحكى الأصوات التى تصدر عن الانسان فى مختلف أمور حياته المعيشية ، فحين تسمع اللفظ ، تحس وكأنك تسمع إنسانا يصدر هذا الصوت ، وإن لم تسمعه البته ، وذلك نحو :

القهقهة : الضحك بصوت عال ، يخرج معه الهواء على دفعات ، وفى الجمهرة : حكاية استغراب الضحك .

الدندنة : كلام نسمع نغمته ولا نفهمه .

التمطق : صوت المتذوق إذا صوت باللسان .

الغمغمة : الكلام الذى يسمع ولا يتبين .

الضوضاء : اختلاط الأصوات .

الهمهمة : صوت يخرجه تردد الزفير .

الأنين : الصوت الرقيق يصدره المريض .

الفخيخ : الصوت الضعيف للنائم .

---

(١) المزهر : ٤٧/١ .

(٢) الخصائص : ٥٤٤/١ .

(٣) المزهر : ٤٨/١ ومابعدها .

الغطيــــط : الصوت القوى للنائم .

القرقــــرة : صوت يخرج من الأمعاء .

الاصطكاك : صوت ارتطام الأسنان من برد أو خوف .

هذا فضلا عن الاصوات المعهودة كالصراخ ، التنحنح ، والزفير ، والشهيق ، والتأوه ، الحشرجة والشخير ، والقرقعة ... الخ[1] .

ب - *الالفاظ التى تحكى اصوات الحيوان والطير* :

رغاء الناقة ، هدير الجمل ، صهيل الفرس ، وضبحه إذا عدا ، وحمحمته عند الجدع أو الاستئناس ، شحيج البغل ، نهيق الحمار ، خوار البقر ، ثغاء الغنم ، زئير الأسد ، عواء الذئب ، نباح الكلب ، مواء القط ، ضباح الثعلب ، صرصرة البازى ، قعقعة الصقر ، هديل الحمام ، سجع القمرى ، زقزقة العصفور ، نعيق الغراب ، فحيح الحيات بفمها ، وكشيشها بجلدها ، وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض ، نقيق الضفادع ، طنين الذبابوالبعوض[2] .

جـ - *الالفاظ التى تحكى اصوات الطبيعة* :

الخريـــر : صوت انسياب الماء .

القرقــرة : صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب .

النشيـــش : صوت غليان الشراب .

الشخـــب : صوت اللبن عند حلبه .

الحسيس ، والمعمعة : صوت النار .

الأزيــــز : صوت المرجل عند الغليان .

---

(١) فقه اللغة : ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٧٦ .

ومنه : هذير الريح ، وهزيم الرعد ، وجعجعة الرحى ، وصرير القلم والباب ، وقلقلة القفل ، وخفق النعل[١] .

د - الألفاظ التى تحكى أصوات الأحداث :

وهذا النوع من أبرز الصور التى تتجلى فيها براعة اللغة العربية ، وامتيازها على غيرها من اللغات ، إذ ما إن تسمع اللفظ ، حتى تحس بوقوع الحدث ، وإن لم تره ، أو تعاينه من قبل ، فضلا على أنه قد يكون مناط التفرقة بين حدث وآخر ، مجرد تغيير حرف فى الكلمة لا أكثر ، بل ربما تقلب المعنى الى الضد تماما ؛ وذلك إنما يرجع الى إحساس العربى بالحرف وما يحمله من معنى ، ومايوحى به من دلالة ؛ فقد أورد جلال الدين السيوطى خبرا عن عباد بن سليمان الصيمرى - من المعتزلة - أنه سئل : ما يسمى (إذعاع) ؟ - وهو يعنى بالفارسية : الحجر - فقال : « أجد فيه يبساً شديدا ، وأراه الحجر»[٢] : وفى هذا يقول أبو الفتح ابن جنى :

« ... وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الاحداث المعبر عنها ، فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها ، من ذلك قولهم : خضم ، وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء ..... ، والقضم لأكل اليابس نحو : قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك ... فاختاروا (الخاء) لرخاوتها للرطب و (القاف) لصلابتها لليابس ، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث[٣] .

---

(١) فقه اللغة : ١٧٦ .

(٢) المزهر : ١/٤٧ .

(٣) الخصائص : ٢ / ١٥٧ . وقال الكسائى : القضم للفرس ، والخضم للإنسان ، وقال غيره : القضم بأطراف الأسنان ، والخضم بأقصى الأضراس .

ومن ذلك قولهم : النضح للماء ونحوه ، والنضخ أقوى منه ، قال الله تعالى - سبحانه - : « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ »[1] ، فجعلوا (الحاء) لرقتها للماء الخفيف ، و (الخاء) لغلظها لما هو أقوى منه[2] .

ومن ذلك قولهم : القَدُّ طولا ، والقَطُّ عرضا ، لأن (الطاء) أخفض للصوت ، وأسرع قطعا له من (الدال) ، فجعلوا (الطاء) للمناجزة ، لقطع العرض لقربه وسرعته ؟ (والدال) لما طال من الأثر ، وهو قطعه طولاً[3] .

فانظر الى بديع مناسبة الالفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب فى هذه الالفاظ المقترنة المتقاربة فى المعانى ، فجعلت الحرف الأضعف منها ، والألين ، والأخفى ، والأسهل ، والأهمس ، لما هو أدنى ، وأقل ، وأخف عملا أو صوتا ، وجعلت الحرف الأقوى ، والأشد ، والأظهر ، والأجهر ، لما هو أقوى عملا ، وأعظم حسا ؛ ومن ذلك : المد والمط فإن فعل (المط) أقوى ، لأنه مد وزيادة جذب فناسب (الطاء) التى هى أعلى من (الدال)[4] .

★ مناسبة ابنيتها لمعانيها :

مما تمتاز به اللغة العربية أيضا ، أن الأبنية ، والصيغ الصرفية فيها ، تجئ دالة على المعنى المنوط بها ، مفصحة عن الدلالة المقترنة بها ، مما يجد فيه القارئ الغناء كل الغناء عن اللجوء إلى المعاجم والمراجع اللغوية فى فهم كل ما يقرأ أو يسمع ، إذ يقول الخليل بن احمد الفراهيدى :

« كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا ، فقالوا (صَرَّ) ، وفى صوت البازى تقطيعا فقالوا (صَرْصَرَ)[5] ؛ ويقول ابن جنى :

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٦٦ .

(٢) قال أبو عمرو : « النضخ : الشرب دون الرى ، والنصح : الشرب حتى يروى ، والنشح : دون النضح

(٣) الخصائص : ٢ / ١٥٨ .

(٤) المزهر : ١/٥٣ .

(٥) الكتاب : ٤ / ٢٧٧ .

« وكذلك جعلوا تكرير (العين) نحو : فرّح ، وبشّر ؛ فجعلوا قوة اللفظ لقوة المعنى ؛ وخصوا بذلك (العين) لانها أقوى من الفاء واللام ، إذ هى واسطة لهما ، ومكنوفة بهما ، فصارا كأنهما سياج لها ، ومبذولان للعوارض دونها ، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيها دونها »[١] .

ومن ذلك صيغة (استفعل) حيث جعلوها للطلب ، لما فيها من تقدم حروف زائدة على الأصول كما يتقدم الطلب الفعل نحو استقى ، واستطعم ، واستوهب ، واستفتح ، واستقدم عمرا ، واستصرخ جعفرا ، فرتبت فى هذا الباب الحروف على ترتيب الافعال ، وجعلوا الافعال الواقعة من غير طلب إنما تفجأ حروفها الأصول ، أو ما ضارع الأصول ؛ فالاصول نحو قولهم : طعم ، ووهب ، ودخل ، وخرج ، وصعد ، ونزل ، فهذا إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت ، ولم يكن معها دلالة على طلب لها ، ولا إعمال فيها[٢] .

وفى المصادر أيضا قال سيبويه أن التى تأتى على (الفعلان) إنما تأتى لتدل على الاضطراب والحركة نحو : النقزان[٣] ، والغليان ، والغثيان ، فقابلوا بتوالى حركات الأمثال توالى حركات الأفعال[٤] .

كما تأتى المصادر الرباعية المضعفة لتدل على التكرير نحو : الزعزعة ، والقلقة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والجرجرة ، والقرقرة .

كما تأتى المصادر والصفات على (الفعلى) لتدل على السرعة نحو : البَشَكَى[٥] والجَمَزَى[٦] ، والوَلَقَى[٧] .

(١) الخصائص : ٢ / ١٥٥ .

(٢) انظر : المزهر : ١/٤٩ .

(٣) النقزان : الوثب .

(٤) انظر : الكتاب : ٤/١٤-١٥ .

(٥) البشكى : الخفيفة ، والسريعة . تقول : امرأة بشكى ، أى خفيفة اليدين سريعة العمل .

(٦) الجمزى : السريع . تقول : حمار جمزى ، إذا كان سريع الحركة .

(٧) الولقى : من (أولق) إذا أسرع فى عدوه .

وهكذا نرى أن الابنية والصيغ الصرفية توحى بالدلالة على المعانى التى وضعت لتدل عليها ، وإن لم يسبق لنا علم بها ، أو اطلاع عليها فى معاجم اللغة .

★ دوران المادة حول معنى واحد :

مما تفردت به اللغة العربية من ميزات دون غيرها من اللغات ، أنك تجد الأصل اللغوي للكلمة يدل علي معنى بعينة ، ثم تجد كل مايشتق من هذا الأصل من صيغ ، تدل علي معان متقاربة ومتشابهة . تدور جميعها حول المعنى العام الذى يدل عليه الأصل ، وقد عنى بهذه الظاهرة ، وصرف اهتمامه إليها عدد من مؤلفى المعاجم العرب الذين تأثروا بمدرسة التقلبيات التى أسسها ، وكان له فضل السبق الى ابتكارها العالم اللغوى الخليل بن احمد الفراهيرى ، بتأليف معجم (العين) الذى يقوم على نظام تقليبات المادة اللغوية ، إذ كان كلما تعرض لايضاح معنى لفظه ، يذكر معها تقليباتها ، ويذكر معنى كل صورة من صور التقليب المستعملة ، دون التعرض للربط بين دلالات تلك الصور ، فهى طريقة احصائية ، أو قسمة عقلية لجأ اليها الخليل بغية حصر كلمات اللغة ، وخشية أن يند بعضها أو يسقط[١] .

وقد انتهج منهج الخليل عدد من المعجمين العرب ، منهم أبو علي القالى صاحب معجم (البارع) وأبو منصور الازهرى صاحب معجم (تهذيب اللغة)، وابن سيده الاندلسى صاحب معجم (المحكم والمحيط الأعظم) .

ولعل ابرز هؤلاء جميعا ممن التزموا فى تصنيف معاجمهم طريقة التقليبات ، أبو بكر بن دريد صاحب معجم (جمهرة اللغة) ، الذى ترسم فى تصنيفه منهج الخليل بالتزام تام ، إلا أنه رتبه على حسب الأبجدية العادية (الألفبائية) ، وقد حاول الربط بين صور التقليبات المختلفة للكلمة ، وإثبات

(١) دلالة الالفاظ د . ابراهيم أنيس : ٦٧ .

دوران الصيغ المشتقة من أصل واحد حول المعنى العام الذى يدل عليه هذا الاصل ، فقد روى عنه أبو على القالى : « سمعت ابن خير الوراق ، وقد سأل ابا بكر بن دريد قائلا له : مم اشتق (العقل) ؟ فقال : من عِقَال الناقة ، لأنه يَعْقِل صاحبه عن الجهل ، أى : يحبسه ، ولهذا قيل : عَقَل الدواءُ بطنَه ، أى : أمسكه ، ولذا سُمِّيَتْ خبراءُ بالدهناءِ (مَعْقُلَةً) لأنها تمسك الماء ، قال : فمم اشتق (اللحد) ؟ قال من قولهم : لَحَدَ إذا عَدِلَ ، لأنه عُدِلَ إلى أحد شقى القبر . قال : فمم اشتق (الضريح) ؟ قال : هو بمعنى مضروح ، كأنه ضرحه جانباه ، أي : رفعاه ، فوقع فى وسطه ، قلت : وهذا النوع كثير فى كتاب (الجمهرة) وغيره ، فلا حاجة للإطالة فيه »(١) .

ثم جاء أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٣٩٢ هـ) والف كتابه (الخصائص) ، وحاول فيه جاهدا إثبات أن مشتقات المادة اللغوية تدور كلها حول معنى واحد ، إذ عقد فيه أكثر من فصل واحد تحت العناوين : (فى تلاقى المعانى على اختلاف الأصول والمبانى) و (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) و (فى أمساس الألفاظ أشباه المعانى) . ويدور معظمها على تبيان دوران فروع المادة الواحدة حول معنى واحد ، ومن أمثلته التى ساقها مادة (جبر) حيث يقول :

« جبرت العظم والفقير إذا قويتهما ، والجبروت : القوة ، والجبر : الاخذ بالقهر والشدة ؛ ورجل مجرب إذا مارس الامور فاشتدت شكميته ، ومنه (الجراب) لأنه يحفظ ما فيه ، والتى إذا حفظ قوى واشتد .

ثم منه (الأَجْبَر) وهو القوى السرة ، ومنه (البُرْجُ) لقوته ومناعته ، و (البَرَجُ) وهو نقاء بياض العين وصفاء سوادها مما يكسبها قوة ، ومنه (الرَّجْبُ) تقول : رَجَبْتُ الرجل إذا عظَّمْتُه وقوَّيْتُ أمره ، ومنه (شهر رجب)

(١) انظر : أمالى القالى : ٢ / ١١٨ ، ومقدمة (جمهرة اللغة) : ١٢/١ .

لتعظيمهم إياه عن القتال فيه ؛ ومنه (الرُّجْبَةُ) وهو ما تستند اليه النخلة لتدعيمها وتقويتها .... الخ »[١] .

ثم جاء ابن فارس القزويني (ت ٣٩٥ هـ) والف معجمه (مقاييس اللغة)، وجه فيه كل عنايته الى تجميع كل فروع المادة فى موضع واحد ، مظهرا المعنى العام الذى يدل عليه الاصل ، ثم يتبعه بالمعانى المتقاربة والمتشابها التى يدل عليها كل فرع من الفروع ، تاكيدا علي ان كل فروع المادة الواحدة تدور حول ذلك المعنى الذى يدل عليه الاصل ، ولنضرب مثلا بما أورده أصحاب مدرسة الاشتقاق فى معاجمهم ، مما يؤيد نظرية « دوران المادة حول معنى واحد » .

مادة (رجّ)

(الراء والجيم) أصل يدل علي التردد مع اضطراب واختلاط ، وفي الجمهرة : رج الشئ رجا اذا ترجرج ، وهو راج ... وسمعت رجة القوم أى : أصواتهم ، وكذلك رجة الرعد أي : صوته ، وفى التنزيل « إذا رجت الارض رجا »[٢] يعنى يوم القيامة[٣] .

وفى الصحاح وغيره : يقال : رجه رجا أى : حركة وزلزله ، وناقة رجاء : عظيمة السنام ، وارتج البحر وغيره : اضطرب ، وفي الحديث : « من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة له »[٤] يعنى إذا اضطربت أمواجه[٥] .

وفى مقاييس اللغة : ارتج الكلام : التبس ، وإنما قيل له ذلك إذا تعكر كان كالبحر المرتج ، ويقال : الرجاجة : النعجة المهزولة ، فإن كان صحيحا

---

(١) انظر : الخصائص : ٢ / ١٣٥ .

(٢) سورة الواقعة : آية ٤ .

(٣) جمهرة اللغة : ١ / ٥١ .

(٤) أنظر فى الحديث : الجامع صغير للسيوطى

(٥) الصحاح : ١ / ٤٦٥ .

فالمهزول مضطرب ، وناقة رجَّاء : عظيمة السنام ، وذلك أنه إذا عظم آرتج واضطرب[1] .

ثم نأخذ احد مشتقات هذه المادة وهو (رجز) فنجده أيضا يؤدى معنى الاضطراب ؛ ففى الجمهرة قال أبو حاتم : الرجز من الشعر مأخوذ من الناقة الرجزاء ، والرجز داء يصيب الإبل فى أعجازها فإذا سارت الناقة ارتعش فخذاها[2] .

وفى مقاييس اللغة : ومن هذا اشتقاق الرجز من الشعر ، لانه مقطوع ومضطرب ، والرجازة : كساء يجعل فيه احجار تعلق بأحد جانبى الهودج إذا مال ، وهو يضطرب[3] .

وكذلك (رجح) الذى يدل علي الاضطراب ، و (رجس) الذى يدل علي التردد والاختلاط ، و (رجع) الذى يدل على التردد ، و (رجف) الذى يدل على الاضطراب ، حيث يقول ابن دريد : رجف الشئ يرجف رجوفاً ورجفانا إذا اضطرب اضطرابا شديدا .... ورجف القلب اذا اضطرب من فزع ، ويسمى البحر : رجافا لاضطراب موجه[4] .

ويقول الجوهرى : الرجفة : الزلزلة ، وقد رجفت الأرض ترجف رجفا والرجفان : الاضطراب الشديد .... والإرجاف : واحد أراجيف الأخبار »[5] .

ويقول ابن فارس : « رجفت الارض ، والقلب ، والبحر رجاف لاضطرابه ، وأرجف الناس فى الشئ إذا خاضوا فيه واضطربوا[6] .

(١) مقاييس اللغة : ٢ / ٣٨٤ ، وثنائية الالفاظ د. أمين فاخر : ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) جمهرة اللغة : ٢ / ٧٤ .

(٣) مقاييس اللغة : ٢ / ٤٨٧ .

(٤) جمهرة اللغة : ٢ / ٨١ .

(٥) الصحاح : ٢ / ٤٦٨ .

(٦) مقاييس اللغة : ٢ / ٤٩١ .

وكذلك (رجل) الذى يدل - فى بعض معانيه - على الاختلاط ، و (رجن) الذى يدل على الاضطراب والاختلاط .

ثالثا : الأساليب :

تميزت اللغة العربية على غيرها من الساميات ، بل علي اللغات جميعها، بقدرتها على التصرف فى الأساليب والعبارات ، وعلى التنوع فى التراكيب ، وذلك بحسب المقام ، الذى يتطلب نوعا معينا من الاساليب دون غيره من تقديم وتأخير وزيادة وحذف ، وإيجاز واطناب ؟ وكان مرتكزها فى هذه الميزة خصائص ثلاثة توفرت لها ، وتفردت بها دون غيرها من اللغات :

١ - علامات الاعراب :

من أجل ما تفردت به اللغات السامية دون غيرها من اللغات ، اشتمالها علي علامات الاعراب والتى بواسطتها تتحدد وظيفة الكلمة فى التركيب اللغوى ، وتتضح علاقتها بما يجاورها من الكلمات الاخرى .

إلا أن هذه العلامات قد اختلطت ، وفقدت بعض مدلولاتها فى معظم اللغات السامية ، لما طرأ عليها من تغيير وتطوير ، ولكنها ظلت على حالتها ، ولم يطرأ عليها شئ من التغيير أو الاختلاط بالنسبة للغة العربية ، فقد احتفظت بهذه العلامات كاملة سليمة حتى يومنا هذا ، مما أعطى اللغة العربية ميزة فى التوسع فى استخدام الألفاظ والأساليب ، من حيث تقديم بعض الالفاظ عن مواضعها ، وتأخير البعض الاخر ، وزيادة كلمات ، وحذف آخر ، وإيجاز فى بعض المواطن ، وإطناب فى مواطن اخرى ؛ إذ عن طريق العلامات الاعرابية يمكن التعرف على الفاعل متقدما أو متأخرا ، وكذا التعرف على المفعول فى أي موطن كان ، وكذا النعت ، والحال ، والتمييز ... الخ ، وعن هذا يقول ابن فارس القزوينى :

« من العلوم الجليلة التي اختصت بها العربية ، الاعراب ، الذي هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام ، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولامضاف من منعوت ، ولاتعجب من استفهام ، ولاصدر من مصدر ، ولانعت من توكيد »[١] . ويقول أيضا أبو القاسم الزجاجى :

" إن الاسماء لما كانت تعتورها المعانى ، وتكون فاعلة ، ومفعولة ، ومضافة، ومضافا اليها ، ولم يكن فى صدرها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى ، بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الاعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى ، فقالوا : ضرب زيد عمراً ، فدلوا برفع (زيد) على أن الفعل له ، وبنصب (عمرو) على أن الفعل واقع به .

وقالوا : ضرب زيد ، فدلوا بتغيير أول الفعل ، ورفع (زيد) على أن الفعل لما لم يسم فاعله وأن المفعول قد ناب منابه .

وقالوا : هذا غلام زيد ، فدلوا بخفض (زيد) على اضافة الكلام اليه ، وكذلك سائر المعانى ، جعلوا هذه العلامات دلائل عليها ، ليتسعوا فى كلامهم، ويقدموا الفاعل اذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة الى تقديمه ، وتكون العلاقات دالة على المعانى[٢] ".

ب - إيجاز اللفظ مع الدلالة على المعنى :

ومن الخصائص المميزة للغة العربية ، إيثارها الايجاز والاختصار فى اللفظ ، مع الوفاء بالدلالة على المعنى المراد ، وثمة أصل فى اللغة العربية يقول : « المعنى الذى يدل عليه بلفظ واحد ، خير من المعنى الذى يؤدى بلفظين » ، وقديما عرف علماء المعانى البلاغة بانها « اجاعة اللفظ واشباع

---

(١) أنظر الصاحبى : ٧٦ .

(٢) الايضاح فى علل النحو : ١٧ ، والاشباه والنظائر : ١ / ٧٨ .

المعني »[١] ، أى أن البلاغة تكمن فى إيجاز الكلام واختصاره ، وعن الايجاز والاختصار فى اللفظ يقول جلال الدين السيوطى .

« هو جل مقصود العرب ، وعليه مبنى اكثر كلامهم ، من ثم وضعوا باب (الضمائر) لأنها اخصر من الظواهر ، خصوصا ضمير الغيبة ، فإنه يقوم مقام اسماء كثيرة ، فإنه فى قوله - تعالى - : « أعدلهم مغفرة »[٢] قام مقام عشرين ظاهراً[٣] . ولذا لا يعدل عنه الى المنفصل مع إمكان المتصل .

وباب (الحصر بإلا وإنما ، وغيرهما) ، لأن الجملة فيه تنوب مناب جملتين . وباب (العطف) لأن حروفه وضعت للإغناء عن اعادة العامل ؛ وباب (التثنية والجمع) لأنهما أغنيا عن العطف ؛ وباب (النائب عن الفاعل) لأنه دال علي الفاعل بإعطائه حكمه ، وعلى المفعول بوضعه ،. وباب (التنازع) ؛ و (التعليق) فى نحو : علمت أنك قائم ، لأنه منحل لاسم واحد سد مسد مفعولين ؟ وباب (طرح المفعول اختصارا) على جعل المتعدى كاللازم ، وباب (النداء) لأن الحرف فيه ناب مناب (أدعوا) أو (أنادى) و (أدوات الاستفهام ، والشرط) فإن (كم مالك ؟) يغنى عن قولك ؛ أهل عشرون ام ثلاثون مالك ؟؟ وهكذا إلى مالا يتناهى : وكذا الالفاظ الملازمة للعموم نحو (أحد) . وأكثر الحذف تارة بحرف من الكلمة نحو (لم يَكُ) و (لم أُبَل) ؟ وتارة للكلمة بأسرها ، وتارة للجملة برمتها ، وتارة لأكثر من ذلك : ولهذا تجد الحذف كثيرا عند الاستطالة »[٤] .

---

(١) العمدة لابن رشيق : ٢ / ٢٤٣ .

(٢) سورة الاحزاب : من الاية ٣٢ .

(٣) المقصود بالعشرين ظاهرا ، الفئات المذكورة فى الآية الكريمة : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفره وأجرا عظيما » .

(٤) أنظر : الأشباه والنظائر : ٢٩ - ٣٠ .

وقد ورد الكثير من آيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية مشتملة على هذا النوع من الايجاز مع عدم حذف أى من الألفاظ في التركيب ، نحو قول الله - تعالى - : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ »[١] وقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - : « الدِّينُ المُعَامَلَةُ »[٢]و« الدِّينُ النَّصِيحَةُ »[٣] .

ومنه ماجاء الايجاز فيه عن طريق الحذف ، مع الدلالة الكاملة على المعنى المراد ، نحو قول الله - تعالى - : « وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ »[٤] ، إذ المعنى والله أعلم بمراده : فيقال لهم أكفرتم ؛ وقوله - عز من قائل - : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » [٥] إذ المعنى - والله أعلم بمراده - : لكان هذا القرآن ؛ وقوله - سبحانه - : « وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا »[٦] إذ المعنى - والله أعلم - : فضربه فانفجرت .

وعن خاصيه الإيجاز هذه التى تميزت بها العربية دون سائر اللغات يقول أبو الفتح بن جنى : « واعلم أن العرب إلى الإيجاز أَمْيَل ، وعن الإكثار أبْعَد »[٧] .

جـ - الاكتفاء الذاتى مع الدقة فى التعبير :

ومما تميزت به اللغة العربية كذلك على أخواتها الساميات على وجه الخصوص ، غناؤها بالألفاظ والمفردات العربية الأصيلة ، التى استوحاها

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٩ .

(٢) انظر فى الحديث : الجامع صغير للسيوطى

(٣) أنظر فى الحديث : الجامع صغير للسيوطى

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٠٦ .

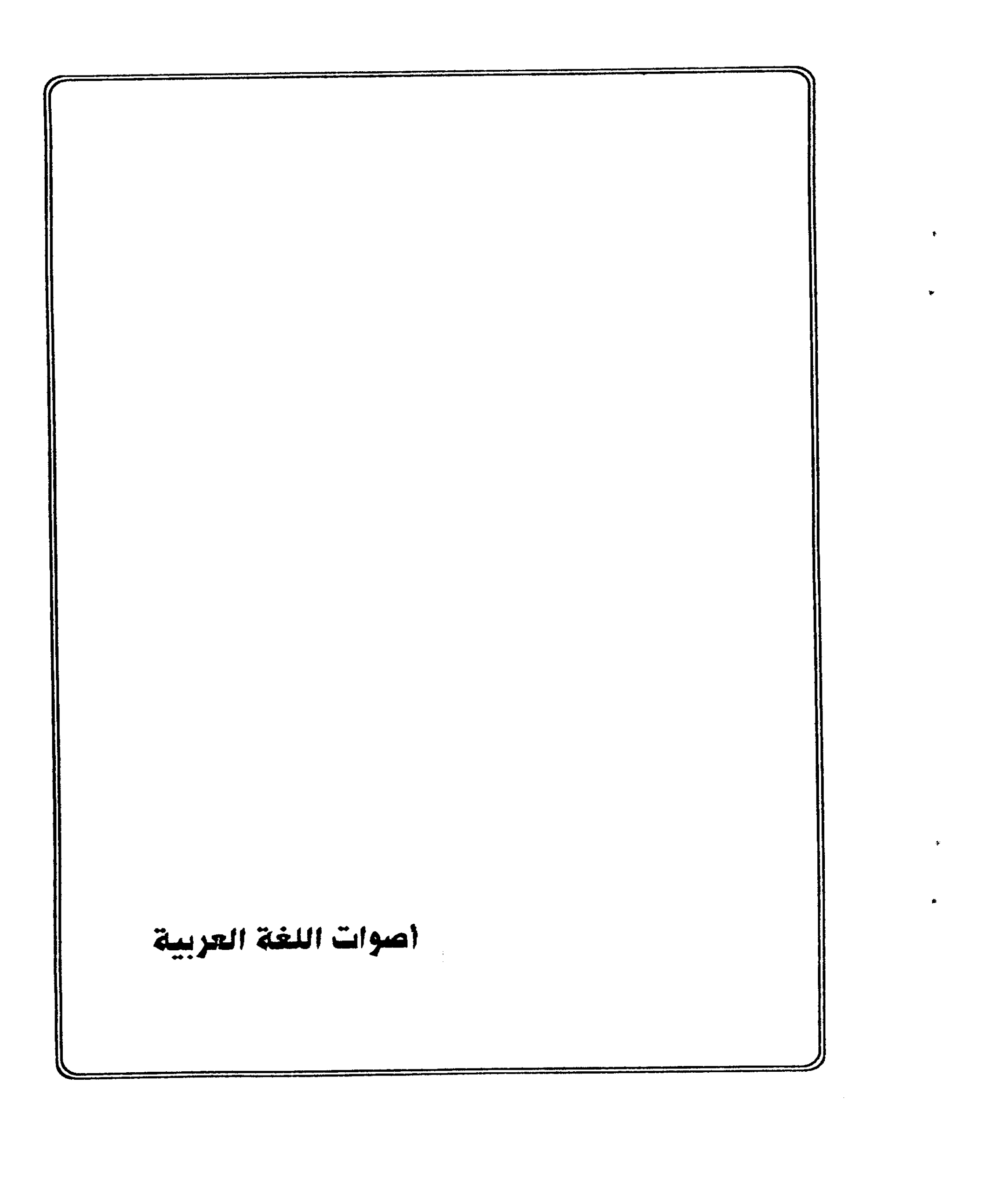
(٥) سورة الرعد : من الآية ٣١ .

(٦) سورة البقرة : من الآية ٦٠ .

(٧) الخصائص : ٢ / ٣٢٤ .

العرب من البيئة التى عاشوا بين احضانها ولم يقتبسوها من غيرهم ، مما يمكنهم من التعبير عن المعنى المراد فى دقة عربية خالصة ، ويضرب الدكتور ابراهيم نجا الابيارى مثلا لذلك بالأُسماء الموضوعة لساعات النهار - نحو : الزَّرُوَر ، والبُذوَغ ، ثم الضحى ، ثم الغزالة ، ثم الهاجرة ، ثم الزوال ، ثم العصر ، ثم الأصيل ، ثم الصَّبوُب ، ثم الحَدُور ، ثم الغروب ... الخ[1] .

(١) فقه اللغة د. ابراهيم نجا الابيارى : ٤٧ ، وفى فقه اللغة العربية د. ناجح عبد الحافظ : ١٣٤ .



أصوات اللغة العربية

أصوات اللغة العربية

تمهيد :

يتألف الكلام الإنساني من سلسلة من الأصوات الصادرة طواعية واختيار عن الإنسان في موقف لغوى معين ، والإشارة الى الموقف اللغوى هنا تعنى أن هناك فى الصورة شخصا أو أشخاص آخرين يستقبلون هذه الأصوات التى تربطهم بالمتكلم ربطا اجتماعيا ، من شأنه أن يؤدى الى التعاون ، وييسير دفة الأمور ، وتصريف شئون الحياة ، أو هذه الأصوات التى تؤثر فى هؤلاء السامعين تأثيرا يقتضى منهم سلوكا معينا ، أو رد فعل من نوع خاص ، على خلاف فى ذلك بين وجهة نظر المدرسة الاجتماعية ، ووجهة نظر المدرسة الميكانيكية السلوكية حيال العملية اللغوية .

وتعنى وجهة نظر المدرسة السلوكية ، ويمثلها اللغوى الامريكى (بلومفيلد) ، أن الأصوات يجب أن تكون مرتبة على نسق خاص ، وأن تكون جارية على سنن المعهود لدى أهل البيئة التى تستخدمها .

ومعنى ذلك أن اللغة لا يتحقق وجودها دون حضور متكلم ، وسامع ، موجودين معاً فى مكان واحد ، وزمان واحد ؛ وقد عبر عن ذلك؛ العالم (جاردنر) في كتابه (الكلام واللغة) بقوله : « الكلام لا يتحقق إلا بأربعة جوانب : المتكلم ، والسامع ، والكلمات ، والشئ المتحدث عنه » .

والأصوات اللغوية ليست مجرد ضوضاء يحدثها المتكلم فى الهواء ، وإنما هى أصوات ذات جوانب متعددة ، وخصائص متباينة ، ودراستها دراسة لغوية دقيقة تقتضينا ان نبحثها على مستويات مختلفة ، بادئين – كما هى العادة – بدراسة خصائصها ، أو جانبها الصوتى ، أى ذلك الجانب الذى يتمثل فى آثار تلك الجهود العضلية الكثيرة التى يقوم بها جهاز النطق ،

فتحدث ذبذبة فى الهواء ، منتقلة بعد ذلك الى أذن السامع ، ولهذه الأصوات - بالاضافة الى ذلك - جوانب وخواص آخرى تتمثل فى مميزاتها الصرفية والنحوية ... الخ .

أما ذلك الفرع من العلوم الذى يدرس الجانب الصوتى المشار إليه أنفا ، فهو علم الأصوات Phonetics ، وهو علم ليس بالجديد فى الدراسات اللغوية ، وإنما تضرب أصوله بعيدا الى أعماق التاريخ ، فقد عرفه الهنود والإغريق والرومان والعرب ، وأسهم كل قوم منهم بنصيب فى هذه الدراسات ؛ وعلى الرغم من أنهم لم يصلوا بعلم الأصوات الى مستوى علمى دقيق يقرب أو يكاد يقرب مما نعهده فى العصور الحديثة ، إلا أنهم قد بذلوا جهودا موفقه فى هذا المضمار إلى درجة تسترعى انتباه الدارسين فى وقتنا الحاضر[1] .

علاقة علم الأصوات بعلم اللغة :

تباينت وجهات نظر المدارس اللغوية حيال علاقة دراسة الأصوات بعلم اللغة ، فذهب فريق إلى أن الأصوات فرع مستقل عن علم اللغة ، وليس جزءا منه ، وإن كان بينهما ارتباط واتصال من نوع ما ، وقد ذهب الى هذا القائلون بالتفريق بين الكلام المنطوق واللغة ؛ وحجتهم فى هذا أن موضوع هذه الدراسة - وهو الكلام نفسه - ليس من مباحث علم اللغة عندهم .

فى حين ذهب فريق آخر إلى أن دراسة الأصوات جزء لايتجزأ من علم اللغة ، وقد ذهب الى هذا العالم الأمريكى (فيرث) وكثير من تلاميذه ، حتى أصبح هذا هو الرأى السائد لدى المدرسة اللغوية الأمريكية .

ومن ثم فقد ذهب (بلو مفيلد) إلى تقسيم علم اللغة الى فرعين رئيسيين هما : علم الأصوات وعلم الدلالة ، فعلم الأصوات يدرس الجانب

(١) انظر فى ذلك : الأصوات العربية للدكتور كمال بشر : ١٦٧ .

الصوتى للغة ، بينما ينظر علم الدلالة - وهو علم القواعد المعجم - فى جانب المعنى ومظاهره .

من هذا يتضح أن الأصوات هى أحدى الدعامتين اللتين يقوم عليها علم اللغة ، بينما يمثل علم الدلالة الدعامة الاخرى ، أى أنه إن كانت اللغة عبارة عن ضوضاء وتتسم بالتنظيم ، فإن الاصوات تدرس الضوضاء ، والدلالة تبحث فى هذا التنظيم وقواعده ، ليخرجا لنا علما متكاملا هو (علم اللغة)[1] .

مخارج الأصوات العربية :

للأصوات العربية نحو خمسة عشر مخرجا[2] ، وهى على النحو التالى :

١- المخارج الجوفية الحلقية :

وعددها أربعة مخارج ، إذ الجوف مع الحلق يتكون منها مخرج لثلاثة أصوات ، والحلق وحدة يشتمل على ثلاثة مخارج ، لكل مخرج منها صوتان وإليك بيان ذلك :

- الجوف مع الحلق لأحرف المد الثلاثة (الألف ، والواو ، والياء) ، إذ تخرج من الصدر والحلق وتنتهى الى خارج الفم
- أقصى الحلق : للهمزة ، والهاء ، والهمزة أدخل فى ذلك من الهاء .
- وسط الحلق : للعين ، والحاء ؛ والعين أدخل فى ذلك من الحاء .
- أدنى الحلق : للغين والخاء ؛ والغين أدخل في ذلك من الخاء .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ذهب غالبية اللغويين الى أن مخارج الاصوات العربية ستة عشر مخرجا ، وذهب الدكتور كمال بشر الى أنها أحد عشر مخرجا . (أنظر : سر صناعة الاعراب لابن جنى :" ١/٥٠ ، وفقه اللغة للدكتور وافى : ١٦٥ ، والأصوات العربية للدكتور كمال بشر : ٩٠) .

ب - المخارج اللسانية :

وعددها تسعة مخارج ، وتنتج ثمانية عشر صوتا ، هى كما يلى :

- أقصى اللسان مع ما فوقه من الحنك ، للقاف والكاف ؛ غير أن الكاف أسفل من القاف وأقرب منها إلى الفم .

- وسط اللسان مع ما يقابله من أعلى الحنك : للجيم ، والشين ، والياء - التى ليست حرف مد - غير أن الجيم أبعدها عن الفم ، والياء أقربها إليه .

- جانب اللسان مع الأضراس الطواحن الثلاث : للضاد .

- جانب طرف اللسان - الواقع بعد مخرج الضاد الى منتهاه - مع ما يقابله من الحنك : للام .

- ظهر طرف اللسان مع لثة الثنيتين العليين : للراء .

- ظهر طرف اللسان مع لثة الثنيتين العليين ومع الخيشوم : للنون .

- فوق طرف اللسان مع أصول الثنيتين العليين : للتاء ، والدال ، والطاء .

- فوق طرف اللسان مع أطراف الثنيتين العليين : للثاء ، والذال ، والظاء .

- فوق طرف اللسان مع الثنيتين العليين : للصاد ، والسين ، والزاى .

جـ - المخارج الشفوية : وعددها مخرجان هما :

- باطن الشفة السفلى مع طرف الثنيتين العليين : للفاء .

- ما بين الشفتين : للباء ، والميم ، والواو - التى ليست حرف مد ، غير أن الواو تخرج من الشفتين مع انفتاحهما ، والميم والباء تخرجان مع انطباقهما ، وتختلف الميم عن الباء فى أن الأولى تعتمد على الخيشوم ، فى حين أن الثانية لا تعتمد عليه[١] .

(١) فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى : ١٦٥ - ١٦٦ .

صفات الأصوات العربية :

للأصوات العربية صفات يمكن حصرها فى ثلاثة عشرة صفة هى على النحو التالى :

١) الجهر والهمس :

والجهر أن تنقبض فتحة المزمار فيقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق فتحة المزمار ، ولكنها تظل تسمح بمرو النفس خلالها ؛ فإذا اندفع الهواء خلال الوترين – وهما على هذا الوضع – يهتزان اهتزازا منتظما ، ويحدثان صوتا موسيقيا ، تختلف درجته حسب هذه الهزات أو الذبذبات فى الثانية الواحدة ؛ كما تختلف شدته أو علوه حسب سعة الاهتزازة الواحدة ، وتسمى هذه العملية (جهر الصوت) ، والأصوات التى تصدر بهذه الطريقة تسمى (أصوات مجهورة) : أى أن الصوت المجهور هو الذى يهتز معه الوتران الصوتيان .

والهمس : عكس الجهر ، فالصوت المهموس هو الذى لا يهتز معه الوتران الصوتيان ، ولا يسمع لهما رنين حين النطق به ؛ وليس معنى ذلك أن ليس للنفس معه ذبذبات مطلقا ، والا لم تدركه الأذن ، ولكن المراد بالهمس هو صمت الوتر ين الصويتين مع النطق بالصوت ، رغم ان الهواء – فى اثناء اندفاعه من الحلق أو الفم – يحدث ذبذبات يحملها الهواء الخارجى الى حاسة السمع فيدركها المرء من أجل هذا[١] .

والأصوات المهموسة عشرة هى : ت ث ح خ س ش ص ف ك هـ ، وتجمعها عبارة (فَحَثَّهُ شَخْصٌ سَكَتَ)[*] ، والأصوات المجهورة ما عداها وهى تسعة عشر صوتا[٢] .

---

(١) الأصوات اللغوية للدكتور ابراهيم انيس : ١٩ – ٢٠ .

(*) يقول ابن جنى : « ويجمعها اللفظ (ستشحثك خصفة) سر صناعة الاعراب : /٦٠ .

(٢) فقه اللغة د. وافى : ١٦٧ .

ب) الشدة والرخاوة :

والشدة أن يحبس الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما فى موضع من المواضع ، وينتج عن هذا الحبس أن يضغط الهواء ، ثم يطلق سراح المجرى الهوائى فجأة ، فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا ، وتسمى الاصوات الناتجة عن هذه العملية (الاصوات الشديدة أو الانفجارية) . وهى ثمانية أصوات تجمعها عبارة (أَجَدْتَ طَبَقَكَ) أو (أَجِدُكَ قَطَبْتَ) ، منها خمسة تسمى (أحرف القلقلة) إذا كانت ساكنة ، وتجمعها عبارة (قُطْبُجَدٍ) .

والمواضع التى تحس فيها مجرى الهواء حبسا تاما محدثا الأصوات الانفجارية هى :

١ - الشفتان . وذلك بأن تنطبقا انطباقا تاما ، كما فى صوت (الباء) .

٢ - أصول الثنايا العليا ومقدمة اللثة . وذلك بأن يلتقى بها طرف اللسان ، كما فى أصوات التاء ، والدال ، والضاد ، والطاء .

٣ - أقصى الحنك الأعلى . وذلك بأن يلتقى به أقصى اللسان . كما فى صوتى الكاف والجيم القاهرية .

٤ - أدني الحلق بما فى ذلك اللهاة . وذلك بأن يلتقى به أقصى اللسان ، كما فى صوت القاف .

٥ - الحنجرة . وذلك فى همزة القطع[١] .

أما الرخاوة فهى ألا ينحبس الهواء انحباسا محكما ، وإنما يكتفى بأن يكون مجراه عند المخرج ضيقا جدا ، ، بحيث يحدث نوعا من الحفيف أو الصفير ، تختلف نسبته تبعا لنسبة ضيق المجرى وكل صوت ينتج عن هذه الطريقة يسمى (الصوت الرخو) ، كما تسمى هذه الأصوات أيضا باسم

---

(١) الأصوات العربية : ١٠٠ - ١٠١ .

(الأصوات الاحتكاكية) ، وهى اثنا عشر صوتا : س ز ص ش ذ ث ظ ف هـ ح خ ع[١] .

على أنه رغم التقاء ، العضوين مع بعض الاصوات قد يجد النفس له مسربا يتسرب منه الى الخارج وحينئذ يمر الهواء دون أن يحدث أى نوع من الصفير أو الحفيف ، وحينئذ يسمى الصوت الذى ينتج عن ذلك (الصوت المتوسط) أو (الصوت المائع) .، وهذه الأصوات المتوسطة ثمانية تجمعها عبارة (لَمْ يُرْوِعَنَاَّ)[٢] ، أو (لَمْ يُرَوِّعْنَا) ، أو (لَمْ يَرْعُونَا)[٣] .

جـ) الإطباق . والانفتاح :

الاطباق أن ينحصر الصوت بين اللسان وما يحاذيه من الحنك ، نتيجة لانطباق اللسان على الحنك ؛ والأحرف التى تنتج عن هذا الاطباق أربعة هى : الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء .

أما الانفتاح : فهو عكس الاطباق ، وأحرف الانفتاح ما عدا أحرف الاطباق المذكورة .

د) الاستعلاء . والاستفال :

الاستعلاء أن يصعد أو يرتفع اللسان فى أعلى الحنك ، والاصوات التى تنتج عن الاستعلاء هى : حروف الاطباق المنورة ، مع الخاء ، والغين ، والقاف .

أما الاستفال ، وهو بمعنى الانخفاض فهو عكس الاستعلاء ، حيث لا صعود ولا ارتفاع للسان فى أعلى الحنك ، وينتج عن الاستفال ما عدا حروف الاستعلاء .

---

(١) الاصوات اللغوية : ٢٥ .

(٢) المصدر السابق : ٢٤ ، وفقه اللغة : ١٦٧ .

(٣) سر صناعة الاعراب : ١ / ٦١ .

هـ) الذلاقة ، والإصمات :

الذلاقة هي خفة الصوت ، وسهولة النطق به ، وحروف الذلاقة ستة تجمعها عبارة (مُرْ بِنَفْلٍ) ، والعلة في خفة هذه الأصوات وسهولة النطق بها ، أن ثلاثة منها تخرج من طرف اللسان وهي : اللام ، والراء ، والنون ؛ وثلاثة أخرى تخرج من الشفة وهي : الفاء ، والباء ، والميم ، ونظرا لخفة أصوات الذلاقة هذه وسهولة النطق بها ، لا تجد كلمة عربية الأصل رباعية أو خماسية خالية من حروف الزيادة ، إلا وهي مشتملة على حرف أو أكثر من حروف الذلاقة وإذا صادفت كلمة من هذه الطائفة مجردة من حروف الذلاقة فاحكم بانها دخيلة في كلام العرب .

أما الإصمات ، ويقال له (الصمت) فهو عكس الذلاقة ، وأصواته ما عدا حروف الذلاقة الستة .

و) الصفير :

وهو صوت يشبه صفير الطائر ، يحدثه الهواء الخارج من الفم عند النطق بالحرف ، وحروفه ثلاثه هي : الصاد ، والسين ، والزاي .

ز) اللين :

وهو صفة حروف المد الثلاثة : الألف ، والواو ، والياء[١] .

---

(١) فقه اللغة :١٦٧ ، ١٦٨ .

الباب الثالث

عوامل النمو والتوسع فى اللغة العربية

أ) القياس
ب) الاشتقاق
ج) النحت
د) الاشتراك اللفظى
هـ) الترادف
و) التضاد
ز) الاقتراض



الباب الثالث

عوامل النمو والتوسع فى اللغة العربية

لعل من أبرز الخصائص أيضاً التى تفردت بها اللغة العربية ، وأجل الميزات التى تميزت بها دون أخواتها الساميات ، بل غيرها من لغات العالم أجمع ، أنها تملك من الوسائل والدعائم مايضمن لها النمو والتطور والتوسع فى الاستخدام ، حتى تساير كل مظاهر التقدم والتطور وفى جميع مناحى الحياة ، ويحقق لها الاكتفاء الذاتى ، واستيعاب كل المستجدات العالمية على مر العصور ، ولعل أبرز ماتملكه العربية من عوامل نموها وتطورها مايلى :

(١) القيـــاسُ

القياس : استنباط مجهول من معلوم ، فإذا اشتق اللغوى صيغة جديدج من مادة من مواد اللغة ، على نسق صيغة مألوفة من مادة أخرى ، سُمى هذا « قياساً » .

فالقياس اللغوى : هو مقارنة كلمات بكلمات ، أو صيغ بصيغ ، أو استعمال باستعمال ؛ رغبة فى التوسع اللغوى ، وحرصاً على اطراد الظواهراللغوية[1] .

وقد لجأ النحاة إلى القياس منذ وضعوا أسس علم النحو ، وبدأوا التأليف فيه ، فيروى ابن سلام الجمحى[2] مانصه : « وكان أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها :أبو الأسود الدؤلى »[3]،

---

(١) من أسرار اللغة : ٩ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى ، إمام فى الأدب ، من أهل البصرة ، ألف : طبقات الشعراء ، وبيوتات العرب ، وغريب القرآن . (الأعلام : ٦ / ١٤٦).

(٣) أنظر طبقات القراء .

وروى عن أبي حاتم[١] قوله : « كان يقال : عبد الله - يقصد عبد الله بن أبي اسحق - أعلم أهل البصرة ، وأنقلهم ففرّع النحو وقاسه ...»[٢] .

وقد أختلف البصريون والكوفيون فيما يقاس عليه ، إذ اقتصر البصريون على جواز القياس على المشهور الشائع ، ورفضوه على القليل النادر ، في حين أجاز الكوفيون القياس على الشاهد الواحد أو الشاهدين : ومن ثم أطلقوا على مدرسة البصرة (مدرسة القياس) ، وعلى مدرسة الكوفة (مدرسة السماع) حيث كان الكوفيون يقيسون على كل مايسمعون ؛ وترتيبا على هذا الخلاف ، أصبح الناس يصادفون ألفاظاً ، يعدها فريق قياسية ، بينما يعدها فريق آخر ساعية .

وما أن انتصف القرن الرابع الهجري ، أو كاد ، حتى خرج على الناس أبو علي الفارسي[٣] ، وتلميذه أبو الفتح بن جني[٤] برأى في القياس اشتهر عنهما يقول : « ماقيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب[٥] ، وقد بلغ من اعتزاز الفارسي بالقياس أن روى عنه أنه قال : « لأن أخطئ في خمسين

---

(١) أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني ، نزيل البصرة وعالمها ، أخذ عنه المبرد وابن دريد وغيرهما ، كان عالما باللغة والأدب والشعر ، ألف أكثر من عشرين مؤلف أهمها : إعراب القرآن ، ومايلحن فيه العامة ، المقصور والممدود ، المذكر والمؤنث ، توفي بالبصرة سنة ٢٥٠ هجرية - على أصح الأقوال - (أنظر وفيات الأعيان : ٢ / ٤٣٠) .

(٢) المزهر : ٢ / ٣٩٨ .

(٣) أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان ، نشأ بفسا من بلاد فارس ، ثم ورد بغداد فأخذ من علمائها كالزجاج ، ومبرمان ، وابن السراج ، ألف : الإغفال ، والإيضاح ، والذيل والصلة ، والمسائل العسكرية ، والحلبية ، والبغدادية ، والشيرازية ، توفي ببغداد سنة ٣٧٧ هجرية ، (أنظر : وفيات الأعيان : ١ / ١٣١ ، والأعلام : ٢ / ١٩٣) .

(٤) أبو الفتح عثمان بن جني ، ولد بالموصل وتلقى من علمائها ، تصدر للتدريس بالموصل ، ثم ببغداد بعد أبي علي الفارسي ، ألف : الخصائص ، وسر صناعة الأعراب ، والتصريف الملوكي ، والمحتسب ، واللمع ، توفي ببغداد سنة ٣٩٢ هجرية ، (إنباه الرواة : ٢ / ٢٣٥) .

(٥) انظر الخصائص : ١ / ٣٥٧ .

مسألة مما بابه السماع ، أحب إلىّ من أن أخطئ فى مسألة واحدة قياسية »[١] ، وعن القياس يقول ابن جنى : « هو انْتِحَاءُ سَمْتِ كلام العرب ، من إعراب ، وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة ، والنسب ، والتركيب وغير ذلك »[٢] .

ويرى الدكتور ابراهيم أنيس[٣] - رحمه الله - أن القياس الطبيعى الذى تنمو به اللغة وتتسع ، فتساير التطور الاجتماعى ، وما يتطلبه من تجديد فى اللغة ، يتبلور فيما يلى :

أ) استكمال ما أغفلته المعاجم . حين تذكر كتب اللغة المصادر ، ولا تذكر أفعالها ، أو العكس ؛ أو حين يذكر الفعل الثلاثى ولا يذكر بابه ؛ هنا يستطيع المرء أن يلجأ إلى القياس ، ليستنبط مجهولا من معلوم ؛ ومثل هذا القياس يمكن أن يكمل نقصا كبيرا فى المعاجم اللغوية .

ب) تعريب الدخيل . وذلك بجعله على نمط الكلمات العربية ونسجها ، قياسا على مسلك القدماء العرب فى كلمات كثيرة فارسية ويونانية ... وغيرها .

جـ) تعميم المعنى بعد أن كان خاصاً ، قياسا على مافعله العرب حيال كلمة (الخمر) التى كانت مقصورة - أول الأمر - على عصير العنب المسكر ، فأصبحت تعنى كل ماهو مسكر ، وإن لم يتخذ من العنب ؛ وككلمة (السارق) التى تطلق - عادة - على من يأخذ مالا للأحياء خفية ، فأصبحت تطلق على كل من يأخذ ماليس له بحق ، حتى شملت نابش

---

(١) من أسرار اللغة : ٣١ .

(٢) الخصائص ١ / ٣٤ .

(٣) عالم لغوى مصرى ، ولد سنة ١٩٠٦ ميلادية ، عمل استاذا لفقة اللغة بكلية دار العلوم ، وعضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ألف : من أسرار اللغة ، والأصوات اللغوية ، ودلالة الألفاظ ، توفى بالقاهرة سنة ١٩٧٧ ميلادية .

القبور ليأخذ ماعلى الموتى من أكفان[١] .

وقد أستخدم مجمع اللغة العربية المصرى القياس فى إثراء اللغة العربية ، وإمدادها بمواد لغوية جديدة ، للمساهمة فى توسعها ، ومسايرتها لمظاهر التطور فى العالم ، فكان من قراراته .

١ - جعل المصدر الصناعى كالجاهلية ، واللصوصية ، والرهبانية ، والكهربائية ، والكيميائية ، والديمقراطية .. الخ مصدرا قياسيا ، وذلك لشدة الحاجة إليه فى التعبير عن كثير من حقائق العلوم ، والفنون والفلسفة .. الخ[٢] .

٢ - يصاغ (فعّال) للمبالغة ، من مصدر الفعل الثلاثى اللازم والمتعدى نحو : ضرّاب ، ونحّار ، وذهّاب ، وقوّام ، توّام .. الخ ؟ كما رأى المجمع قياس هذه الصيغة للدلالة على أصحاب الحرف والمهن نحو : نجّار ، وحدّاد ، ولحّام ، ولبّان ، وجزّار ، وحرّاث .. الخ[٣] .

٣ - جعل المصادر الدالة على التقلب والاضطراب ، كالغليان والخفقان ، والجَوَلان .. ألخ ، والدالة على المرض نحو : السقم ، والبرص ، والسعال ، والزكام ، قياسية[٤] .

٤ - جعل صياغة اسم الآلة نحو : غسالة ، وثلاجة ، وسماعة .. ألخ قياسية ؛ وجعل المصادر الدالة على الحرفة نحو : نجارة ، وحياكة وصباغة .. الخ قياسةأيضاً[٥] .

---

(١) من أسرار اللغة : ١٥ والقياس فى اللغة العربية للشيخ محمد الخضر حسين : ٢٦ .

(٢) (قرارات المجمع فى عشرين عاما : ٢١) .

(٣) المصدر السابق : ٣٦ - ٣٧ .

(٤) المصدر السابق : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) المصدر السابق : ٢٢ ، ٢٣ .

٥ - جعل تعدية الفعل الثلاثى اللازم بالهمزة نحو : خرج وأخرج ، ودخل وأدخل ، وذهب وأذهب قياسية[١] .

٦ - اتخذ المجمع عدة قرارات فى شأن الفعل المطاوع ، وصيغة « استفعل »، كما جوز استخدام بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة ، بشرط أن تتخذ لها طريقة العرب فى تعريبها[٢] .

---

(١) المصدر السابق : ٥٦ .

(٢) المصدر السابق : ٣٩ - ٤٣ ، ٨٦ .



ب) الاشتقاق



ب) الاشتقاق

الاشتقاق : أخذ صيغة من أخرى ، مع اتفاقهما معنى ، ومادة أصلية ، وهيئة تركيب لها ؛ ليدل بالثانية على معنى الأصل ، وزيادة مفيدة ، لأجلها اختلفتا حروفا أو هيئة ، كضَارِبٍ من ضَرْبٍ ، وحَذِرٍ من حَذَر [1] .

وطريق معرفة الاشتقاق : تقليب تصاريف الكلمة ، حتّى يرجع منها إلى صيغة هى أصل الصيغ ، دلالة اطراد ، أو حروفاً غالباً كضَرْبٍ فإنه دال على مطلق الضرب فقط ، أما ضَارِبٌ ، ومَضْرُوبٌ ، ويَضْرِبُ ، وَاضْرِبٌ ، فكلها أكثر دلالة ، وأكثر حروفا وضَرَبَ الماضى مساوٍ حروفاً وأكثر دلالة ، وكلها مشتركة فى (ض ر ب) وفى هيئة تركيبها [2] .

وهذا ما اتفق اللغويون على تسميته (الاشتقاق العام) أو (الاشتقاق الأصغر) وهو – فى الحقيقة – ليس إلا نوعاً من التوسع فى اللغة ، يحتاج إليه الكاتب ، وتلجأ إليه المجامع اللغوية ، للتعبير عما قد يستحدث من معان ، مما يساعد اللغة على مسايرة التطور الاجتماعى .

ولا يجوز القيام بهذا النوع من الاشتقاق إلا حين يكون له سند من نصوص اللغة ، يبرهن على أن العرب – أصحاب اللغة – قد جاءوا بمثله أو نظيره ، وأن هذا النظير كثير الورود فى كلامهم المروى عنهم ، ومن ثم فقد أعتبر جمهور العلماء بعض المشتقات كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، ونحوها من الاشتقاق القياسى ، لكونها رويت كثيرا فى أساليب العرب ، وجاءت من معظم الأفعال ؛ كما جوزوا لنا نحن المولدين أن نصوغ أمثالها ، إذا لم تكن قد رويت فى أساليب السلف القديمة .

فبعض الصيغ قد لايكون لها وجود فعلى فى نص صريح من نصوص اللغة ، ويجوز لنا اشتقاقها ، وثمة فرق كبير بين مايجوز لنا اشتقاقه من

(١) شرح التسهيل لابن مالك : ٣ / ٧١ .
(٢) المزهر : ١ / ٣٤٦ .

الصيغ ، وما أشتق فعلا واستعمل فى أساليب اللغة المروية عن العرب ، فليس من الضرورى أن يكون لكل فعل اسم فاعل ، أو اسم مفعول ، مرويين فى نصوص اللغة ، فقد لايحتاج المتكلم أو الكاتب إلى كليهما من فعل من الأفعال .

فالمشتقات تنمو وتكثر حين الحاجة إليها ، وقد يسبق بعضها بعضا فى الوجود ، ولهذا يجدر بنا ألا نتصور أن الأفعال أو المصادر حين عرفت فى نشأتها ، عرفت ومعها مشتقاتها ، فقد تظل اللغة قروناً وليس بها إلا الفعل وحده ، أو المصدر وحده ، حتى تدعو الحاجة إلى مايشتق منه[1] .

وبناء على ماتقدم ، إذا وجدنا بالمعاجم مثلا (أَبْلَحَتِ النَّخْلَةُ : صار ماعليها بلحاً) ثم سكتت عند هذا ، أمكن أن نشتق المضارع والمصدر فنقول : تُبْلِحُ إِبْلَاحًا ، قياسا على الأمثلة الكثيرة التى وردت فى غير هذا الفعل .

وحين نجد المعاجم تذكر المصدر (التَّبَلْصُقُ) بمعنى : التقرب من الناس ، دون أن تذكر الفعل ، أمكننا أن نصوغ الفعل فنقول : تَبَلْصَقَ ، يَتَبَلْصَقُ ، دون حرج فى هذا .

وحين تذكر المعاجم اسم الفاعل فتقول (بَخَنَ فهو بَاخِنٌ ، بمعنى : طال) وتغفل عن ذكر المصدر أو المضارع ، نستطيع أن نشتق المصدر فنقول : بُخُون ، لأن الفعل لازم مفتوح العين ، وأن نشتق المضارع فنقول : يَبْخَنُ ، لأن عين الفعل من حروف الحلق .

ففى مثل ماتقدم من الكلمات أمكن أن نشتق صيغاً جديدة ، لم ترد فى المروى من أساليب العرب ، وكان لاشتقاقنا اساس أو سند قوى يبرر تلك

(١) من أسرار اللغة : ٤٧ .

العملية الاشتقاقية ؛ وهذا هو الاشتقاق الذى يعد محل اجماع العلماء قديمهم وحديثهم[١] .

وقد قسم أبو الفتح ابن جنى الاشتقاق إلى أنواع ثلاثة :

الأول : الاشتقاق الأصغر : وهو ما فصلنا فيه القول آنفا ، وما أطلق عليه العلماء اسم (الأشتقاق العام) .

الثانى : الاشتقاق الكبير وهو يقوم على نظرية (دوران المادة حول معنى واحد)[٢] ، بمعنى أن بعض المجموعات الثلاثية تتكون من أصوات ترتبط ببعض المعانى ارتباطاً مطلقاً ، غير مقيد بترتيب ، نحو قولهم : إن (النون ، والجيم ، والدال) مهما قلبتها عبرت عن معنى القوة ، وأن (الراء والكاف والباء) مهما قلبتها تعبر عن معنى الإجهاد والمشقة ... الخ[٣] .

الثالث : الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على قلب حرف إلى حرف آخر ، أو إبدال حرف من آخر ، نحو قولهم : أَزَّ وهَزَّ ، والجَثْل والجَفْل ، والجَدَث والجَدَف .. ألخ .

فلو رجعنا إلى المعاجم اللغوية ، نجدها تقول فى مادة (ركب) :

(**ركب**) ركب الدابة يركب ركوبا : علا عليها ، والإسم : الرِّكبة – بالكسر– والرَّكبة مرة واحدة ، وكل ماعلا فقد ركب ، وارتكب : والرِّكبة – بالكسر – ضرب من الركوب ، يقال : هو حسن الركبة ، وركبه الدين ، وركب الهول ، وكذلك ركب الذنب وارتكبه ، وارتكاب الذنوب : إتيانها[٤]

---

(١) من أسرار اللغة : ٤٨ .

(٢) راجع ص ١٣٦ .

(٣) أنظر فى هذا معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس القزوينى ، إذ جميعه مبنى على هذه الفكرة .

(٤) لسان العرب : ١٧٢٠ .

(ربك) الربك : أن تلقى إنساناً فى وحل ، فيرتبك فيه ، ولا يستطيع الخروج منه ، وينشب فيه ، وارتبك فى الأمر : إذا وقع فيه ونشب ، ولم يتلخص منه ؛ ومنه : ارتبك الصيد فى الحبالة : اضطرب ، وارتبك فى الأمر ، إذا اختلط والتبك بمعنى واحد ؛ وارتبك فى كلامه : تتعتع(١) .

(برك) قال الفراء : والعرب تقول : باركك الله ، وبارك فيك . قال ، الأزهرى : معنى بركة الله : علوه على كل شىء ، وسأل الناس أبا العباس عن تفسير (تبارك الله) فقال : ارتفع ، والمتبارك : المرتفع(٢) .

(بكر) والبكور ، والتبكير : الخروج فى وقت الغداة ، وغداة يومك ، والإبكار : الدخول فى ذلك الوقت ، ورجل بكر فى حاجته ، وبكر مثل حذر ، وبكير : صاحب بكور(٣) .

(كبر) كبر يكبر : عظم ، فهو عظيم وكبير ، واستكبرا الشىء : رآه كبيرا ، وعظم عنده ، وأكبرت الشىء : استعظمته ، وكبر الأمر : جعله كبيرا(٤) .

(كرب) الكرب : الحزن ، والغم الذى يأخذ بالنفس ، وكربه الأمر : اشتد عليه ، وأكرب عليه ، وأكرب الرجل كأسرع ، وخذ رجليك بأكراب : إذا أمر بالسرعة ، أى : أعجل وأسرع(٥) .

والمعاجم تقول أيضا فى مادة (نجد) :

(نجد) النَّجْد من الأرض : قِفَافُها وصلابتها ، وماغلظ منها ، وأشرف ، وارتفع ، واستوى ، والجمع : أنجد ، وأنجاد ، ونجاد ، ونجود ، ونجد ؛ اشتد بن الأعرابى :

(١) المصدر السابق : ١٥٧ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٦٦ .
(٣) المصدر نفسه : ٥١٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٣٨٠٧ .
(٥) المصدر نفسه : ٣٨٤٥ .

لَمَّا رَأَيْتُ فِجَاجَ الْبِيدِ قَدْ وَضَحَتْ ... وَلَاحَ مِنْ نَجْدٍ عَادِيَةً حُصُـــرُ

وقال الأخنس : نَجُدُ لغة هذيل خاصة[١]

(ندج) فى حديث الزبير : (وقطع أُنْدُوُج سرجه) أى : لبده[٢] .

(جدن) قال ابن الأعرابى : أجدن الرجل إذا استغنى بعد فقر[٣] .

(جند) الجند : العسكر والأعوان والأنصار ، والمجند : المجموع ، ومنها فى الحديث : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »[٤] والجند : الأرض الغليظة ، وقيل : هى حجارة تشبه للطين[٤] .

(دنج) : الدنج العقلاء من الناس ، قال أبو عمرو : الدناج : إحكام الأمروإتقانه[٥] .

(دجن) الدجن : هو الباس الغيم الأرض . وقيل إلزامه أقطار السماء ؛ وقد أدجن يومنا ، فهو دجن : إذا اضب فأظلم ، والدجانة : الابل التى تحمل المتاع[٦] .

فقد وضح مما تقدم ان تقليبات المادة اللغوية الستة يجمعها معنى واحد عام ، وكل صورة من الصور الستة تعطى ظلا من هذا المعنى ، فكل تقليبات ماة (ركب) تعطى معنى الإجهاد والمشقة ، وتقليبات مادة (نجد) تعطى القوة والغلظة والصلابة والشدة .

كذلك الاشتقاق الأكبر الذى يقوم على فكرة قلب حرف إلى حرف ، أو بدال حرف من حرف آخر ، نجد المعاجم اللغوية تقول فى مادة (هَزَّ) التى

---

(١) لسان العرب : ٤٣٤٦ .
(٢) المصدر السابق : ٤٣٨٠ .
(٣) المصدر نفسه : ٥٧٢ .
(٤) المصدر نفسه : ٦٩٨ .
(٥) المصدر نفسه : ١٤٣٢ .
(٦) المصدر نفسه : ١٣٣١ .

تبدل فيها الزاى همزة فيقال (أَزَّ) إذ الهز والأز بمعنى واحد ، وهو التهييج والإغراء ، والإزعاج ؛ إلا أنهم أبدلوا (الهاء) همزة ، لأنها أنصع فى النطق ، وأوقع فى السمع ، حيث يقول ابن فارس القزوينى :

(أَزَّ) الهمزة والزاى : أصل يدل إما على التحريك ، والتحرك ،الإزعاج كما فى قول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[1]. أى : تزعجهم إزعاجا ، ومن ذلك (الأزيز) : صوت الرعد ، وصوت غليان القدر[2] ويقول الجوهرى :

الأز : التهييج ، والإغراء ؛ وأزه يؤزه أزا : أغراه ، وهيجه ، وأزاه : حثه ، وفى التنزيل العزيز :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ ؛ قال الفراء : أى تزعجهم إلى المعاصى ، وتغريهم بها ، وقال غيره : الأز : أن تحمل إنسانا على أمر بحيلة ورفق حتى يفعله ،.

وفى رواية : أن طلحة والزبير – رضى الله عنهما – أزا عائشة حتى خرجت[3] ، وعنه نقل الفيروز ابادى[4] .

أما (الهز) فيقول عنه ابن فارس :

(هز) الهاء والزاى : أصل ثنائى يدل على اضطراب فى شىء وحركة ، وهززت القناة فاهتزت ، واهتز النبات ، وهزته الريح ، وهز الحادى الإبل بحدائه ، واهتزت هى فى سيرها ، وهزيز الريح : حركتها وصوتها ؛

---

(١) سورة مريم : من الآية ٨٣ .

(٢) مقاييس اللغة : ١ / ١٣ .

(٣) الصحاح : مادة (أزز) .

(٤) اللسان : مادة (أزز) .

ومن الباب : (الهزاهز) : الفتن يهتز فيها الناس ، (والهزهز) : الرجل الخفيف ، والقياس في كل ذلك واحدا[١] .

وكذلك مادتا (الجَثَل) و (الجَفَل) بمعنى واحد ، وهو : تجمع الشيء وإنضمام بعضه إلى البعض ؛ إلا أنهم أبدلوا الثاء فاء ، لكونها أظهر في النطق ، وأوقع في السمع ، حيث يقول ابن دريد :

(الجثل) : تجمع الشيء وانضمام بعضه إلى بعضه ، تقول : شعر جثل : كثير النبات بين الجثولة ، وكذلك الشجر إذا كثفت اغصانه ؛ وجثالة الشجر : ما تساقط من ورقه ؛ ويقال في بعض اللغات : جثلته الريح ، مثل جفلته سواء[٢] .

أما (الجفل) فيقول عنه ابن فارس :

(الجفل) الجيم والفاء واللام : أصل يدل على تجميع الشيء ، وقد يكون بعضه مجتمعا في ذهاب ، أو فرار ، فالجفل : السحاب الذي هراق ماءه ، وذلك أنه إذا هراقه انجفل ومر ، وريح مجفل وجافلة .

أي : سريعة المر ، والجفال : مانفاه السيل من غثائه ، وروى عن رؤبة الشاعر أنه كان يقرأ : ﴿ وَأَمَّا الزَّبَدَ فَيَذْهَبُ جُفَالاً ﴾[٣] ويقال : انجفل الناس : إذا ذهبوا ، الجَفَلَى : أن تدعو الناس إلى طعامك عامة ، وهي خلاف (النَقَرَى) ، وظليم إجفيل : يهرب من كل شيء ، وذلك أنه يجمع نفسه ، إذا هرب ويجفل ، وبه سمي الجبان : إجفيلا ؛ قال الخليل : الجفالة الناس الجماعة جاءوا أو ذهبوا ، ويقال : أخذ جفلة من صوف ، أي : جزءا منه ، والجفال : الشعر المجتمع الكثير[٤] .

(١) مقاييس اللغة : ٣ / ٢٩١ .
(٢) الجمرة : ٢ / ٢٣ .
(٣) سورة الرعد : من الآية ١٧ .
(٤) مقاييس اللغة : ١ / ١٦٤ .

وكذلك مادتا (الجدث) و (الجدف) بمعنى واحد ، وهو القبر ، ولكنهم أبدلوا الثاء فاء لكونها أظهر فى النطق ، وأوقع فى السمع ، حيث يقول الجوهرى :

« (الجدف) : القبر ، وهو إبدال (الجدث) ، وفى الجمهرة أنه لغة فى (الجدث) وهو القبر ، والعرب تعقب بين الفاء والثاء فى اللغة ، فيقولون : جدث ، وجدف »[١] .

ولا يخفى أن النوع الأول ، وهو الأصغر أو العام ، هو مناط إثراء اللغة ، وتوسعها ؛ ووسيلة نموها وتطورها ، عن طريق إمدادها بالألفاظ الجديدة ، أو المفردات الحديثة ، التى تمكنها من مواكبة متطلبات الحياة فى شتى مناحيها .

حيث يقول ابن جنى تحت عنوان (باب فى الأشتقاق الأكبر) :

« فالصغير : مافى أيدى الناس وكتبهم ، كأن تأخذ أصلا من الأصول ، فتتقراه ، فتجمع بين معانيه ، وإن اختلفت صيغة ربانية ، وذلك كتركيب (س ل م) فإنه تأخذ منه معنى السلامة فى تصرفه ، نحو : سلم ، ويسلم ، وسالم ، وسالمان ، وسلمى ، والسلامة ، والسليم : اللديغ ، أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة ؛ وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته ، وبقية الأصول غيره ، كتركيب (ض ر ب) و (ج ل س) و (ز ب ل) على ما فى أيدى من الناس من ذلك ، فهذا هو الاشتقاق الأصغر ..

وأما الأشتاق الأكبر[٢] ، فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وإن تباعد شىء من ذلك عنه ، رد بلطف الصنعة

---

(١) الصحاح : مادة (جدف) .

(٢) يلاحظ أن هذا النوع من الاشتقاق الكبير ، وإن سماه ابن جنى (الاشتقاق الأكبر) .

والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التركيب الواحد ؛ لكن بقى علينا أن نحضرها هنا مما يتصل به أحرفا ، تؤنس بالأول ، وتشجع منه المتأمل.

ومن ذلك تراكيب (ق س و) و (ق و س) و (و ق س) و (و س ق) وأهمل (س و ق) وجميع ذلك إلى القوة والاجتماع ؛ منها (القسوة) وهى شدة القلب واجتماعه ، ألا ترى إلى قوله :

يَالَيْتَ شِعْرِى - وَالمُنَى لَا يَنْفَعُ - هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْماً وَأَمْرِى مُجْمَعُ[١]

أى : قوىّ مجتمع ؛ ومنها (القَوْسُ) لشدتها ، واجتماع طرفيها ؛ ومنها (الوَقْسُ) لابتداء الجَرَب ، وذلك لأنه يجمع الجلد ويقحّله ؛ ومنها (الوسَق) للحمل ، وذلك لاجتماعه وشدته ، ومنه : استوسق الأمر ، أى : أجتمع ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾[٢] . أى : جمع : ومنها (السَّوْق) ، وذلك لأنه استحثاث وجَمْعٌ للمَسُوقِ بعضه إلى بعض ، وعليه قال :

* مُسْتَوْسِقَاتٌ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقاً *[٣]

فهذا كقولك : مجتمعات لويجدن جامعا[٤] .

وأما عن الاشتقاق الأكبر فيقول ابن جنى :

« من ذلك قول الله - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[٥] .أى : تزعجهم وتقلقهم ؛ فهذا فى

(١) انظر : النوادر : ١٣٣

(٢) سورة الانشقاق : آية ١٧ .

(٣) البيت : من بحر الرجز : قاله العجاج .
انظر فيه : ملحقات ديوان العجاج : ٨٤ ، المخصص : ٧ / ١١٢ ، ١٧٧ ، واللسان : ٢٦٠ (وسق) .

(٤) انظر : الخصائص : ٢ : ١٣٤ - ١٣٧ .

(٥) سورة مريم : آية ٨٣ .

معنى : تهزهم هزا ، والهمزة أخت الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين ، والهمزة أقوى من الهاء ...

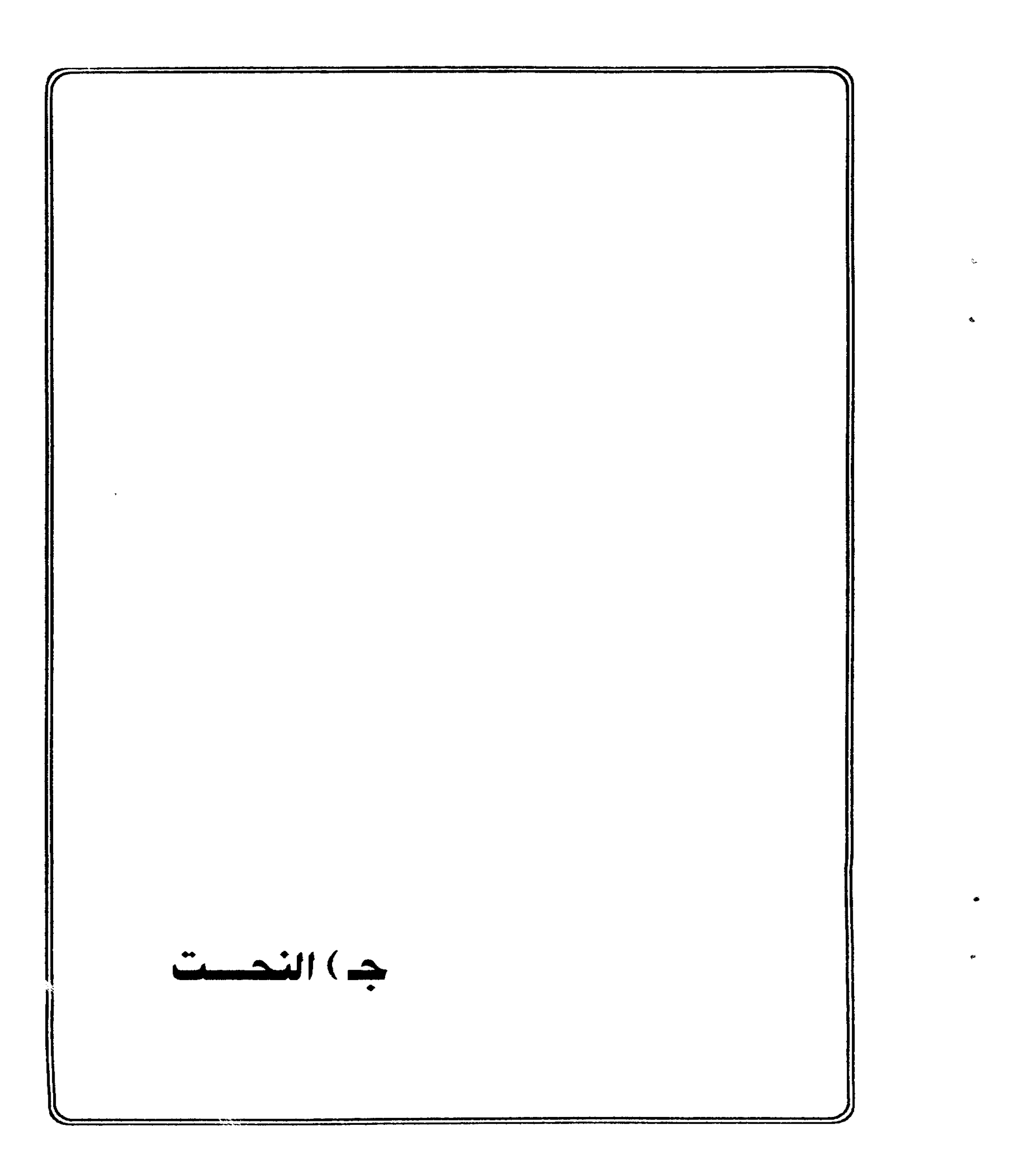
ومنه : العسف ، والأسف ، والعين أخت الهمزة ، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها والهمزة أقوى من العين .

ومن ذلك تركيب (ح م س) و (ح ب س) قالوا : حبست الشيء ، وحمس الشر إذا اشتد ، والتقاؤهما أن الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازا ، فكان ذلك كالشر يقع بينهما ..

واستعملوا تركيب (ج ب ل) و (ج ب ن) و (ج ب ر) لتقاربها في موضع واحد ، وهو الالتئام والتماسك ؟ منه : الجبل لشدته وقوته ، وجبن إذا استمسك وتوقف وتجمع ، ومنه : جبرت العظم ونحوه أي : قويته[1] .

---

(١) الخصائص : ٢ / ١٤٦ - ١٤٩ .



جـ) النحــــت



جـ) النحت

النحت : مزج كلمتين أو أكثر ، والخروج منهما بكلمة واحدة ، كما ينحت النجار خشبتين أو أكثر ويجعلهما واحدة[1] .

وعن النحت يقول ابن فارس : « العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار ، وذلك (رجل عَبْشَمِيٌّ) منسوب إلى اسمين »[2] .

والحقيقة أن العربية تشتمل على الكثير من العبارات المشهورة الكثيرة الشيوع فيها ، والتى تستخدم فى غالب الأحيان ككتل متماسكة الأجزاء فى ظروف لغوية معينة ، بمثابة الأمثال أو الحكم ، نحو قولهم ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ و ﴿ لا حول ولا قوة إلا بالله ﴾ و (جعلنى الله فداءك) و (أدام الله عزك) .. ألخ ؛ ولكثرة دوران تلك العبارات فى كلام العرب ، وكثرة استخدامهم لها ، ما لوا إلى اختزالها ، والاكتفاء ، بأقل قدر من الإشارة إليها فى صورة كلمة واحدة – فعلا أو اسما – يشيع استعماله على هذه الصورة الجديدة .

وقد وردت ظاهرة النحت عن أئمة اللغة ، ومؤلفى المعاجم القدامى كالخليل بن أحمد فى (كتاب العين) ، وابن الكسيت فى كتاب (إصلاح المنطق) ، والجوهرى فى معجم (تاج اللغة وصحاح العربية) ، وابن فارس فى معجمى (المجمل) و (مقاييس اللغة) ، والثعالبى فى (فقه اللغة وسر العربية) ، والسيوطى فى (المزهر) .

ويؤثر بعض المحدثين من اللغويين إلحاق النحت بالاشتقاق ، ويجعل منه قسما رابعا يطلق عليه اسم (الاشتقاق الكُبَّارُ) حيث يرى انضواءه تحت لواء الاشتقاق ، لما يكتنفه مما يكتنف الاشتقاق من أخذ وتوليد[3] .

---

(١) من أسرار اللغة : ٧١ .

(٢) الصاحبى : ٤٦١ .

(٣) الاشتقاق لعبد الله امين : ٢ ، ٢٩٧ .

والصواب أن النحت مناقض للاشتقاق، من حيث إنه – فى أغلب صوره – عملية إطالة لبنية الكلمة ، فى حين أن النحت اختزال واختصار فى الكلمات والعبارات .

وليس للنحت قاعدة مطردة، يمكن التزامها والأخذ بها ، ومن ثم عزاه جمهور اللغويين إلى السماع ، ولم يبيحوا للمحدثين القياس عليه ، أو النسج على منواله ، رغم أن ابن فارس القزوينى قد أعتبره قياسا[١] ، وقد حذا حذوه جمال الدين ابن مالك[٢] .

وقد ورد النحت فى اللغة العربية على عدة صور ، يمكن إجمالها فى أربعة أنواع :

أ – **النحت الفِعْلِي** : وهو أن تنحت من كلمتين أو أكثر فعلا ، تعبر به عن مضمون الجملة المركبة من هاتين الكلمتين أوالكلمات ، وذلك نحو قولهم :

بَسْمَلَ : قال (بسم الله الرحمن الرحيم) .

حَوْقَلَ أو حَوْلَقَ : قال (لا حول ولا قوة إلا بالله)[٣]

طَلْبَقَ : قال : (أطال الله بقاءك) .

جَعْفَدَ : قال (جعلت فداءك) .

دَمْعَزَ : قال (دام عزك) .

مَشْلَنَ أو مَشْكَنَ : قال (ماشاء الله كان)[٤] .

---

(١) الصاحبى : ٤٦١ .

(٢) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد .

(٣) اختلف فى اللفظ المنحوت من (لا حول ولا قوة إلا بالله) حيث إن (حوقل) تأتى بمعنى : الرجل العجوز الذى نالت منه الشيخوخة ، فضعف وهرم ، رغم أن لفظه هو الأنسب فى التعبير عن الجملة تبعا لترتيب الحروف فيه مع كلماتها .

(٤) اختلف فى اللفظ المنحوت من (ما شاء الله كان) تبعا لايثار فريق حرف (الكاف) لقوته ونصاعته ، وإن كان (مشلن) أنسب للتعبير عن الجملة ، لتمثيله لكل كلماتها مع ترتيب حروفها فيه .

وغير هذا كثير مما يمكن التعرف على الجملة المنحوت منها الفعل بسهولة ويسر ، ولا نرى ضرورة إلى إطالة القول فيها نحو : حمدل ، وحيهل ، وهيلل ، وديلم ، وحسبل .. الخ[١] .

ب - **النحت الاسمى** : وهو أن تنحت من أصلين مستقلين اسما ، لتدل به على معنى مشترك من هذين الأصلين نحو قولهم :

البُرْقُعُ : وهو مأخوذ من الفعل (برق) ، والاسم (رقعة) أى : خرقة ، وهو القناع يغطى الوجه .

الجَحْدَرُ : وهو مأخوذ من الفعل (جحد) ، والفعل (قصر) ومعناه : القصير .

الجُلْمُودُ : وهومأخوذ من الفعل (جلد) والفعل (جمد) ، ومعناه : الصخر الشديد الصلابة .

الحَبْقَرُ : وهو مأخوذ من الاسم (حب) ، والاسم (قر) ، ومعناه : البرد الشديد .

جـ - **النحت الوصفى** : وهو أن تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، تعبر بها عن صفة تجمع ما فى كلا الكلمتين من معان ، نحو قولهم :

ضَبْطَر : وهو مأخوذ من (ضبط) و (خبر) ، وهو بمعنى : القوى الشديد .

صَلْدَم : وهو مأخوذ من (الصلد) و (الصدم) وهو بمعنى : الشديد الحافر.

صَهْصَلَق : وهو مأخوذ من (صهل) ، (صلق) ، وهو بمعنى : العجوز الصخابة[٢] .

---

(١) أنظر فى ذلك معجم (مقاييس اللغة لابن فارس : ١ / ٣٢٨ وما بعدها.

(٢) من أسرار اللغة : ٧٦ .

د – **النحت النسبي** : وهو أن تنسب إلى علم مركب إضافي (مضاف ومضاف إليه) بعد أن تنحت المتضايفين ، وتخرج منهما باسم واحد هو المنسوب إليه ، نحو قولهم :

عَبْشَمِي : أي منسوب إلى (عبد شمس) .

عَبْقَسِي : أي منسوب إلى (عبد القيس) .

حَضْرَمِي : يعني منسوب إلى (حضر موت) .

تَيْمَلِي : يعني منسوب إلى (تيم اللات) .

حَنْفَلِي : يعني منسوب إلى (مذهب أبي حنيفة والمعتزلة)[١] .

دَرْعَمِي : يعني منسوب إلى (دار العلوم) .

مما تقدم يتضح أن النحت قد يكون ضروريا في بعض الأحيان ، حيث يمكن أن يساعد على تنمية الألفاظ في اللغة وإثرائها ، ولذا يلزم الوقوف منه موقفا معتدلا ، ويسمح به حين تدعو الحاجة إليه ، وتلح في طلبه ، ولاسيما حين يجري على نسق من الأمثلة التي نحتها الأقدمون من اللغويين ، فلا بأس من أن يقال (دَرْعَمِي) نسبه إلى دار العلوم ، كما يقال (أَنْفَمِي) للصوت الذي يتخذه مجراه من الأنف والفم معاً[٢] .

ونظرا لحاجة اللغة العربية إلى التزود بالألفاظ الجديدة التي تساعدها على ملاحقة ركب التقدم في العلوم والفنون ، ومسايرة مظاهر التطور في العالم ، فقد اقر مجمع اللغة العربية المصري جواز النحت في اللغة العربية عندما تلجيء إليه الضرورة[٣]

---

(١) من أسرار اللغة : ٧٤ .

(٢) الأصوات اللغوية : ٦٨ .

(٣) انظر مجلة مجمع اللغة العربية المصري : ٧ / ٥٨ .

ولقد رأى بعض اللغويين ضرورة إحاطة عملية النحت ببعض الضوابط حتى تكبح من جموحها ، ولا تلقى بها بين أيدى من يحسن استخدامها ومن لايحسن ، فتكون عامل هدم للغة لا عامل بناء ، ومن هذه الضوابط :

١ - أن يراعى انسجام الحروف ، عند التأليف بينها فى الكلمة المنحوتة .

٢ - أن يراعى تمثيل الحروف فى الكلمة المنحوتة ، للكلمات المنحوت منها .

٣ - أن يكون اللفظ المنحوت على وزن عربى ، كلما أمكن ذلك .

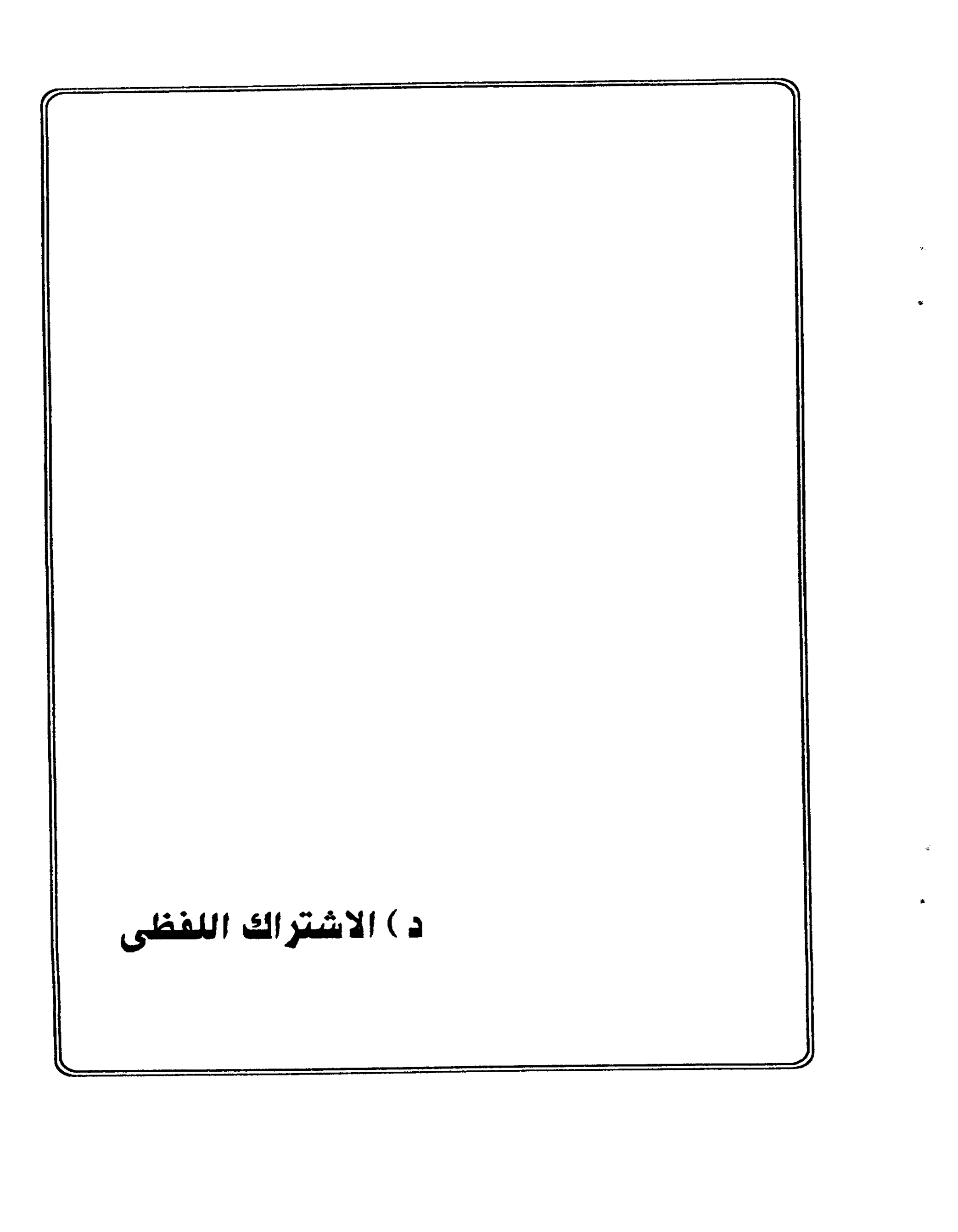
٤ - ألا يكون اللفظ المنحوت نابيا فى الجرس عن سليقته العربية .

٥ - أن يمكن استخدام اللفظ المنحوت فى شتى دروب اللغة ، من إفراد ، وتثنية ، وجمع ، واعراب ، ونسب ، وتصغير ، أى : أن يكون موافقا لسمت الألفاظ العربية فى جميع خواصها[1] .

---

(١) انظر : دراسات فى فقه اللغة . د. صبحى الصالح : ٢٧٤ ، وعوامل التطور اللغوى د . احمد حماد : ٤٠ .





د) الاشتراك اللفظى

د) الاشتراك اللفظي

الأشتراك اللفظي : مصادفة لفظ واحد ، دال على معنيين مختلفين فأكثر ، دلالة على السواء عند أصل اللغة(1) .

وذلك بأن يكون للفظة الواحدة معنيان أو عدة معان ، تطلق على كل منها على جهة الحقيقة لا المجاز ، نحو لفظة (العين) التى تطلق على الحاسة الباصرة ، وعلى الشيء النفيس ، وعلى الجاسوس ، وعلى أحد النقدين : الذهب والفضة ، وعلى البئر ، وعلى المطر ، وعلى المتاع .. ألخ ، وقد أورد السيوطي فى (المزهر) – نقلا عن الأصمعي(2) – أكثر من ثلاثة عشر معنى للفظة (العين)(3) .

وحيال وجود الأشتراك اللفظي فى اللغة العربية ، تباينت آراء العلماء من حيث الإقرار والإنكار ، فقد ذهب فريق من اللغويين ، وعلى رأسهم ابن دستورية(4) إلى أنكار وجود الاشتراك اللفظي فى اللغة العربية ، بدعوى أن إطلاق اللفظ الواحد على معنيين مختلفين أو أكثر ، يؤدى إلى الإبهام والتعمية ، ومن ثم ذهبوا إلى تأويل الألفاظ التى تكون مظنة الأشتراك فى اللغة إلى اعتبار دلالتها على احد المعانى ، على جهة الحقيقة ، ودلالتها على المعانى الأخرى على جهة المجاز(5) .

---

(1) المزهر : ١ / ٣٦٩ .

(2) عبد الملك بن قريب ، ولد بالبصرة سنة ٧٤٠ ميلادية ، أحد أئمة العلم والرواية باللغة والشعر والبلدان ، له تصانيف كثيرة ، منها : فحولة القراء، وخلق الإنسان ، والأبل ، والمترادف ، والفرق ، توفى بالبصرة سنة ٢١٦ هـ . (انظر : الأعلام : ٤ / ١٦٢ ، بقية الوحاة : ٢/١١٢) .

(3) انظر المزهر : ١ / ٣٧٥ .

(4) عبد الله بن جعفر ، ولد ببلاد فارس سنة ٨٧١ ميلادية ، من أئمة اللغة والنحو ، له تصانيف كثيرة منها : الكتاب ، والإرشاد ، ومعانى الشعر ، ونقد كتاب (العين) للخليل ، توفى ببغداد سنة ٣٤٧ هـ (الأعلام : ٤ / ٧٦ والبقية : ٢ / ٣٦) .

(5) المزهر : ١ / ٣٧٢ .

وذهب فريق آخر إلى إقرار وجود الأشتراك فى اللغة العربية ، لكثرة وروده فى الأساليب التى أثرت عن العرب الخلص ، حتى إن غالبية هذا الفريق قد أفرد مؤلفات برأسها فيما ورد عن العرب من المشترك اللفظى ، منهم الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والأصمعى ، وأبو عبيد[١] ، وأبو زيد الأنصارى[٢] .

والأخفش الأوسط[٣] ، وابن فارس القزوينى ، وأبو منصور الثعالبى ، والمبرد[٤] ، والسيوطى .

ولا ريب أن رأى الفريق الثانى هو الأقرب إلى الحقيقة ، والأجدر بالقبول ، حيث لايخفى على كل ذى عين تبصر ، أو عقل يتدبر ، وجود الأشتراك اللفظى فى اللغة العربية ، ممثلا فيما ألفه المبرد باسم (اما اتفق لفظه واختلف معناه) ، وما ألفه ابن الأعرابى[٥] بالاسم نفسه ، وما أورده أبو

---

(١) القاسم بن سلام ، ولد فى هراة سنة ٧٧٤ ميلادية ، من كبار العلماء فى الحديث والفقه والأدب ، صنف : الغريب المصنف ، والأمثال ، والمذكر والمؤنث ، والمقصور والممدود ، توفى سنة ٢٢٣ هـ (الأعلام : ٥ : ٢١٧٦ والبغية : ٢ / ٢٥٥) .

(٢) سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، ولد بالبصرة سنة ٧٣٧ ميلادية ، أحد أئمة الأدب واللغة ، صنف : النوادر ، والهمز ، والمطر ، ولغات القرآن ، توفى بالبصرة سنة ٢١٥ هـ . (الأعلام : ٣ / ٩٢ والبغية : ١ / ٥٨٢) .

(٣) أبو الحسن سعيد بن مسعدة، ولد ببلخ تلقى مع سيبوية عن كل شيوخه سوى الخليل ، استماله الكسائى وجعله مؤدب أولاده ، فمال للكوفيين ووافقهم فى الكثير من آرائهم اللغوية ، ألف : المقاييس ، والأوسط توفى ببغداد ٢١٥ هجرية (الأعلام : ٣ / ١٥٤) .

(٤) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ولد بالبصرة سنة ٢١٠ هـ ، أخذ عن الجرمى ، والمازنى ، وأبى حاتم وغيرهم ، ألف : المقتضب ، شرح شواهد سيبويه ، والرد على سيبويه ، والكامل فى اللغة والأدب ، وطبقات النحو بين البصريين ، توفى سنة ٢٨٥ هجرية ، الأعلام : ٨ / ١٥ ، ووفيات الأعيان : ١ / ٤٩٥) .

(٥) محمد بن زياد ، ولد بالكوفة سنة ٧٦١ ميلادية ، عالم باللغة والرواية والأنساب ، صنف : النوادر ، وأسماء . الخيل وفرسانها ، وتفسير الأمثال ، وشعر الأخطل ، توفى بالكوفة سنة ٢٣١ هـ . (أنظر : الاعلام : ٦ / ١٣١ ، وبغية الوعاة : ١ / ١٠٥) .

زيد الأنصارى فى نوادره ، والثعالبى فى (فقه اللغة وسر العربية) ، وابن فارس القزوينى فى (الصاحبى) ، والسيوطى فى (المزهر) .

فضلا على أن دعوى الفريق الأول من أن الاشتراك اللفظى يفضى إلى الإبهام والتعمية ، هى دعوى لا تقوم على قدمين ، إذ أن اللفظة فى التركيب اللغوى يستدل على معناها بقرينة السياق ، وقديما قالوا : « إذا جهلت معنى لفظة فأسأل عنها جاراتها » ، فوجود اللفظة فى الجملة ، وبين أخواتها هو الذى يحدد معناها فى دقة ووضوح ، وأصدق مثال على ذلك ما أورده السيوطى فى (المزهر)[1] من أبيات للخليل بن أحمد ، قافيتها لفظة واحدة تتكرر فى كل بيت ، ولكن كل منها تؤدى معنى مغايرا وهى :

يَاوَيْحَ قَلْبِي مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى ... إِذَا رَحَلَ الْجِيرَانُ عِنْدَ الْغُرُوبِ
أَتْبَعْتُهُمْ طَرْفِي وَقَدْ أَزْمَعُوا ... وَدَمْعُ عَيْنَيَّ كَفَيْضِ الْغُرُوبِ
بَانُوا وَفِيهِمْ طِفْلَةٌ حُرَّةٌ ... تَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ أَقَاحِي الْغُرُوبِ

فلفظة (الغُرُوبِ) فى البيت الأول تعنى : غروب الشمس ، وهى فى البيت الثانى جمع (غَرْبٍ) وهو الدلو يستخدم فى رفع الماء من البئر ، وفى البيت الثالث جمع (غَرْبٍ) وهى الوهاد المنخفضة ، فحين يقرؤها القارىء أو يسمعها السامع ، لا يعتاص عليه فهمها ، ولا تند عنه معانيها ، بمعاينة العلاقات السياقية بين الألفاظ المكونة لكل بيت .

ومع إقرار غالبية علماء اللغة بوجود الأشتراك اللفظى فى اللغة العربية ، فقد رجعوا وجوده إلى العوامل التالية :

١ - اختلاف اللهجات .

كأن تضع قبيلة ما لفظا لمعنى من المعانى ، ثم تضع قبيلة أخرى اللفظ نفسه لمعنى آخر .. الخ ، ثم يأتى جامعوا المعاجم ، فيضموا هذه المعانى

---
(١) أنظر المزهر : ١ / ٣٧٤٦ .

بعضها إلى بعض بعض ، دون أن يعنوا - فى كثير من الأحيان - بإرجاع كل معنى إلى القبيلة التى وضعته واستخدمته ؛ أو أن هذه المعانى كانت - على أختلافها - تنتقل إلى لغة قريش فى مواسم الحج والأسواق وغيرها ، باعتبارها لغة الأدب المصطفاة ، فيصبح اللفظ الواحد يطلق على كل المعانى التى وضعتها كل قبيلة بإزائه ، ومثال ذلك لفظة (الهجرس) التى تعنى الفرد عند أهل الحجاز ، وتعنى الثعلب عن التميميين ؛ ولفظة (الألْفَتّ) التى تعنى الأحمق فى لغة قيس ، وتعنى الأعسر فى لغة تميم[١] ؛ ويقرر ذلك أبو على الفارسى حيث يقول : « اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، ينبغى ألا يكون قصدا فى الوضع ولا أصلا ، ولكنه من لغات تداخلت »[٢] .

٢ - *التصريف* :

وذلك بأن يؤدى تطبيق قواعد التصريف وأحكامه إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان أو أكثر فى صيغة واحدة ، فينشأ عن ذلك تعدد فى معنى هذه الصيغة ، يؤدى إلى جعلها من قبيل المشترك ، وذلك نحو لفظة (وَجَدَ) حيث تجىء فعلا ماضيا من الوجدان بمعنى العلم بالشىء ، أوالعثور عليه ، فيقال : وجدت ضالتى إذا عثرت عليها . ووجدت زيدا كريما إذ علمته كذلك ؛ ومن الموجدة بمعنى الغضب ، فيقال : وجدت عليه إذا غضبت ؛ ومن الوجد بمعنى الحب الشديد ، فيقال : وجدت به وجدا إذا هوِيَهُ وتفانى فى حبه[٣] .

٣ - *الشيوع وكثرة الاستعمال* :

وذلك كأن تنقل لفظة من معناها الأصلى إلى معان مجازية أخرى ، لعلاقة مابين هذه المعانى ، ثم تشيع هذه اللفظة ، ويكثر استخدامها فى هذه

---

(١) فى فقه اللغة العربية : ١٩٩ .

(٢) المخصص : ١٣ / ٢٥٩ .

(٣) راجع : فقه اللغة : ١٩١ .

المعانى المجازية حتى تشتهر ، ولا يلاحظ فيها وجه المجاز ، بل يصبح إطلاقها عليها فى قوة استخدام الشىء فى حقيقته ؛ ومثال ذلك لفظة (الهلال) التى تطلق على هلال السماء ، وهلال الصيد[١] وهلال النصل[٢] ، وهلال الأصبع المحيط بالظفر ، والحية إذا سلخت ، والجمل الهزيل من كثرة الضراب ، وباقى الماء فى الحوض .

فمن الواضح أن اللفظ قد وضع - فى الأصل - للدلالة على المعنى الأول ، وهو هلال السماء ، وأن إطلاقه على ماعداه من المعانى ، إنما هو على سبيل المجاز ، لوضوح علاقة المشابهة بينها وبين هلال السماء ، فى صورته ، أو ضآلته ، ثم كثر استخدامه فى هذه المعانى المجازية ، حتى أصبح إطلاقه عليها فى قوة استخدامه فى المعنى الأصلى[٣] ، وفى هذا يقول أبو على الفارسى .

« أو أن تكون لفظة تستعمل لمعنى ، ثم تستعار لشىء ، فتكثر وتغلب ، ويعتبر بمنزلة الأصل »[٤] .

٤ - التطور الصوتى

فقد يطرأ على الأصوات الأصلية للحروف المكونة للفظ ، شىء من التغيير ، أو الحذف أو الزيادة ، وفقا لقانون التطور الصوتى للحروف ، مما ينشأ عنه أن يتحدد ذلك اللفظ مع لفظ آخر فى النطق به ، ولكنه يختلف معه فى مدلوله ومعناه ؛ من هذا تظهر معان مختلفة لألفاظ تشترك فى جرس واحد ، ونغمة واحدة ، بحيث يظن أنها لفظ واحد .

---

(١) هلال الصيد : آلة تشبه الهلال ، يعرقل بها حمار الوحش .

(٢) هلال النعل : ذؤابته المشبهة للهلال .

(٣) فقه اللغة : ١٩٠ .

(٤) المخصص : ١٣/ ٣٥٩ .

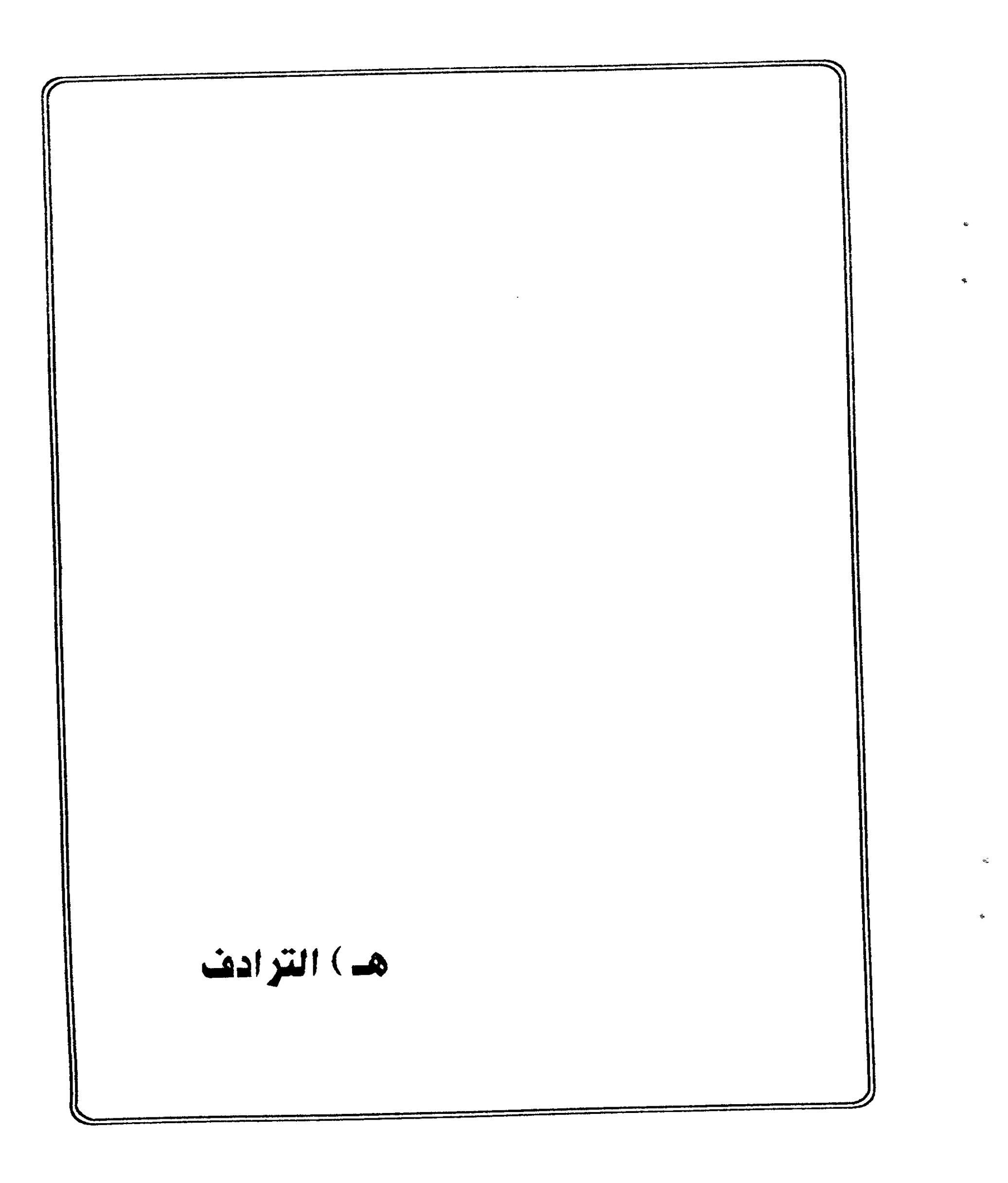
٥ - الإبهام والتعمية :

حيث قد يلجأ المتكلم إلى استخدام اللفظ فى معنى غير المعنى الأصلى المنوط به أداؤه ، بغرض إبهام الأمر على السامع ، إذا كان فى التصريح بالمعنى الحقيقى هلاك أو مفسدة ، وهذا مما أقره الإسلام باسم (سد الذرائع ودرء المفاسد) ، ومثال ذلك لفظة (السبيل) التى وردت فى قول الصديق أبى بكر - رضى الله عنه - حين سأله أحد الأعراب عن النبى - ﷺ - وهما فى طريقهما إلى الغار ، فقال الصديق : (رجل يهدينى السبيل)[١] . ولا ريب أنه كان يعنى بلفظة (السبيل) الإسلام والشريعة ، وليس السبيل بمعناه الحقيقى ، وهو الطريق الذى يسلكه .

مما تقدم يتضح بجلاء دور الأشتراك اللفظى فى إثراء اللغة العربية ، واتساع استخدامها وتنوع أساليبها ، ولاسيما لدى الشعراء والأدباء المشغوفين باستخدام المحسنات البديعية ، كالجناس ، والتورية ، والترصيع ، والمزاوجة ، بما يوفره لهم من الألفاظ الكثيرة التى تمثل لديهم اللبنات التى يشيدون منها صروح أشعارهم ، وبروج أساليبهم ، مما يوقفهم فى مصاف الشعراء والأدباء الموموقين المشهورين .

---

(١) انظر : المزهر : ١ / ٣٦٩ ، وفى فقه اللغة العربية : ١٩١ .



هـ) الترادف

هـ) الترادف

الترادف – لغة – : ركوب أحد خلف آخر .

واصطلاحها : توارد لفظين مفردين ، أو ألفاظ كذلك فى الدلالة على الانفراد ، بحسب أصل الوضع على معنى واحد ، وتلك الألفاظ تسمى مترادفة ، ويقابل الترادف التباين[1] .

وقد أورده السيوطى فى عبارة موجزة بقوله :

« هو الألفاظ المفردة الدالة على شىء واحد باعتبار واحد »[2] .

وتعد اللغة العربية أوسع اخواتها الساميات ثروة فى أصول الكلمات والمفردات ، فهى تشتمل على جميع الأصول التى تشتمل عليها اللغات السامية ، وتزيد عليها بأصول كثيرة ، احتفظت بها من اللسان السامى الأول ، ولا يوجد لها نظير فى أى من اللغات السامية ؛ هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات فى مختلف أنواع الكلم – الاسم ، والفعل والحرف – ومن المفردات – الأسماء، والأفعال والصفات – مالم يجتمع مثله فى لغة سامية أخرى ، بل مايندر وجوده فى لغة من لغات العالم[3] .

فقد اجتمع للسيف فى اللغة العربية نحو ألف أسم ، وللحية مائتا اسم، وللعسل ثمانون ، وللداهية أربعمائة ، وللحجر سبعون[4] ؛ وذكر المستشرق الفرنسى زينا ErnestRnan[5] ان العالم الفرنسى دوهامر De Hammer قد

(١) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى : ٣ / ٥٧٨ .

(٢) المزهر للسيوطى : ١/ ٤٥٢ .

(٣) فقه اللغة : ١٦٨ .

(٤) انظر المزهر : ١ / ٤٥٤ .

(٥) من أشهر المؤرخين الفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولد ببلدة تريجييه سنة ١٨٢٣ ميلادية ، تولى التدريس فى كثير من المعاهد ، كما عين عضوا بالأكاديمية الفرنسية صنف نحو خمسين مصنفا فى مختلف التخصصات أهمها : نشأة اللغة العربية ، وتاريخ اللغات السامية ، وتوفى بباريس سنة ١٨٩٠ ميلادية . (فقه اللغة : ٥٦) .

جمع المفردات العربية المتعلقة بالجمل وشئونه فوصلت إلى خمسة آلاف وستمائة وأربع وأربعين[١] ؛ هذا فضلا على مايطلق من أسماء على المطر ، والرياح والنور والظلام ، والناقه ، والماء ، والبئر و النحل ، إذ وصل فى بعضها إلى عشرين ، وفى بعض آخر إلى ثلاثمائة[٢] .

وكما اختلفت آراء العلماء وتباينت نظرات اللغويين حيال إقرار وجود المشترك اللفظى فى اللغة العربية . وإنكاره ، فقد كانت بالنسبة للترادف أشد وأنكى ، حيث انقسموا حيال ذلك إلى ثلاثة فرقاء ، بين مقر بوجوده ، ومنكر له ، ومتوسط بين الأمرين ، وذلك على النحو التالى :

أ) فريق يقر بوجود الترادف فى اللغة العربية ، ويستدل لوجوده بأن المعنيين لو اختلفا ، لما جاز أن يعبر بالشىء عن الشىء، لأنه لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى ، لما أمكن أن نعبر عن الريب ! فى قول الله - تعالى - ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾[٣] بالشك ، أما وقد عبرنا وقلنا : لاريب فيه : لاشك فيه ؛ فلو كان الريب غير الشك ، لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ ، فلما عبر عليم أن المعنى واحد[٤] .

ويمثل هذا الفريق : المبرد والأصمعى ، وابن خالويه[٥] ، والرمانى[٦] ،

---

(١) فقه اللغة : ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة البقرة : من الآية الثانية .

(٤) انظر : الصاحبى : ١١٥ .

(٥) أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه ، ولد بهمدان ثم رحل إلى بغداد ، قرأ على السيرافى ، ألف أكثر من عشرين كتابا منها : كتاب ليس ، والاشتقاق ، والجمل ، والقراءات ، والمقصور المدود ، والمذكر والمؤنث ، والألفات ، وإعراب ثلاثين سورة من الكتاب العزيز ، توفى بحلب سنة ٣٧٠ هجرية ، (وفيات الأعيان : ٢/ ١٧٨) .

(٦) أبو الحسن على بن عيسى على بن عيسى بن على بن عبد الملك ، ولد ببغداد سنة ٢٦٩ هجرية ، وأخذ النحو عن بن السراج ، وابن دريد وغيرهما ، ألف : الحدود فى النحو ، وشرح كتاب سيبويه ، والمسائل للأخفش ، والمدخل للمبرد ، توفى ببغداد سنة ٣٨٢ هجرية ، (وفيات الأعيان : ٢ / ٤٦١) .

وابن الأنباري ، والآمدى ، ومن التابعين : الفيروزابادي[١] ، ومن المحدثين : إبراهيم اليازجي ، حيث بلغ اعتدادهم بصحة ما ذهبوا إليه من الإقرار بثبوت الترادف في اللغة العربية ، أن ألفوا بكتبا رأسها فيما ثبت عن العرب الخلص منه ، فقد ألف المبرد كتابا سماه (ما اتفق لفظة واختلف معناه) ، وألف الأصعمى كتابا سماه (ما أختلفت ألفاظه واتفقت معانيه) ، وألف ابن خالويه كتابا فى أسماد الأسد خاصة سماه (أسماء الأسد) ، وألف الرومانى كتابا اسماه (الألفاظ المشتركة) ، وألف الفيروز ابادى كتابا سماه (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف) ، كما ألف كتابا فى أسماء العسل خاصة سماه (الأسلب فى أسماء العسل) ، وألف ابراهيم اليازجي كتابا سماه (تحفة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتواد) .

ويستدل هذا الفريق على وجود الترادف فى اللغة بنوعين من الأدلة :

أدلة عقلية .

وهى الأدلة التى توصل إليها علماء اللغة عن طريق استخدام العقل ، ثم دونوها فى مؤلفاتهم ومصنفاتهم ومنها :

١ - ما قاله سيبويه (ت ١٨٠ هـ) فى أول كتاب وصل إلينا فى علوم اللغة ، وذلك فى معرض تقسيماته للألفاظ ، حيث يقول :

« اعلم أن من كلام العرب اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين » ثم يشرع فى شرح هذا التقسيم بقوله :

---

(١) أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم بن عمر الشيرازى ، ولد فى كارزين من بلاد فارس سنة ٧٢٩ هجرية ، أخذ اللغة عن ابن الخباز وابن القيم وغيرهما ، ألف : بصائر ذوى التمييز ، والمقياس ، والروض المسلوف ، والجليس الأنيس ، والبلغة فى التراجم ، والقاموس المحيط ، توفى بالهند سنة ٨١٧ هجرية. (الضوء اللامع : ١٠ / ٨٦) .

« فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو : جلس ، وذهب ؛ واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو : ذهب ، وانطلق ؛ واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك : وجدت عليه من الموجدة ، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة، وأشباه هذا كثير »[1] .

٢ - ما قاله أبو العباس المبرد فى كتابه (ما اتفق لفظه واختلف معناه) ونقله عنه السيوطى فى (المزهر) : « من كلام العرب اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، ثم يشرح المبرد اختلاف اللفظين والمعنى الواحد بقوله :

« وأما اختلاف اللفظين والمعنى واحد فقولك : ظننت وحسبت ، وقعدت وجلست ، وذراع وساعد ، وأنف ومَرْسَن »[2] .

٣ - ما قاله قطرب (ت ٢٠٦ هـ) فى كتاب (الأضداد) ونقله عنه السيوطى فى (المزهر) :

« إنما أوقعت العرب اللفظين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم فى كلامهم ، كما زاحفوا فى أجزاء الشعر ، ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم ، وأن مذاهبه لاتضيق عليهم عند الإطالة والإطناب »[3] .

٤ - ماقاله ابن الأنبارى فى كتابه (الأضداد) :

« ... وأكثر كلامهم يأتى على ضربين آخرين : أحدهما أن يقع اللفظان المختلفان على المعنيين المختلفين كقولك : الرجل ، والمرأة ، والجمل ، والناقة ، واليوم ، والليلة ، وقام وقعد ، وتكلم ، وسكت ، وهذا هو الكثير الذى لايحاط به ، والضرب الآخر أن يقع اللفظان المختلفان على المعنى

---

(١) الكتاب : ١ / ٢٤ .

(٢) المزهر : ١ / ٢٨٨ .

(٣) المزهر : ١ / ٤٠٠ .

الواحد كقولك : البُرُّ والحنطة ، والعَيْر والحمار ، والذئب والسّيد ، وجلس وقعد ، وذهب ومضى »[١] .

٥ - ماذكره الآمدى فى كتابه (الإحكام فى أصول الأحكام) :

« ذهب شذوذ من الناس إلى أمتناع وقوع الترادف فى اللغة ، وصيرا منهم إلى أن الأصل عند تعدد الأسماء تعدد المسميات ، واختصاص كل اسم بمسمى غير مسمى الآخر .. وجوابه أن يقال : لا سبيل إلى إنكار الجواز العقلى ، فإنه لايمتنع عقلا أن يضع واحد لفظين على مسمى واحد ، ثم يتفق الكل عليه ، أو أن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين على مسمى ، وتضع الأخرى له اسما آخر ، من غير شعور كل قبيلة بوضع الأخرى ، ثم يشيع الوضعان بعد ذلك ؛ كيف وأن ذلك جائز بل واقع بالنظر إلى لغتين ضرورة ، فكان جائزا بالنظر إلى قبيلتين »[٢] .

أدلة نقلية :

وهى ما ورد من الألفاظ المترادفةفى القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وكلام العرب الخلص من شعر أو نثر ، نحو :

١ - لفظة (الجَدّ) التى تأتى بمعنى أبى الأب ، وأبى الأم ، وبمعنى العظمة ، والحظ ، والقطع ؛ والأول لامراء فيه ، ولا يحتاج إلى شاهد .

وأما الذى بمعنى العظمة ، فقد ورد فى القرآن الكريم قوله - سبحانه - : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً ولاَ وَلَداً ﴾[٣] ، أى : تعالت

---

(١) الأضداد لابن الأنبارى : ٦ - ٧ .

(٢) الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى : ١ / ٣٠ - ٣١ .

(٣) سورة الجن : من الآية ٣ .

عظمته ؛ وورد في حديث الدعاء قوله - ﷺ - : « تَبَارَكَ اسْمُكَ ، وَتَعَالَى جَدُّكَ »[١] ، أي علا جلالك وعظمتك[٢] .

وأما الذي بمعنى الحظ ، فقد ورد في المأثور من الدعاء (وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ) أي : من كان له حظ في الدنيا ، لم ينفعه ذلك منه في الآخرة ؛ وقيل : بمعنى الغنى ، والبخت ، والحظوة[٣] .

وأما الذي بمعنى القطع ، مصدر : جدوت الشيء ، أجده : أقطعه ، فهو مجدود ، وجديد ، أي : مقطوع ، فكقول الوليد بن يزيد :

أَبَى حُبِّي سُلَيْمَى أَنْ يَبِيدَا ... وَأَمْسَى حُبُّهَا خَلَقاً جَدِيدًا[٤]

٢ - ما ورد في القرآن من نحو :

(فضّل ، وآثر) كما في قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[٥] . وقوله - سبحانه - : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾[٦] .

(أرسل ، وبعث) كما في قول الله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[٧] . وقوله - عز من قائل - : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٨] .

(أقسم ، وحلف) كما في قول الله - تعالى - : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾[٩] ، وقوله - جل وعلا - : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾[١٠] .

---

(١) أنظر في الحديث : الجامع صغير للسيوطي
(٢) لسان العرب : ١ / ٥٦١ .
(٣) لسان العرب : ١ / ٥٦٠ .
(٤) معجم مقاييس اللغة : ١ / ٤٠٧ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٥٣ .
(٦) سورة يوسف : من الآية ٩١ .
(٧) سورة الأنبياء : من الآية ١٠٧ .
(٨) سورة الإسراء : من الآية ١٥ .
(٩) سورة النمل : من الآية ٣٨ .
(١٠) سورة التوبة : من الآية ٧٤ .

٣ - ما ورد فى الشعر العربى الموثق من نحو لفظتى (النأى ، والبعد) اللتين وردتا فى قول الشاعر :

أَلَا حَبَّـذَا هِنْـدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْـدُ   وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْىُ وَالْبُعْدُ[1]

إذ النأى والبعد اسمان مترادفان لشىء واحد .

٤ - ما روى من أن أبا هريرة ، لما قدم من (دوس) ، بعد أن سمع بالإسلام عام خيبر ، لقى النبى - ﷺ - وقد وقعت منه السكين فقال له النبى ﷺ: « ناولنى السكين » ، فتلفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، ولم يفهم المراد بلفظة (السكين) لأنها غريبة عليه وغير مستخدمة فى مجتمعة فكرر النبى - ﷺ - عليه القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك ، ثم قال: آلمدية تريد ؟ فقال له : نعم ، فقال أبو هريرة : أو تسمى السكين عندكم ؟ والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ[2] .

٥ - ما أورد الأصمعى فى كتابه (ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه) من قوله :

« حاضت المرأة ، وطمثت ، وعركت ، كل ذلك سواء ، ويقال للذى يرضع من كل صبى أو بهيمة - بلغة أهل الحجاز - : رَضَعَ يَرْضِع ، ويقول من دونهم : رَضَع يَرْضَع ، وملج يملج ملجاً ، ورغث يرغث .. وهذا كله فى معنى : رضع »[3] .

ويقول أيضا : « ويقال : قد اكتال الرجل فى جرابه ، ومزوده ، وسلفه ،

---

(١) البيت : من بحر الطويل . قاله الحطيئة .

(انظر فيه : ديوان الحطيئة : ١٩ ، وابن الشجرى : ٢ / ٣٦ ، وابن يعيش : ١ / ١٠ ، والهمع : ٢ / ٨٨ ، والدرر : ٢ / ١١٦) .

(٢) فى فقه اللغة العربية : ١٧٤ .

(٣) الترادف فى اللغة : ٣٧ (نقلا عن « ما اختلفت ألفاظه وأتفقت معانيه » : ورقة ١ - ٢) .

كل من أسماء الجراب ؛ ويقال : جعل فلان متاعه فى كُرْزِه ، «فى خرجه سواء»[١] .

كما ذكر من أسماء الخمر : المشعشعة ، والمدامة ، والإسْفِنْط ، والطلاء ، والبابلية ، والعانِيَة ، والشَّمول ، والصهباء ، والقهوة ، والخرطوم ، والسُّلاف ، والخِنْدَرِيس ، والشَّموس ، والجِرْيال ، والعُقار ، والقُرْقُف ، والحُمَيَّا[٢] .

٦ - ما أورده الرمانى فى كتابه (الألفاظ المترادفة) تحت عنوان : باب الطبيعة والسجية ، قوله : « يقال : إنه لكريم الطبيعة ، والسليقة ، والخليقة ، والنحيزة ، والغرِّيزة ، كل هذا واحد ؛ قال : والسُّرْجُوجَة ، وبعضهم يقول : السَّرْجِيجَة ، والسجية مثل ذلك »[٣] .

٧ - ما أورده أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) فى كتابه (الغريب المصنف) تحت عنوان : كتاب الأسماء المختلفة للشيء الواحد ، الذى ذكر فيه كثيرا من الألفاظ المختلفة الدالة على معنى واحد ، وذكر من بينها عدة أسماء للعطية نحو : الشَّكْمُ ، والشَّكْدُ ، والجَزْحُ ، والصفد ، والفرض ، والرفد ، واللهوة ، والنوفل[٤] .

ب) وذهب فريق آخر إلى إنكار وجود الترادف فى اللغة العربية ، بزعم أن كل مايظن أنه من المترادف ، إنما هو من المتباينات ، وذلك من قبيل أن ليس للشيء إلا اسم واحد يدل عليه ، ومايطلق عليه من أسماء آخر إنما هو صفات له ، وقد عبر عن رأى هذا الفريق تاج الدين السبكى بقوله :

---

(١) المصدر السابق : ٣٨ .

(٢) البلغة فى شذوذ اللغة (كتاب النخل والكرم للأصمعى) : ٦٤ - ٦٥ .

(٣) الألفاظ المترادفة : ٨ .

(٤) الترادف فى اللغة : ٣٨ (نقلا عن الغريب المصنف) .

« وذهب بعض الناس إلى إنكار المترادف فى اللغة العربية ، وزعم أن كل مايظن أنه من المترادفات فهو من المتباينات التى تتباين بالصفات ، كما فى (الإنسان) و (البشر) ، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنه يؤنس ، والثانى باعتبار أنه بادى البشرة وكذا (الخندريس) و (العقار) ، فإن الأول باعتبار العتق ، والثانى باعتبار عقر الدن لشدتها ؛ وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب[1] .

ويمثل فريق المنكرين : ابن الأعرابى[2] ، وتلميذه أحمد بن يحيى ثعلب[3] ، وتلميذه ابن فارس القزوينى ، وأبو على الفارسى ، وأبو هلال العسكرى .

* حيث يقول ابن الأعرابى : « كل حرفين أو قعتهما العرب على معنى واحد ، فى كل واحد منها معنى ليس فى صاحبه ، ربما عرفناه فأخبرنا به ، وربما عمض علينا فلم نلزم العرب جهله »[4] .

ويقول أيضاً : « الأسماء كلها لعلة ، خصت العرب ما خصت منها ؛ من العلل ما نعلمه ، ومنها ما نجهله »[5] .

ثم يعقب ابن الأنبارى - وهو من المقرين بوجود الترادف فى اللغة - على كلام ابن الأعرابى بقوله :

« يذهب ابن الأعرابى إلى أن مكة سميت مكة لجذب الناس إليها ، والبصرة سميت البصرة للحجارة البيض الرخوة بها ، والكوفة سميت الكوفة

---

(١) المزهر : ١ / ٤٠٢ (نقلا عن شرح المنهاج للسبكى) .

(٢) أنظر ترجمته ص : ١٨٦ .

(٣) أحمد بن يحيى ثعلب ، ولد ببغداد سنة٢٠٢ هجرية ، إمام الكوفيين فى اللغة والنحو ، ألف : الفصيح ، وقواعد الشعر ، وما تلحن فيه العامة ، وإعراب القرآن ، توفى ببغداد سنة ٢٩١ هجرية (بغية الوعاة : ١ / ٣٩٧) .

(٤) المزهر : ١ / ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٥) المصدر السابق .

لازدحام الناس فيها ، من قولهم : تكوف الرمل تكوفا ، إذا ركب بعضه بعضا؛ والإنسان سمى إنساناً لنسيانه ، والبهيمة سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز ؛ من قولهم : أمر مبهم إذا كان لايعرف بابه ، ويقال للشجاع : بهيمة ، لأن مُقَاتِلَه لايدرى من أى وجه يوقع الحيلة عليه » .

فإن قال قائل لنا : لأى علة سمى الرجل رجلا ، والمرأة امرأة ، والموصل الموصل ، ودَعْدٌ دَعْدًا ؟ قلنا : لعلل علمتها العرب ، وجهلناها أو بعضها ، فلم تزل عن العرب حكمة العلم بما لحقنا من غموض العلة ، وصعوبة الاستخراج علينا »[١] .

ثم يقول : « وكلام ابن الأعرابى هذا ، هو الذى نذهب إليه ، للحجة التى دللنا عليها ، والبرهان الذى أقمناه فيه »[٢] .

* ثم يتابع أحمد بن يحى ثعلب أستاذه ابن الأعرابى فى إنكاره للترادف ، فيزعم « أن كل مايظن أنه من المترادفات فهو من المتباينات التى تتباين بالصفات ، كما فى (الإنسان) و (البشر) ، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنه يؤنس ؛ والثانى باعتبار أنه بادى البشرة ، وكذا (الخندريس) و (العقار) فإن الأول باعتبار العتق ، والثانى باعتبار عقر الدن لشدتها[٣] . وهذا الزعم هو ما عبر عنه تاج الدين السبكى فى كتابه (شرح منهاج الوصول) عند عرضه لوجهه نظر منكرى الترادف[٤] .

* ثم ينتهج ابن فارس القزوينى نهج أستاذه ثعلب فى إنكاره للترادف حيث يقول :

---

(١) الأضداد لابن الأنبارى : ٧ – ٨ .
(٢) المصدر السابق : ٨ .
(٣) المزهر : ١ / ٤٠٣ .
(٤) راجع ص ٢٠١ .

« ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو : السيف ، والمهند والحسام : والذى نقوله فى هذا أن الإسم واحد هو (السيف) ، وما بعده من الألقاب صفات ؛ مذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى ؛ وقد خالف فى ذلك قوم ، فزعموا أنها -وإن اختلفت ألفاظها - فإنها ترجع إلى معنى واحد ، وذلك قولنا : سيف ، وعضب ، وحسام ؛ وقال آخرون : ليس فيها اسم ولا صفة إلا ومعناها غير معنى الأخرى ، قالوا : وكذلك الأفعال نحو : مضى وذهب ، وانطلق وقعد وجلس ، ورقد ونام وهجع ، قالوا : ففى (قعد) معنى ليس فى (جلس) ، وكذلك القول فيما سواه ، وبهذا نقول ، وهو مذهب شيخنا أبى العباس احمد بن يحيى ثعلب »[1] .

ثم يقول : وإذا اعترض علينا أصحاب الترادف بأن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يعبر بالشيء عن الشيء ، فيكون التعبير عن معنى (البعد) بالنأى خطأ فى قول الشاعر : .

أَلَا حَبَّذَا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْـدُ   وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْىُ وَالبُعْدُ

فإنا نقول أن ما عبر به عنه من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول أن اللفظين مختلفان ، فيلزمنا ماقالو إنما نقول : إن فى كل واحدة منها معنى ليس فى الأخرى »[2] .

* أما أبو على الفارسى فيروى قصة له مع ابن خالويه بقوله .

« كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، فيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسما » . ثم يكمل السيوطى القصة بقوله : « فتبسم أبو على وقال : ما أحفظ له إلا اسما واحدا وهو (السيف) ، فقال ابن خالويه : فأين المهند ، والصارم ، وكذا ،

---

(١) الصاحبى : ٩٦ - ٩٧ .

(٢) المصدر السابق : ١١٦ .

وكذا ؟! فقال أبو على : هذه صفات ، وكأن الشيخ لايفرق بين الاسم والصفة »[١] .

* ويتابع ابن درستويه حملة الإنكار بوجود الترادف فى اللغة العربية حيث يقول :

« ولايكون (فَعَل) و (أَفْعَل) بمعنى واحد ، كما لم يكونا على بناء واحد ، إلا أن يجيء ذلك فى لغتين مختلفتين ، فأما من لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد ، كما يظن كثير من النحويين واللغويين ، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها ، وما فى نفسها من معانيها المختلفة ، وعلى ماجرت به عاداتها وتعارفها ، ولم يعرف السامعون تلك العلة فيه والفروق ، فظنوا أنهما بمعنى واحد ، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم ؛ فإن كانوا قد صدقوا فى رواية ذلك عن العرب ، فقد أخطأوا عليهم فى تأولهم مالا يجوز فى الحكمة ، وليس يجيء شيء من هذا الباب إلا على لغتين متباينتين كما بينا ، أو يكون على معنيين مختلفين ، أو تشبيه شيء بشيء »[٢] .

ثم يعلل ابن درستويه لإنكاره لظواهر الاشتراك اللفظى ، والترادف ، والتضاد ، وتعاقب حروف الجر ، بأن فى وجود هذه الظواهر فى اللغة إنما إبطال لحقيقتها ، وإفساد الحكمة فيها ، وأن القول بها هو بخلاف ما يوجبه العقل والقياس ، حيث يرى أن اللغة موضوعة للإبانة عن المعانى ، ولو جاز وقوع هذه الظواهر فى الألفاظ ، لما كان فى ذلك إبانة ، بل كان تعمية وتغطية ، وليس إدخال الالباس فى كلام من الحكمة والصواب ، وواضع اللغة - عز وجل - حكيم عليم »[٣] .

---

(١) المزهر : ١ / ٤٠٥ .

(٢) الترادف فى اللغة : ٢٠٠ (نقلا عن تصحيح الفصيح لابن درستوية) .

(٣) المصدر السابق : ٢٠٠ - ٢٠١ .

* وقد أقتفى أبو هلال العسكرى[1] أثر ابن درستوية فى إنكاره لظواهر الإشتراك اللفظى ، والترادف ، والتضاد ، وتعاقب حروف الجر ، بدعوى أن جواز ذلك يوقع الإشكال والإلباس على المخاطب ، وليس من الحكمة وضع الأدلة المشكلة ، كما ألف العسكرى كتابا سماه (الفروق اللغوية) عنى فيه بذكر الفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة ،والمشتركة ، والمتضادة ،وقدم له بمقدمة يقول فيها :

« الشاهد على أن أختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعانى ، أن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة ، وإذا أشير إلى الشىء مرة واحدة فعرف ، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة . وواضع اللغة حكيم ، لايأتى بما لايفيد ، فإن أشير منه فى الثانى والثالث إلى خلاف ما أشير إليه فى الأول كان ذلك صوابا ، فهذا يدل على أن كل أسمين يجريان على معنى من المعانى وعين من الأعيان فى لغة واحدة ، فإن كل واحد منهما يقتضى خلاف مايقتضيه الآخر ، وإلا لكان الثانى فضلا لايحتاج إليه »[2] .

* كما يصرح الراغب الأصفهانى[3] فى خاتمة مقدمته لكتابه (المفردات فى غريب القرآن) ، بإنكاره لوجود الترادف فى اللغة العربية بقوله :

« أتبع هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى ، ونسأ فى الأجل - بكتاب ينبىء عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، وما بينها من الفروق الغامضة ، فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته ، نحو ذكره القلب مرة ، والفؤاد مرة ، والصدر مرة ، ونحو

---

(١) أبو هلال العسكرى : هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ، ولد فى عسكر مكرم من كور الأهواز ، انتقل إلى بغداد والبصرة ، ألف : جمهرة الأمثال ، والصناعتين ، وديوان المعانى ، والأوائل ، والفروق اللغوية ، توفى سنة ٣٩٥ هجرية . (بغية الوعاة : ١ / ٥٠٦) .

(٢) الفروق اللغوية : ١٠ - ١١ .

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهانى ، توفى سنة ٥٠٢ هجرية .

ذكره - تعالى - فى عقب قصة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفى أخرى ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وفى أخرى ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وفى أخرى ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ وفى أخرى ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ وفى أخرى ﴿ لِذِي حِجْرٍ ﴾ وفى أخرى ﴿ لِأُولِي النُّهَى ﴾ ونحو ذلك مما يعده من لا يحق الحق ويبطل الباطل أنه باب واحد ، فيقدر أنه إذا فسر ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ بقوله : الشكر لله ، و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بلا شك فيه ، فقد فسر القرآن ووفاه البيان »[1] .

جـ) وتوسط فريق ثالث ، فذهب إلى إقرار وجود الترادف فى اللغة العربية ، ولكن ينكر وقوعه فى لهجة واحدة ، حيث يرى أن كل لفظ من الألفاظ المترادفة ينسب إلى لهجة غير التى ينسب إليها مرادفه ، كأن تطلق قبيلة من القبائل لفظا من الألفاظ على معنى من المعانى ، ثم تضع قبيلة أخرى لفظاً آخر للمعنى نفسه ، ثم يشتهر اللفظان فى إفادة ذلك المعنى ؛ ويمثل هذا الفريق المتوسط : أبو الفتح ابن جنى وحمزة الأصفهانى .

ويستدل هذا الفريق لصحة ما ذهب إليه بما أورده ابن فارس القزوينى فى كتابه (الصاحبى) من أن رجلا من بنى كلاب ، أو من بنى عامر بن صعصعة ، يدعى زيد بن عبد الله من درام ، خرج إلى (ذى جدن) من ملوك اليمن ، فأطلع إليه فوق سطح ؛ فلما مثل بين يدى الملك ، قال له : ثِبْ ، فقال الرجل : ليعلم الملك أننى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح فرق عنقه ، فقال الملك : ما شأنه ؟! فقيل له : أبيت اللعن ، إن الوثوب - فى لسان نزار - : الطمر ، أى : الوثوب إلى أسفل ، فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم، من دخل ظفارحمر ، أى : من دخل أرض ظفار فليتكلم بلهجة حمير[2] ، وكان الملك يريد بقوله (ثِبْ) : أقعد ، وهذا معناه فى بعض جهات اليمن .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن : ٦.

(٢) الصاحبى : ٣١ .

* وقد أورد ابن جنى فى (الخصائص) عن الأصمعى أنه قال :

« أختلف رجلان فى (الصقر) ، فقال أحدهما : هو (الصقر) بالصاد ، وقال الآخر : بل هو (السقر) بالسين ؛ فتراضيا بأول قادم عليهما ، فحكيا له ماهما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما ، إنما هو (الزقر) بالزاى ؛ أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة ، كيف أفاد - فى هذا الحال - إلى لغته لغتين آخريين معهما ؟! »[١] .

ويقول ابن جنى فى هذا الصدد :

« وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد ، كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا ومن هناك »[٢] .

* ويقول حمزة الأصفهانى - فيما يرويه عنه السيوطى فى (المزهر) :

« وينبغى أن يحمل كلام من منع الترادف ، على منعه فى لغة واحدة ، فأما فى لغتين فلا ينكره عاقل »[٣] .

* ويلفت الدكتور ناجح عبد الحافظ[٤] النظر إلى ما هو موجود الآن فى اللهجات العربية الحديثة ، مما يؤيد ماذهب إليه هذا الفريق المتوسط بقوله :

« فمثلا ما يسمى (فَكَّةٌ) فى مصر ، يسمى فى لبنان (فَرَافِير) ، ويسمى فى سوريا والأردن (فُرَاطَة) ، ويسمى فى العراق (خُرْدَة) ويسمى فى ليبيا (رُقَاقة) ، ويسمى فى السعودية (صِرَافَة) أو (تَفَارِيق) .

---

(١) الخصائص : ١ / ٣٧٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المزهر : ١ / ٤٠٥ .

(٤) الدكتور ناجح عبد الحافظ مبروك ، استاذ مساعد ، ورئيس قسم أصول اللغة فى كلية اللغة العربية جامعة أسيوط ، ألف : فى فقه اللغة العربية ، ودراسات فى المعجمات العربية ، ومن تراثنا اللغوى .

وما يسمى (البطيخ) فى مصر ، يسمى فى العراق (الرقى) ، ويسمى فى ليبيا (الدِّلاَّع) ، ويسمى فى السعودية (الحَبْحَب) وغير ذلك من الأسماء الكثيرة التى تطلق ويقصد بها شيئا واحدا »[1] .

اسباب وجود الترادف فى اللغة العربية :

لقدد حدد علماء اللغة الأسباب الحقيقة لكثرة المترادفات فى اللغة العربية فيما يلى :

١) التطور اللغوى :

وهو مايعبر عنه غالبية اللغويين المحدثين باسم (التطور الدلالى للألفاظ) باعتبار أن علوم اللغة جميعا تتضافر لكى تكون فى خدمة الدلالة المنوطة باللفظ فى دقة تامة ، ودون تزيد أو انتقاص ، إذ أن دلالة اللفظ على المعنى المراد هو الغرض الأسنى والهدف الأسمى من التطور المستمر والدائب الذى يلحق علوم اللغة على مر العصور.

ويتمثل هذا التطور الدلالى فى مظاهر متنوعة ، كأن تكون دلالة اللفظ عامة ثم تتخصص ، أو تكون خاصة ثم تتعمم ، أو تكون حقيقية ثم تصبح مجازا ، أو العكس ؛ ثم يتدخل عنصر آخر لا يمكن إغفاله ، أو التغاضى عنه ، فى سبيل تمكين هذا التطور فى الدلالة وتثبيته وهو : كثرة استخدام الناس لهذا اللفظ الجديد الذى تولد عن هذا التطور ، مما أكسبه الشيوع والانتشار ، مما يؤدى فى النهاية إلى وجود لفظين أو أكثر يدلان على معنى واحد ، مما يطلق عليه اللغويون اسم (الألفاظ المترادفة) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن غالبية هذا التطور فى الدلالة تقع على الألفاظ المتقاربة فى المعنى ، لأنها تكون عرضة لاحتمالات التطور الدلالى

---

(١) فى فقه اللغة العربية : ١٨٠ .

أكثر من غيرها ، ومن ثم تئول إلى معنى واحد ، لما يربط بينها من صلة القرابة فى المعنى ، وذلك بفعل كثرة الاستعمال ، وإليك بعض الأمثلة لكل ظاهرة من ظواهر التطور اللغوى ، أو التطور الدلالى :

١ - **تعميم الخاص** : وذلك بأن يكون اللفظ مختصا بالدلالة على شىء بعينه دون سواه ، ثم يحدث له من التطور فى الاستعمال ما يجعله دالا على عدة أشياء متقاربة أو متجاورة على جهة التوسع والعموم ، وذلك نحو :

* لفظ (الورد) . إذ دلالته الأصلية هى : إتيان الماء خاصة ، ثم عممت دلالته ، وصار يقال لإتيان كل شىء : وردا ؛ وقد جاء اللفظ فى القرآن الكريم مراعى فيه دلالته العامة فى قول الله تعالى : - عن فرعون - ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾(١) وفى قوله - سبحانه - : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢) ، كما ورد اللفظ نفسه فى الحديث النبوى الشريف بدلالته العامة أيضا فى قوله - ﷺ - : « مَنْ فَاتَهُ مِنْ وِرْدِهِ شَيْءٌ فَقَرَأَهُ بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ إِلَى الظُّهْرِ فَكَأَنَّمَا قَرَأَهُ فِي لَيْلَتِهِ »(٣) . والمقصود بالورد فى الحديث الشريف هو ما يأتيه المسلم من قراءة القرآن الكريم ونحوه .

* لفظ (الاستحمام) . إذ دلالته الأصلية : الاغتسال بالحميم ، أى الماء الحار ، حيث صيغة (استفعل) من الحموم تعنى طلب الحميم ثم عممت دلالته وتوسعت حتى شملت كل اغتسال بأى ماء ، سواء أكان حارا أم باردا ؛ وفى هذا يقول الجوهرى : « والحميم : الماء الحار ، والحميمة مثله ، وقد استحممت إذا اغتسلت به ، هذا هو الأصل ، ثم

---

(١) سورة هود : من الآية ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء : من الآية ٩٩ .

(٣) أنظر فى الحديث : الجامع الصغير للسيوطى .

صار كل اغتسال استحماما بأى ماء كان »[١] .

* لفظ (الخَارِبُ) . إذ دلالته الأصلية : سارق الإبل خاصة ، ثم عممت دلالته حتى أصبح يطلق عى كل من سرق بعيرا أو غيره ، وفى هذا يقول ابن منظور : « والخارب : سارق الإبل خاصة ، ثم نقل إلى غيرها اتساعا .. والخارب : اللص ، ولم يخصص به سارق الإبل ولا غيرها .. يقال : خرب فلان : أى صار لصا »[٢] .

٢ - **تخصيص العام** : وذلك بأن تكون دلالة اللفظ عامة ، بحيث تنصرف إلى عدة مسميات متقاربة أو متجاورة ، دون الاختصاص بمسمى واحد دون غيره ، ثم تتخصص هذه الدلالة ، بحيث تنصرف إلى مسمى واحد لاغير ، وهذا مايطلق عليه بعض اللغويين اسم (تخصيص الدلالة) أو (تضييق المعنى) ، وإليك أمثلة لهذا النوع من التطور فى الدلالة .

* لفظ (المثقال) ، ودلالته الأصلية : زنة الشىء ، وكل وزن ، يسمى مثقالا ، وليس مقصورا على وزن معين ، ثم تخصصت هذه الدلالة ، وأصبح « المثقال » مقصورا على الدينار فحسب دون غيره من الموزونات ، وبذا أصبح لفظ المثقال والدينار مترادفين على مسمى واحد هو الدينار وحده[٣] .

* لفظ (اليَقْطِين) . ودلالته الأصلية : كل شجر ينبسط على الأرض ، ولايقوم على ساق كالقرع والقثاء والبطيخ ونحو ذلك[٤] ، ثم تخصصت هذه الدلالة ، وأصبحت تعنى القرع وحده دون غيره من النباتات وبذا أصبحت الكلمتان (اليقطين والقرع) لفظين مترادفين يدلان على معنى واحد .

---

(١) الصحاح : ٥ / ١٩٠٥ .

(٢) لسان العرب : ٢ / ٤٥٨ .

(٣) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ١٩٦ .

(٤) لسان العرب : ٢ / ٤٥٨ .

* لفظ (الريحان) . ودلالته الأصلية : كل نبت طيب الريح كالورد والنعنع والتمام[1] ، ثم تخصصت هذه الدلالة ، وأصبحت تعنى (الآس) دون سائر الرياحين ، وبذا أصبحت الكلمتان (الريحان والآس) لفظين مترادفين يدلان على مسمى واحد .

هذا فضلا عن الألفاظ الكثيرة التى كانت ذات دلالات عامة ، ثم جاء الإسلام فخصص هذه الدلالات ، وقصرها على مسميات دقيقة متفردة ، لايشركها فيها غيرها نحو :

* (الصلاة) ومعناها الأصلى : الدعاء أيا كان نوعه ، ثم تخصصت دلالتها وأصبحت تعنى العبادة المعروفة دون غيرها .

* (الزكاة) ومعناها الأصلى: الزيادة فى كل شىء ، ثم تخصصت دلالتها ، وأصبحت تعنى العبادة المعروفة دون غيرها .

* (الحج) ومعناها الأصلى : القصد والتوجه إلى أى مكان ، ثم تخصصت دلالتها ، وأصبحت تعنى زيارة الأراضى المقدسة ، وتأدية مناسك معينة .

٣ - **صيرورة الدلالة المادية معنوية** : وذلك أن يدل اللفظ - فى أصل وضعه - على مسمى مادى ، ثم يأتى الاستعمال فيستعير ذلك اللفظ ليستخدمه فى الدلالة على مسمى معنوى ، له لفظ منوط بالدلالة عليه أصلا ، وبذلك يصبح لهذا المسمى لفظان مترادفتان يدلان عليه ، أحدهما اللفظ الموضوع له أصلا ، والثانى اللفظ المستعار من الدلالة المادية ، وذلك نحو :

* لفظ (المَجْد) ، ودلالته الأصلية: امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم استعير فى الاستعمال لامتلاء الرجل كرما ، حيث يقال : مجد فلان

---

(١) لسان العرب : ٢ / ٤٥٨ .

فهو ماجد ، إذا امتلأ كرما[1] وبذلك انتقل لفظ (المجد) من دلالته المادية إلى دلالة معنوية ، حيث أصبح من أسماء الكريم .

* لفظ (الأفَن) ، ودلالته الأصلية : قلة لبن الناقة، ثم استعير اللفظ من دلالته المادية هذه ليستعمل فى دلالة معنوية هى : قلةعقل الرجل ، حيث يقال : أَفَنَ الرجل فهو أفِين ومأفون[2] ؛ وبهذا أصبح اللفظ من أسماء الأحمق .

ب) المجاز

الكلام ضربان : حقيقة ، ومجاز :

فالحقيقة يعرفها ابن جنى بقوله : « ما أقر فى الاستعمال على أصل وضعه فى اللغة »[3] .

ويعرفها ابن فارس بقوله : « فالحقيقة : الكلام الموضوع موضعه الذى ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير »[2] .

أما المجاز فلم يسق له ابن جنى تعريفا ، وإنما اكتفى - بعد أن عرف الحقيقة - بقوله : « والمجاز ما كان بضد ذلك » ، وكذا ابن فارس حيث ذهب إلى ذكر اشتقاق لفظة (مجاز) وأخذ فى بيان طرقه ، وضرب الأمثلة له .

أما السكاكى[4] فكان أكثر دقة فى تعريف الحقيقة والمجاز كليهما حيث يقول :

« فالحقيقة هى الكلمة المستعملة فيما هى موضوعة له من غير تأويل فى الوضع ، كاستعمال (الأسد) فى الهيكل المخصوص ، فلفظ (الأسد)

---

(١) الجمهرة فى اللغة: ٣ / ٤٣٣ .

(٢) المزهر : ١ / ٤٣١ .

(٣) الخصائص : ٢ / ٤٤٢ .

(٤) أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر بن محمد بن على السكاكى ، توفى سنة ٦٢٦ هجرية .

موضوع له بالتحقيق ، ولا تأويل فيه .. وأما المجاز فهو الكلمة المستعملة فى غير ماهى موضوعة له بالتحقيق ، استعمالا فى الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها فى ذلك النوع »[١] .

وغالبا مايعبر عن كثير من المسميات فى اللغة بأسماء مختلفة على سبيل المجاز ، وذلك لأسباب اجتماعية كثيرة ، كالعادات والتقاليد ، والآداب ، ولاعتبارات نفسية متنوعة كالتشاؤم ، والتفاؤل ، والحياء ، والخوف ، والحب ، وغير ذلك من العوامل والدوافع التى تدفع الناس إلى تسمية الشىء تسمية مجازية بدلا من التعبير عنه باسمه الحقيقى صراحة ؛ وقد تكون الخرافة من تلك الأسباب ، خاصة فى تلك المجتمعات التى يسودها الاعتقاد بأن ذكر الشىء باسمه الصريح يؤدى إلى حضوره ، فيتحاشى الناس التلفظ بالكلمات الدالة على أشياء مخيفة ، مستعيضين عنها بالكنايات[٢] .

ومهما يكن السبب الذى يكمن خلف التسمية المجازية والظرف اللغوى الذى استخدمت فيه أول مرة ، ومهما تكن الأسباب والاعتبارات المتباينة التى أوحت إلى الناس أن يسموا الشىء بأسماء مختلفة ، ويطلقوا عليه العديد من الألفاظ على سبيل المجاز، فإنه بمرور الوقت يخلق الكثير من الأسماء المختلفة للشىء الواحد ، إذ أن هذه الأسماء المجازية - لطول العهد بها ، ولكثرة استعمالها وشيوعها - تنسى فيها الناحية المجازية ، ثم تصبح دالة على المسمى دلالة حقيقية لا مجازية ، بل إن دلالتها عليها تصبح أقرب إلى الذهن من دلالتها الأصلية ، لشيوع المعنى الجديد ، وانتشاره بعد طول العهد بهذا الاستعمال[٣] .

---

(١) مفتاح العلوم : ١٦٩ / ١٧٠ .
(٢) الترادف فى اللغة : ١٠٤ / ١٠٥ .
(٣) المصدر السابق : ١٠٦ .

ولقد عقد ابن جنى فى « الخصائص » بابا سماه (باب فى أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة)[١] ، ويقول السيوطى : « إن الحقيقة قد تعتبر مجازا ، وبالعكس ؛ فالحقيقة متى قل استعمالها صارت مجازا عرفا ، والمجاز متى كثر استعماله صار حقيقة عرفا »[٢] ، ويقول الدكتور إبراهيم أنيس :

« وحين تمر الأيام على تلك المجازات ، ويكثر استعمالها ، لا تلبث أن تنسى الناحية المجازية فيها ، وتصبح معانيها حقيقية »[٣] ، ويقول الدكتور محمد المبارك :

« إن استعمال اللفظ بالمعنى الجديد يكون فى بادىء الأمر عن طريق المجاز ، ولكنه بعد كثرة الاستعمال وشيوعه بين الناس ، تذهب عنه هذه الصفة ، وتصبح دلالته على مدلوله الجديد دلالة حقيقية لا مجازية »[٤] .

وبعد كل هذا ، نجد أمامنا - فى آخر الأمر - العديد من الأسماء المترادفة للمسمى الواحد ، مما يقوم دليلا على أن المجاز سبب هام وأصيل من أسباب وجود الترادف فى اللغة ، وذلك نحو :

* **لفظ (الوَغَى)** : إذ معناه الأصلى : اختلاط الأصوات فى الحرب ، ثم كثرا استعماله حتى أصبح يطلق على الحرب نفسها ، ولا علة لذلك سوى العلاقة التى تربط بين المعنيين وهى السببية ، حيث إن الحرب مسببة لاختلاط الأصوات .
* **لفظ (الآلْب)** : ومعناه الأصلى: الحوم حول الماء دون القدرة على الوصل إليه ، ثم شاع وكثرا استعماله ، حتى أصبح يطلق

(١) الخصائص : ٢ / ٤٤٧ .

(٢) المزهر : ١ / ٣٦٧- ٣٦٨ .

(٣) فى اللهجات العربية : ١٨١/ ١٨٢ .

(٤) فقه اللغة وخصائص العربية : ٢٢١ .

على العطش نفسه ، فيقال : الألب العطش[1] ، والرابط بين المعنيين هو علاقة السببية أيضا ، وذلك أن سبب الحوم حول الماء هو العطش .

* لفظ (الرَّاوِيَة) : ومعناه الأصلى : البغير الذى يستقى عليه ، ثم شاع وكثر استعماله حتى أصبح يطلق على (المرادة)[2] ، فيقال : الرواية : المزادة[3] ، وعلة ذلك مايربط بين البغير النهى يستقى عليه الماء ، والمزادة التى يستقى فيها الماء من علاقة المجاورة .

* لفظ (الحِشْمَة) : ومعناه الأصلي الغضب ثم شاع وكثر استعماله حتى أصبح يطلق على (الحياء) فيقال الحشمة : الغضب ، والحشمة : الحياء ؛ وعلة ذلك ما يربط بين الغضب والحياء من علاقة المشابهة ، ويوضح ذلك قول الجواليقى فى شرحه لأدب الكاتب لابن السكيت :

« الحشمة فى اللغة لها موضعان : أحدهما الغضب ، والآخر الحياء؛ وقيل للمبرد : الحشمة الغضب والحشمة الحياء ، وما معنى ذلك ؟ فقال : الغضب والحياء كلاهما نقصان يلحق النفس ، فكان مخرجهما واحد »[4] .

* لفظ (الجُحْر) : ومعناه الأصلى : ما تحتفره فى الأرض الدواب ، ما لم يكن من عظام الخلق ، نحو جحر اليربوع والثعلب والأرنب وشبه ذلك[5] ، ثم شاع وكثر استعماله اسما للإست ، ولا علة

(١) اللسان : ١ / ٢١٦ .

(٢) المزادة : الوعاء الذى يكون فيه الماء ليتزود به الركب .

(٣) لسان العرب : ١٤ / ٣٤٦ – ٣٤٧ .

(٤) شرح أدب الكاتب للجواليقى : ١٢٣ .

(٥) المصدر السابق

لذلك سوى ما يربط بين الجحر والإست من علاقة المشابهة ؛ وذهب الراغب الأصفهانى إلى عده من باب الكناية حيث يقول : « دبر الشىء خلاف القبل ، وكنى بهما عن العضوين المخصوصين»[١] .

* لفظ (الدُّبُر) : ومعناه الأصلى : خلاف القبل وهو الوراء ، ثم شاع وكثر استعماله اسما للإست خاصة ، وعلة ذلك مايربط بين الدبر والإست من علاقة المحلية ، أو المكانية حتى قالوا : الدبر : الإست ، وفى ذلك يقول الجواليقى : « ومن ذلك الدبر ، تذهب العامة إلى أنه الإست خاصة ، وليس كذلك ، دبر كل شىء خلاف قبله »[٢] .

ناهيك عن الأسماء الكثيرة التى تطلق على الداهية ، وكلها على جهة المجاز ، إما بالعلاقة المشابهة ، أو المجاورة ، أو السببية ، أو غير ذلك ، والتى بلغت عند حمزة الأصفهانى مايربو على أربعمائة اسم ، حتى علق على هذه الكثرة بقوله : « إن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى »[٣] .

جـ) اختلاف اللهجات :

فقد تقدم أن كل قبيلة كانت تضع اللفظ على المعنى المعين ، وفقا للهجة التى تتخذ منها القبيلة لغة لها ، فتتعدد الألفاظ على ذلك المعنى بتعدد القبائل الواضعة لها ، ونتيجة لاحتكاك لهجة قريش بلهجات القبائل الأخرى فى مواسم لقاءاتها كالحج ، والأسواق ، ورحلات التجارة ، تنتقل هذه الألفاظ إلى لهجة قريش ، المتنقاه التى اعتبرت- فيما بعد - لغة الأدب ، أو اللغة

---

(١) المفردات فى غريب القرآن : ١٦٤ .

(٢) الترادف فى اللغة : ٨٩ .

(٣) الترادف فى اللغة : ١٢٣ .

الفصحى ، حتى أصبحت الحالة التى أنتهت إليها اللهجة القرشية أشبه شىء ببحيرة أمتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة[١] .

ويؤيد هذا قول ابن جنى فى (الخصائص) : « وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد ، كان ذلك أولى بان يكون لغات لجماعات أجتمعت لإنسان واحدمن هنا وهناك »[٢] ، وإلى هذا يشير ابن فارس القزوينى فى كتابه (الصاحبى) حيث يقول :

« فكانت وفود العرب – من حجاجها وغيرها – يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش – مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها – فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ؛ فاجتمع ماتخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها »[٣] .

٢ - تأليف المعاجم اللغوية

معلوم أن مؤلفى المعاجم كانوا شديدى الحرص على تسجيل كل شىء تقع أعينهم عليه ، أو يتطرق إلى أسماعهم ، ومن ثم فقد دونوا ألفاظاً كثيرة ، كانت مهجورة فى الاستعمال ، ومستبدلا بها ألفاظ آخرى ، فكثرت فى معاجمهم – من جراء ذلك – مفردات اللغة ومترادفاتها[٤] .

٣ - تداخل اللغات

وذلك كأن يكون للفظة الواحدة صيغة فى قبيلة من القبائل ، ولها صيغة أخرى فى قبيلة أخرى ، مع بقاء مادتها ، واختلاف الصيغ بالنقص أو

---

(١) فقه اللغة : ١٧٢ .
(٢) انظر : (الخصائص) : ١ / ٣٧٢ .
(٣) الصاحبى : ٣٣ .
(٤) فقه اللغة : ١٧٣ .

الزيادة ، أو تغيير الحركات ، بحيث تبدو كل صيغة غير الصيغ الأخرى ، وإن كان أصلها جميعا واحد[١] ، ومثال ذلك قولهم : الذروح ، والزريح والزراح ، وهى اسم لدويبة صغيرة حمراء ، منقطة بسواد ، تطير ، والجمع : ذراريح[٢] .

٥ - غلبه الاسمية على الوصفية :

إذ أن الأسماء الكثيرة التى يطلقها العرب على الشىء الواحد ليست جميعها فى الواقع أسماء ، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء ، إذ كانت - فى الأصل - نعوتاً لأحوال المسمى الواحد ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج ، وتجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق ، وغلبت عليها الأسمية ، فالخطار ، والباسل ، والأصيد .. من أسماء الأسد ، يدل كل منها - فى الأصل - على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر ؟ وكذلك ما يعد من أسماء السيف ، كالصمصام ، والهندى ، والرُّدَيْنِى ، والحسام ، والعَضْب ، والقاطع..الخ[٣] .

٦ - التعميم وعدم ملاحظة الفروق الدقيقة :

فكثير من الألفاظ الذى تبدو وكأنها مترادفة ، وهى فى الواقع غير مترادفة ، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التى يدل عليها غيره ، ولكن العرب نظروا إليها نظرة عامة شاملة ، دون ملاحظة ما يكتنفها من فروق دقيقة ، وحالات خاصة ، فأطلقوها على المعنى الواحد دون تفريق بينها ، ومثال ذلك : نظر ، ورمق ، ولحظ ، وحدج ، ورنا ، وشَفَنَ .. إلى غير ذلك من الألفاظ التى تدل على النظر بصفة عامة ، فإن كل لفظ منها يدل على حالة خاصة للنظر ، تختلف عن الحالات التى تدل عليها

---

(١) فى فقه اللغة العربية : ١٨١.

(٢) الخصائص : ١ / ٣٧٣

(٣) فقه اللغة : ١٧٣ .

الألفاظ الأخرى ، فلفظة (نظر) تدل على مجرد التوجه للشىء والنظر إليه عموما ودون تقييد ، و (رمق) تدل على النظر بمجامع العين ، (لحظ) تدل على النظر من جانب الأذن ، و (حد جه) أى : رماه ببصره مع حدة ، و (رنا) تدل على إدامة النظر فى سكون ، و (شفن) تدل على نظر المتعجب الكاره ؛ وقد ورد الكم الوفير ، والجم الغفير من نحو ذلك فى كل من (المخصص) لابن سيده ، و (فقه اللغة وسر العربية) للثعالبى[١] .

* وقد نشر الأستاذ على الجارم[٢] - رحمه الله - بحثا فى مجلة مجمع اللغة العربية المصرى ، عن أسباب نشأة الترادف فى اللغة العربية ، وذكر فيه - فضلا على ماتقدم من أسباب - عاملين آخرين:

٧ - *ميل العرب إلى الكنى*:

وذلك أن العرب كانوا مشغوفين بإطلاق الكنى الكثيرة على المسمى الواحد ، مدحا له أو ذما أو تعجبا ، ثم يشيع استخدام هذا الكنى ، حتى تشتهر وتستقر فى أذهان القوم ، وتزاحم الاسم الأصلى فى شهرته وفى شيوعه ؛ ومن ذلك مايطلق على (النَّمِر) من كنى نحو : أبو الأبْرَد ، وأبو الأسود ، وأبو جهل ، وأبو خَطَّاب ، وأبو رُقاش .. الخ ، ومايطلق على (الأسد) نحو : أبو الأبطال ، وأبو الأخياس ، وأبو التامور ، وأبو حفص ، وأبو الحذر ، وأبو الزعفران ، وأبو شبل ، وأبو ليث ، وأبو محراب .. الخ ، ولو أمعنا النظر فى كل هذه الكنى ، لتبين لنا أن جميعها من قبيل الصفات للمسمى ، وليست أسماء له[٣] .

---

(١) المصدر السابق : ١٧٤ .

(٢) شاعر لغوى مصرى ، ولد سنة ١٨٨١ ميلادية، عمل استاذا بكلية دار العلوم ، ثم عميدا لها ، وعضوا بمجمع اللغة العربية المصرى ، ألف : خاتمة المطاف ، وديوان الجارم ، والنحو الواضح ، توفى سنة ١٩٤٩ ميلادية .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية المصرى : ١ / ٣٢٥ .

٨ - الميل إلى الرفاهية العلمية :

وهذا مايمكن أن نسميه (الحذلقة) أو (الفذلكة) أو (عقدة الخواجة) ، إذ نجد فريقا من المبهورين بالغرب ، ممن تربوا على أفكار المستشرقين وآرائهم ، حينما يتحدثون أو يكتبون ، يعمدون إلى تضمين عباراتهم كلمات من لغات أجنبية ، كأنما قد درجت ألسنتهم على نطق اللغات الأجنبية ونسيت النطق بالعربية ، أو كأنما قد عقمت اللغة العربية ، فلم تعد تسعفهم بالألفاظ التى يعبرون بها عن أغراضهم ؛ فتدخل هذه الألفاظ الأجنبية فى لغتنا العربية ، فبعضها لا يكتب لها البقاء ، وتذهب به عوادى النسيان ، والنادر منها يأخذ طابع العربية ، ويندمج فى ألفاظها[1] .

فوائد الترادف :

أما وقد استقر الرأى، أو كاد ، على إقرار ثبوت الترادف فى اللغة العربية ، وتم الوقوف على العوامل والأسباب التى أدت إلى وجوده فيها ، فقد نبه العلماء على ما للترادف من فوائد تعود على اللغة العربية والناطقين بها بالنماء ، والتوسع والثروة اللفظية ، حيث يقول ابن جماعة[2] فى شرحه على (جمع الجوامع) فيما نقله عنه السيوطى فى (المزهر) .

ومن فوائده :

١ - تكثير الوسائل - أى الطرق - إلى الإخبار عما فى النفس ، فإنه ربما نسى المتكلم أحد اللفظين ، أو عسر عليه النطق به ، فيجد فى مرادفه مايسعفه للتعبير عن المعنى المراد .

---

(١) المرجع السابق : ٣٢٤ ، وأنظر فقه اللغة العربية : ١٨٣ .

(٢) أبو عبد الله عز الدين محمد بن أبى بكر بن عبد العزيز ، ولد فى ينبع ، أخذ النحو عن ناظر الجيش والسيرافى ، ألف نحو ألف كتاب منها: حاشية على شرح ابن الناظم ، وحاشية على مغنى اللبيب ، وحاشية على شرح التوضيح ، توفى سنة ٨١٩ هجرية . (الأعلام : ٦ / ٢٨٢) .

٢ - التوسع فى سلوك طرق الفصاحة، وأساليب البلاغة فى النظم والنثر ، وذلك لأن اللفظ قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر : السجع ، والقافية ، والتجنيس ،والتصريع ، التصريع ، وغير ذلك من أصناف البديع .

٣ - الشرح والتوضيح ، فقد يكون أحد المترادفين أجلى وأوضح من الآخر ، فيكون شرحا وتوضيحا له ، نحو : العسجد : الذهب ، والجعفر : النهر ، والغضنفر : الأسد .. ألخ ؛ وقد ينعكس الحال بالنسبة إلى قوم دون آخرين .

٤ - ستر العيوب اللسانية ، حيث قد يتعاصى على المتكلم النطق بأحد الحروف أو بعضها ، لعيب فى لسانه، فيستطيع أن يستبدل ذلك الحرف بمرادفه دون إخلال بالمعنى المراد ، وأشهر من آثر عنه التصرف فى مثل هذا باستخدام الترادف : واصل بن عطاء[1] ، حيث كان أَلْثَغاً لا ينطق حرف (الراء) ، ولم يُؤْثَر عنه أنه استخدم لفظة أحد حروفها (راء) قط[2] .

ومما يروى عن حسن تصرف واصل بن عطاء حيال تفادى النطق بحرف (الراء) نظرا للثغته ، أن الخليفة أراد أن يختبر ذكاءه الذى شاع وانتشر بين الناس ، فكتب له إعلانا أو تعميما ، كل مفرداته تشتمل على حرف (الراء) ، وطلب إلى واصل أن يمر فى شوارع المدينةمناديا بهذا الإعلان الذى يقول : أمر أمير الأمراء بحفر بئر فى الصحراء ، يشرب منها الرائح والحاضر » ؛ فأخذه واصل وأخذ يطوف فى شوارع المدينة

---

(١) أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلى . المعروف بالغزال ، أحد الأئمة البلغاء المتكلمين فى علوم الكلام وغيره ، ولد بالمدينة المنورة سنة ٨٠ هجرية ، رأس فرقة الواصلية من المعتزلة ، ألف : أصناف المرجئة ، والتوبة ، والمنزلة بين المنزلتين ، ومعانى القرآن ، وغيرها ، توفى سنة ١٨١ هجرية (طبقات المعتزلة : ٢٨ ، ووفيات الأعيان : ٦ / ٧) .

(٢) فى فقة اللغة العربية .

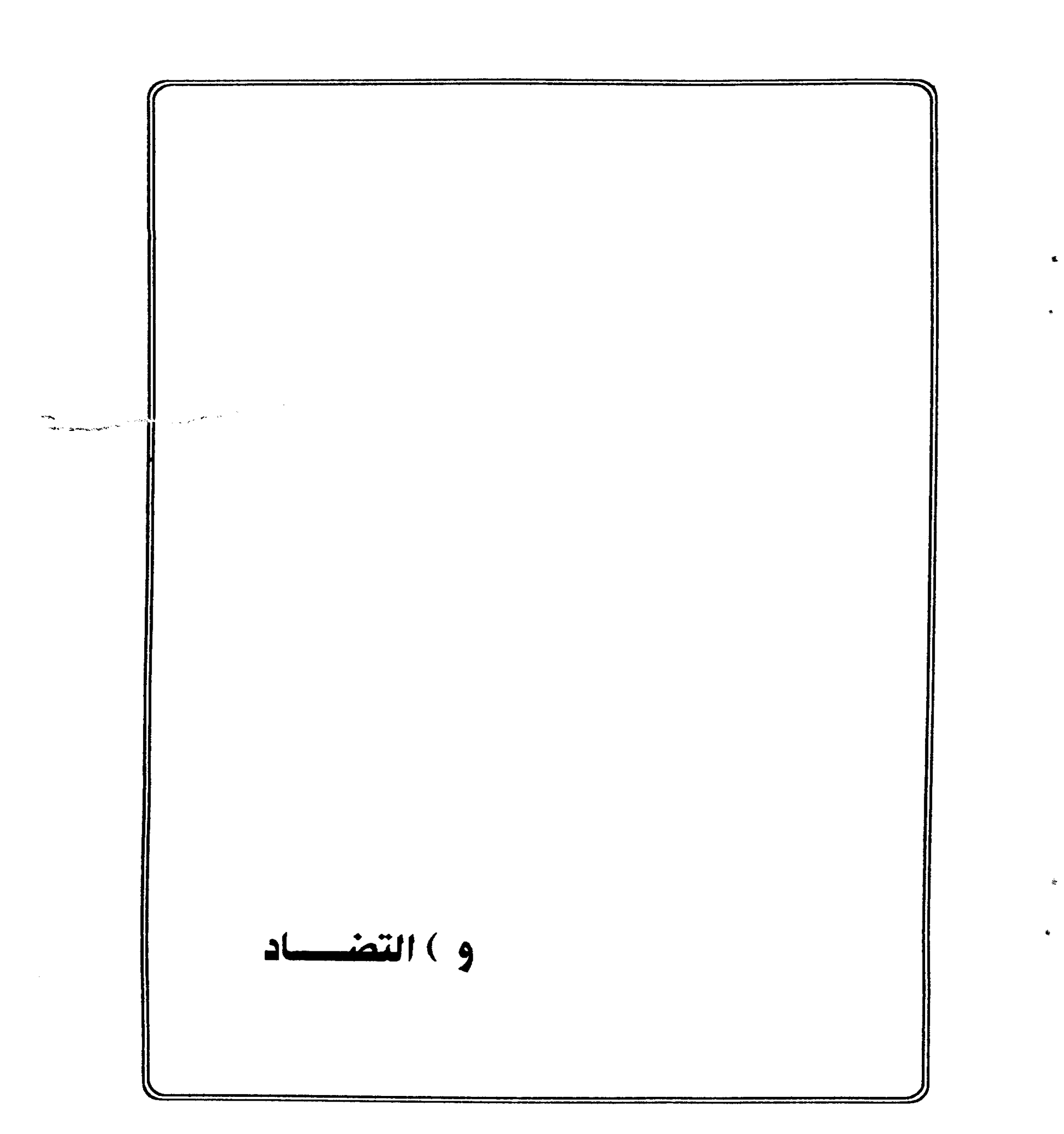
ينادى ويقول : « حكم حكيم الحكماء ، بفحت عين فى البيداء ، يستقى منها الذاهب والآيب » .

فسر منه الخليفة ، وأعجب بذكائه ، وفطنته ، وألمعيته ، وكافأه ؛ فلله در واصل من ذكى فطن ، ولله در الترادف من مسعف ، ومخلص من سائر العيوب اللسانية .

٥ - توكيد المعنى : لأن الحاجة تدعو إلى تأكيد المعنى ، والتحريض ، والتقرير؛ فلو تكرر اللفظ الواحد لسَمُجَ ومُجَّ ، ويقال : الشىء إذا تكرر تكرج ، والطباع مجبولة على معاداة العادات ، فخالفوا بين الألفاظ والمعنى واحد[1] .

---

(١) المزهر : ١ / ٣٦ - ٣٧ .



و) التضـــاد

و) التضــاد

التضاد : هو اللفظ الدال على معنيين متقابلين ، دلالة على السواء عند أهل اللغة[1] .

فهو يعد نوعا خاصا من الأشتراك ، قد تباين معنياه تباينا يستحيل معه اجتماعهما على شيء واحد :نحو لفظة (الجَوْن) التى تدل على الأبيض والأسود ، ولفظة (الحَمِيم) التى تدل على الماء الحار والماء البارد ، ولفظة (الصَّرِيم) التى تدل على الليل والنهار ، وقد سماه بعض اللغويين (الإشتراك المعنوى) فى مقابلة الإشتراك اللفظى .

وقد أختلفت آراء اللغويين ، وتباينهم نظرتهم حيال وقوع التضاد فى اللغة العربية اختلافا لايقل عن اختلافهم حيال وقوع كل من الترادف والاشتراك اللفظى .

* فقد ذهب فريق إلى إنكار وجود التضاد فى اللغة العربية إنكارا تاما واحتج لماذهب إليه بأنه لا يمكن أن يدل اللفظ الواحد على الشيء وضده ، لأن دلالة اللفظ الواحد على معنيين متضادين يؤدى إلى الإيهام والتعمية ، واللغة العربية حكيمة ، وتنأى عن ذلك : ويمثل هذا الفريق أحمد بن فارس القزوينى، وابن درستوية ، وابن سيدهْ الأندلسى[2] أذ يقول ابن فارس :

« ومن سنن العرب فى الأسماء ، أن يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو (الجَوْن) للأبيض ، (الجَوْن) للأسود .. وأنكر ناس هذا المذهب ، وأن العرب تأتى باسم واحد لشيء وضده ، وهذا ليس بشيء ، لأن الذين رأوا أن

---

(١) الصاحبى : ٩٨ .

(٢) أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده المرسى الأندلسى ، ولد بمرسية سنة ٣٩٧ هجرية ، عالم باللغة والأدب ، ألف معجم المحكم والمحيط الأعظم ، ومعجم المخصص ، توفى سنة ٤٥٨ هجرية (المدارس المعجمية : ٩٣) .

العرب تسمى السيف : مُهَنَّداً ، والفرس : طَرَفاً ، هم الذين رأوا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد ؛ وقد جردنا فى هذا كتابا ذكرنا فيه ما احتجوا به ، وذكرنا نقض ذلك ورده »[1] .

كما ألف ابن درستويه كتابا فى هذا الصدد سماه (إبطال الأضداد) يقول فيه :

« النَّوْءُ : الارتفاع بمشقة وثِقَل . ومنه قيل للكوكب : قَدْنَاءَ ، إذا طلع ، وزعم قوم من اللغويين أن النوء : السقوط ، وأنه من الأضداد ، وقد أوضحنا الحجة عليهم فى كتابنا هذا »[2] .

ويروى ابن سيده أن أحد شيوخه كان ينكر الأضداد التى حكاها أهل اللغة ، وأن تكون لفظة واحدة لشىء وضده[3] .

* وذهب فريق آخر إلى إقرار وجود التضاد فى اللغة العربية ، وكثرة وروده فى كلام العرب الخلص ، ويمثل هذا الفريق : قطرب[4] ، والمبرد ، والأصمعى، والتوزى ، وابن الكسيت[5] ، وأبو حاتم السجستانى ، والصغانى[6]

---

(١) الصاحبى : ١١٧ .

(٢) إبطال الأضداد ، نقلا عن المزهر للسيوطى : ١ / ٣٨٨ .

(٣) المخصص لأبن سيدة .

(٤) أبو على محمد بن المستنير ، نشأ بالبصرة ، أخذ النحو عن عيسى بن عمر ، وسيبويه ، والأخفش، وغيرهم ، ألف : العلل النحوية ، والاشتقاق ، والأضداد ، والمثلث وإعراب القرآن ، وغريب الحديث ، توفى ببغداد سنة ٢٠٦ هجرية . (الأعلام : ٧ / ٣١٥) .

(٥) يعقوب بن اسحق ، ولد سنة ٨٠٢ ميلادية ، إمام فى اللغة والأدب ، عهد إليه المتوكل العباسى بتأديب أولاده ، ألف : إصلاح المنطق ، والألفاظ ، والأضداد ، والقلب ، والإبدال ، توفى سنة ٨٥٨ ميلادية (الأعلام : ٨ / ١٩٥) .

(٦) أبو الفضل رضى الدين الحسن بن محمد بن الحسن الصغانى ، ولد فى صاغنيان فيما وراء النهر ، ألف معجم العباب الزاخر ، ومجمع البحرين فى اللغة ، والتكملة على (الصحاح) ، توفى سنة ٦٠٥ هجرية (همع الهوامع : ١ / ١٥٩) .

وابن الأنبارى[١] ، وابن الدهان[٢] ، وقد ألف هؤلاء كتبا برأسها فى الأضداد ، وإثبات وقوعها فى اللغة العربية ، إذ ألف المبرد كتابا سماه (ما أتفق لفظه واختلف معناه) يقول فيه :

« .. ومنه ما يقع على شيئين متضادين كقولهم (جلل) للكبير والصغير »[٣]

وألف ابن الأنبارى كتابا سماه (الأضداد) يقول فيه :

ويظن أهل البدع والزيغ والازدراء بالعرب أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم ، وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس فى محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم ، فيسألون عن ذلك ، ويحتجون بأن الاسم منبىء عن المعنى الذى تحته ، ودال عليه ، وموضح تأويله ، فإذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان ، لم يعرف المخاطب أيهما أراد ، ويظل بذلك معنى تعليق الإسم على المسمى[٤] .

ويستدل فريق المقرين بوجود التضاد فى اللغة العربية بما ورد منه فى القرآن الكريم ، وكلام العرب الخلص – شعرهم ونثرهم – ؛ فقد أورد ابن الأنبارى فى كتابه (الأضداد) ما يربوا على الأربعمائة لفظة من المتضاد ، وأورد السيوطى وابن سيده منه مايزيد على المائة لفظة نحو : (الصارخ)

---

(١) أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد الأنبارى ، نشا ببغداد ، وأخذ عن أبيه وعن ثعلب ، ألف : الكافى ، والواضح ، والموضح ، والأضداد ، توفى ببغداد سنة ٣٢٧ هجرية . (الأعلام : ٧ / ٦٦) .

(٦) أبو محمد الحسن بن محمد بن على بن رجاء المعروف بابن الدهان ، عالم باللغة العربية والنحو ، أخذ العربية عن الربعى ، ويوسف بن السيرافى ، والرمانى توفى سنة ٤٤٧ هجرية . (همع الهوامع : ٢ / ٤٨) .

(٣) انظر : المزهر : ١ / ٣٨٨ .

(٤) الأضداد لابن الأنبارى: ٨٠ .

للمُغِيث والمستغيث و (البَيْن) للفراق والوصال ، و (الخَشِيب) السيف الذى لم يصقل والذى أحكم صقله ، و (المسجور) للمملوء والفارغ و (الزاهق) للمتناهى فى السمن والشديد الهزال ، و (البَسْل) للحلال والحرام ، و (الرجاء) للرغبة والرهبة ، (القُرْء) للحيض والطهر .. وغيرها كثير .

ومما استدلوا به مما ورد فى القرآن الكريم ، والشعر العربى : لفظة (أَسَرَّ) التى تستخدم للدلالة على الإخفاء والستر ، كما تدل على الإظهار والإبانة ؛ فقد وردت للدلالة على الاخفاء والستر فى قول الله - تعالى - : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾[١] ، وذلك بدلالة قوله - سبحانه - بعدها « وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ »؛ كما جاءت للدلالة على الإظهار والإبانة فى قوله -عز من قائل- : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾[٢] ، قال أبو عبيدة فى تفسيرها : أى أظهروها ، كما جاءت أيضا دالة على الإظهار والإبانة فى قول الشاعر :

فَلَمَّـا رَأَى الْحَجَّـاجَ جَرَّدَ سَـيْفَهُ   أَسَرَّ الْحَرُورِيُّ الَّذِي كَانَ أَضْمَـرَا[٣]

أى : أظهر ما كان يخبئه ويستره .

ومنه أيضا لفظة (ظن) التى تستخدم للدلالة على الشك والاعتقاد الخاطىء ، كما تستخدم للدلالة على اليقين ، فقد جاءت الدلالة على الشك والاعتقاد الخاطىء فى قوله الله - تعالى - : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾[٤] ، كما جاءت للدلالة على الإيمان واليقين فى قوله - جل شأنه - : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[٥] ، أى يؤمنون ويقرون بأنهم ملاقوا ربهم .

(١) سورة يوسف : من الآية ٧٧ .

(٢) سورة سبأ : من الآية ٣٣ .

(٣) البيت : من بحر الطويل قاله الفرزدق .

(انظر فيه : « الأضداد فى كلام العرب لأبى الطيب اللغوى : ٢٥٣) .

(٤) سورة الحشر : من الآية ٢ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٤٦ .

* وتوسط فريق ثالث ، فأقر بثبوت التضاد فى اللغة العربية ، ولكنه شرط وجوده بشرطين :

الأول : أن يقع اللفظ على معنيين متضادين فى لهجة واحدة ، بمعنى ألا تكون اللفظة دالة على معنى فى لهجة أخرى .

الثانى : أن يقع اللفظ على المعنيين المتضادين بمساواة بينهما ، بمعنى ألا تكون دلالة اللفظ على أحد المعنيين عامة ، وتكون دلالته على المعنى الآخر مقيدة ؛ أو تكون دلالته على أحدهما كلية ، وعلى الآخر جزئية .

ويمثل هذا الفريق أبو بكر بن دريد[1] ، وأبو على القالى[2] : وكلاهما من مؤلفى المعاجم اللغوية . فقد ألف الأول معجم (الجمهرة فى اللغة) ، وألف الثانى معجم (البارع) .

وإذا تتبعنا كلام كل من ابن دريد والقالى ، تبين لنا أن كلا منهما كان مترددا بين إقرار وجود التضاد فى اللغة العربية ، وبين إنكاره ، إذ لم يشأ أحد منهما أن يقطع برأى فيه ، بل ربما بلغ الأمر بأحدهما أن صرح بأنه لايحب أن يدلى بدلوه فى هذا الموضوع ؛ كما يتضح لنا أن ابن دريد هو الذى تمسك بشرط أن يكون اللفظ دالا على معنيين متضادين فى لغة واحدة ، وأن أبا على القالى هو الذى شرط أن يقع اللفظ على المعنيين بمساواة واحدة ، إذ يقول ابن دريد فى تفسير معنى كلمة (الشعب) :

---

(١) أبو بكر بن الحسن بن دريد ، ولد فى البصرة سنة ٢١٦ هجرية ، تتلمذ على السيرافى ،والزجاج ، وابن خالويه ، ألف : الجمهرة ، والاشتقاق ، والمقصور والممدود ، وتقويم اللسان ، توفى سنة ٣٢١ هجرية . (الأعلام : ٦ / ٨٠ ، وبغية الوعاة : ١ / ٧٦) .

(٢) أبو على اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون القالى البغدادى ، ولد سنة ٢٨٨ هجرية ، ألف : الأمالى ، والنوادر ، والبارع ، توفى سنة ٣٥٦ هجرية. (المدارس المعجمية العربية : ٩٢ ، وبغية الوعاة : ١ / ٤٥٣) .

« الشعب : الافتراق ، والشعب : الاجتماع ؛ وليس عندنا من الأضداد ، وإنما هو لغة قوم »[١] .

ويعنى هذا أنه يرى أن اللفظ إذا وقع على معنيين مختلفين من لغتين ، وليس من لغة واحدة ، لا يعد من التضاد .

أما أبو على العالى فقد أثر عنه أنه كان يتمسك بأصل المعنى ، فلا يرى التضاد فيما تفرع عن المعنى ، أوتداخل فيه ، بل لايرى من التضاد إلا اللفظ الذى يقع على المعنيين بمساواة واحدة بينهما ، بدليل قوله فى (الأمالى) :

« من ذلك قولهم : الصريم : الصبح ، سمى بذلك لأنه انصرم من الليل ، والصريم : الليل ، لأنه انصرم عن النهار ، وليس عندنا ضدا »[٢] ، ويشير ابن الأنبارى إلى موقف أبى على هذا بقوله :

« وقال آخرون : إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع ؛ فمن ذلك : الصريم يقال لليل : صريم ، وللنهار : صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ؛ فأصل المعنيين من باب واحد ، وهو : القطع »[٣] .

وأما تردد ابن دريد فى قبول التضاد ورفضه ، فواضح فى مواطن كثيرة من كتابه (جمهرة اللغة) ، إذ فى تفسير لفظة (بَكَّ) نجده يقول :

« بَكَّ الشيءَ يَبُكُّه بَكًّا ، إذا خرقه أو مزقه . والبَكُّ : الازدحام ، وكأنه عندهم من الأضداد »[٤] . وفى تفسير لفظة (غَابِر) يقول : « الغابر :

---

(١) الجمهرة فى اللغة : ١ / ٧٦ .

(٢) أنظر الأمالى : ٢١٥

(٣) الأضداد لابن الأنبارى : ٨٠ .

(٤) جمهرة اللغة : ١ / ٣٦ .

الماضى ، والغابر : الباقى ، هكذا يقول أهل اللغة ، وكأنه عندهم من الأضداد »[1] .

أرأيت كيف أنه لايريد أن يذكر اسمه ضمن من يقولون بالتضاد ، كما لايحب أن يصرح بإنكاره له ، بل لا يحب حتى أن يدلى بدلوه فى هذا الأمر ، أو أن يقحم نفسه فى هذا الشأن ، حيث يقول فى تفسير لفظة (سجرت) من قول الله – تعالى – : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[2] قال أبى : خلت من الماء وزعموا أنه من الأضداد ، وما أحب أن أتكلم فيه »[3] .

* وبعد هذا الذى تقدم من عرض لآراء المقرين بالتضاد ، والمنكرين له ، والمترددين فيه بين الإقرار والإنكار ، يتسنى لنا أن نقول – على نحو من التثبت واليقين – أن التضاد واقع فى اللغة العربية لامحالة ، وذلك ثابت بماورد فى القرآن الكريم ، وكلام العرب الخلص – شعرا ونثرا – ولا نرد على هؤلاء المنكرين إلا بمارد به عليهم ابن الأنبارى حيث يقول :

« أن كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة الواحدة على المعنيين المتضادين ، لأنها ستقدمها ويأتى بعدها مايدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، فلا يراد بها فى حال الإخبار إلا معنى واحدا ؛ وهنا تظهر الحكمة ، وتكثر البلاغة ، وينتفى اللبس ، ويزول الإبهام[4] .

ثم نجد ابن درستويه – وهو ما هو بين المنكرين للتظاد – وكأنما ينكص على عقبيه حين يصادف التضاد فى كلام العرب الخلص واقعا ملموسا ، إذ

(١) المصدر السابق : ١ / ٣٦ .

(٢) سورة التكوير : الآية ٦ .

(٣) جمهرة اللغة : ١ / ٧٦ .

(٤) كتاب الأضداد لابن الأنبارى .

لا يجد مناصا من الإقرار به ، والاعتراف بوجوده ، ولكن على استحياء منه ، حيث يقول :

« وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعانى ، فلو جاز للفظ واحد الدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد الآخر ، لما كان هناك إبانة ، بل تعمية وتغطية ، ولكن قد يجىء الشىء من هذا لعلل »[1] .

وبعد أن لانت عريكة الفريق الرافض لوجود التضاد فى اللغة العربية ، ممثلا فى ابن درستويه ، الذى لم يربدا - فى نهاية المطاف - من الاعتراف به ، وبوجوده فى اللغة ، وإن كان يتشبث بسبب وآه حفاظا على ماء الوجه، حيث يربط وقوع التضاد فى اللغة بوجود علة تدعو إليه ، وتحتم وجوده، حيث ينهى كلامه السابق بعبارة (.. ولكن قد يجىء الشىء من هذا لعلل) ، إزاء ذلك لانرى بدا من أن نؤكد ما ذهب إليه فريق المقرين لوجود التضاد فى اللغة العربية بسوق نتف مما ألفه فى هذا الصدد أربعة من جهابذة اللغويين العرب ، وأكابر علمائهم الذين تعد مؤلفاتهم ومصنفاتهم منارات هدى على طريق البحث اللغوى على مر العصور بعدهم ، وهم: أبو سعيد عبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى ، وأبو حاتم السجستانى ، وإبو يوسف يعقوب بن السكيت ، ورضى الدين الصفانى .

* فمما جاء فى كتاب (الأضداد) عن الأصمعى قوله فى معنى لفظة (قرء) :

« القرء - عند أهل الحجاز - : الطهر وعند أهل العراق - : الحيض ؛ وقال أبو عمرو بن العلاء : يقال : قد دفع فلان إلى فلانة جاريته تقرئها - مهموزة مشددة - يعنى تحيض عندها وتطهر ، إذا أراد أن يستبرئها ،

---

(١) المزهر السيوطى : ١ / ٣٨٥ (نقلا عن كتاب إبطال الأضداد لابن درستويه) .

* انظر الأمالى .

وقال : القرء : الوقف ، فقد يجوز أن يكون وقتا للطهر ، ووقتا للحيض ؛ وأقرأت الرياح : هبت لوقتها ، والقارىء : الوقت ، وقال مالك بن الحارث الهزلى :

كَرِهْتُ العَقْرَ عَقْرَ بَنِي شُلَيْلٍ ... إِذَا هَبَّتْ لِقَارِئِـهَا الرِّيَـاحُ

وأنشد أبو عمرو هذا البيت أى : إذا هبت الرياح لوقتها فى الشتاء .

وقال الأصمعى : أقرأت الريح إذا جاءت لوقتها ، ويقال : ذهبت عنك القرأة - خفيفة - يريد وقت المرض ، وقال الأعشى :

مُوَرِّثَةٌ مَالاً وَفِي الْحَيِّ رِفْعَةً ... لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا

أى : لما ضاع من طهر نسائك تغنيك عنهن ، فلم تغشهن لشغلك بالغزو ، فأبدلت من ذلك هذا الحال وهذه الرفعة .

وقال أبو عبيدة : يقال : أقرأت النجوم - بالألف - معناه : غابت ، ومنه قرؤ المرأة فى قول من زعم أنه طهرها ، لأنها خرجت من الحيض إلى الطهر ، كما خرجت النجوم من الطلوع إلى المغيب .

وقال أبو عمرو الشيبانى : الإقراء : أن تقرىء الحية ، وذلك أنها تصرى سمها شهرا ، أى تجمع سمها ، فإذا وفى لها شهر أقرأت ومجت سمها .. وقد أقرأت سمها إذا اجتمع »[1] .

* ومما جاء فى كتاب (الأضداد) لأبى حاتم السجستانى فى معنى لفظه (وراء) قوله :

« (وراء) تكون فى معنى خلف ، ومعنى قدام ؛ ففى القرآن فى معنى بعد وخلف قوله - تعالى - : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾[2] ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾[3] ، والموالى هم بنو العم ، وقول

(١) كتاب الأضداد عن الأصمعى (ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد) : ٧ .

(٢) سورة هود : من الآية ٧٤ . (٣) سورة مريم : من الآية ٥ .

العرب : بلغنى ذلك من وراءَ وراءَ »[1] .

وفى القرآن فى معنى قدام قوله : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا »[2] ، يعنى قدامهم وأمامهم ؛ حدثنى أبو عامر العقدى قال : حدثنى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أن ابن عباس : قرأ : « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا » ؛ وقوله – عز شأنه – : ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[3] أى : من بين يديه ، وهو كثير فى القرآن ، قال لبيد :

أَلَيْسَ وَرَائِى إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِى ... لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأَصَابِعُ[4]

وقال عروة بن الورد العبسى :

أَلَيْسَ وَرَائِى أَنْ أَدِبَّ عَلَى الْعَصَا ... فَيَشْمَتَ أَعْدَائِى وَيَسْأَمَنِى أَهْلِى[5]

وهو كثير جدا فى القرآن والأشعار ، قال كثير :

الضَّارِبُونَ أَمَامَهَا وَوَرَاءَهَا ... بِمُهَنَّدَاتٍ قَدْ أُجِيدَ صِقَالُهَا[6]

* ومما قاله أيضا أبو حاتم فى معنى (الرجاء) :

(الرجاء) يكون طمعاً ، ويكون خوفا ، وفى القرآن فى معنى الطمع : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾[7] وقوله – تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾[8] ، وقوله : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾[9] ، وقال كعب بن زهير :

---

(١) من وراء وراء : ممن جاء خلفه وبعده .
(٢) سورة الكهف : من الآية ٧٨ .
(٣) سورة إبراهيم : من الآية ٢٠
(٤) البيت من بحر الطويل .
(٥) البيت من بحر الطويل .
(٦) البيت من بحر الكامل براجع كتاب الأضداد عن الأصمعى : ٨٢ – ٨٣ .
(٧) سورة الإسراء : من الآية ٥٩ .
(٨) سورة القصص : من الآية ٨٦.
(٩) سورة الإسراء : من الآية ٣٠ .

أَرْجُو وَآمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا   وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكِ تَنْوِيلُ[١]

أراد الطمع .. وفي الحديث الشريف : « لَوْ وُزِنَ رَجَاءُ المُؤْمِنِ وَخَوْفُهُ بِمِيزَانٍ تَرِيصٍ[٢] لَاعْتَدَلَا »[٣] . وقال بشر بن أبي خازم :

فَرَجِّى الخَيْرَ وَانْتَظِرِى إِيَابِى   إِذَا مَا القَارِظُ العَنَزِىُّ آبَا[٤]

ويقال : رجوت ، ورجيت - مشددة - وارتجيت في المعنيين : طمعت ، وخفت ، قال الشاعر :

وَمَا تُرَجِّى إِذَا تَلَاقَى الزَّائِدَا   أَسَبْعَةً لَاقَتْ مَا أَمْ زَائِدَا[٥]

أي : ما تخافي ولا تبالي ، وهما في لغة لعزيل وكنانة ونضر وخزاعة في معنى المبالاة .

و (الرجاء) في القرآن في معنى الخوف كثير ، قال - تعالى - : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾[٦] ، وقال : ﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ وَارْجُو اليَوْمَ الآخِرَ ﴾[٨] ، وهو كثير ، قال أبو ذؤيب :

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا   وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَامِلُ[٩]

قال النابغة :

---

(١) البيت من بحرر الطويل .
(٢) التريص : المقوم ، والمحكم ، والمعتدل .
(٣) انظر في الحديث : الجامع صغير للسيوطي
(٤) البيت من بحر الوافر .
(٥) البيتان من بحر الرجز .
(٦) سورة الكهف : من الآية ١١٠ .
(٧) سورة يونس : من الآية ١٧ ، وسورة الفرقان : من الآية ٣٢ .
(٨) سورة العنكبوت : من الآية ٣٥ .
(٩) البيت من بحر الطويل .

مَحَلَّتُهُمْ ذَاتُ الإلَهِ وَدِينُهُمْ قَدِيمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ العَوَاقِبِ[١]

* ومما قاله الأصمعى أيضا فى معنى لفظ (القانع) :

القانع : الراضى بما قسم الله له، ومصدره القناعة ؛ والقانع : السائل، ومصدره القنوع ، ورأيت أعرابيا يقول فى دعائه : الهم إنى أعوذ بك من القنوع والخنوع والخضوع ، وما يعض طرف المرء ، ويغرى به لئام الناس ؛ قال عدى :

وَمَا خِفْتُ ذَا عَهْدٍ وَأُبْتُ بِعَهْدِهُ وَلَمْ أَحْرِمِ المُضْطَرَّ إِذْ جَاءَ قَانِعًا[٢]

أى : سائلا ، وقال الله – جل ثناؤه – : ﴿وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ﴾[٣] ، فالقانع : السائل ، والمعتر : الذى يأتيك ويتعرض لك ولا يسأل ؛ قال الشماخ :

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِى مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ[٤]

أى : أعف من المسألة ، قال لبيد :

فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ آخِذٌ بِنَصِيبِهِ وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالمَعِيشَةِ قَانِعُ[٥]

أى : راض بقسمه[٦]

* ومما ذكره ابن الكسيت من الأضداد ، قوله فى معنى لفظة (رهوة) :

« الرهوة : الارتفاع ، والرهوة: الانحدار ، قال أبو العباس النميرى :

وَلَيْسَتْ رِجْلِى فِى رَهْوَةٍ فَمَا نَالَنَا عِنْدَ ذَاكَ القَرَارَا[٧]

(١) البيت من بحر الطويل .

(٢) البيت : بحر الطويل . قاله عدى بن حاتم الطائى .

(٣) سوة الحج : من الآية ٣٧ .

(٤) البيت : بحر الوافر . قاله الشماخ بن حكيم .

(٥) البيت : بحر الطويل . قاله لبيد بن ربيعه العامرى .

(٦) انظر الأضداد عن الأصمعى : ٤٩ – ٥٠ .

(٧) البيت : من بحر المتقارب .

أى : فى انحدار ، وقال عمرو بن كلثوم فى معنى الارتفاع :

نَصَبْنَا مِثْلَ رَهْوَةِ ذَاتِ حَدٍّ مُحَافَظَةً ، وَكُنَّا المُسْتَفِينَا(١)

يريد : المتقدمين ، وهذا من الارتفاع ؛ وقال الأصمعى : نظر أعرابى إلى بعير فالج فقال : سبحان الله ، رهوة بين سنامين ، فهذا من الانهباط ، ومنه قول الشاعر :

وَأَلْقِ عَدُوَّكَ فِى رَهْوَةٍ يَغِبْ عَنْكَ مَا دُمْتَ حَيًّا صَحِيحًا(٢)

* ويقول ابن الكسيت أيضا فى معنى لفظة (خفى) :

« أخفيت الشيء : كتمته ، وأخفيته أظهرته » ؛ وفى القرآن : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾(٣) .

أى : أظهرها ، وأنشد للكندى (أمرىء القيس بن عابس) :

فَإِنْ تَدْفِعُوا الدَّاءَ لَا نُخْفِهِ وَإِنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لَا نَقْعُدُ(٤)

وأنشد الأصمعى لامرىء القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِىٍّ مُجَلِّبِ(٥)

يعنى : إخراج المطر الفأر من الجحرة ، وقال أبو ذؤيب :

وَمُدَّعِسٍ فِيهِ الأَنِيضُ خَفِيتُهُ بِجَرْدَاءَ يَنْتَابُ الثَّمِيلَ حِمَارُهَا(٦)

وقوله مدعس : أى مختبر ، ومطبخ ، الذى قد أعيد فيه مرة بعد مرة ،

---

(١) البيت فى بحر الوافر .

(٢) البيت : من بحر المتقارب . قاله أبو ذؤيب الهزلى .

(٣) سورة : من الآية

(٤) البيت : من بحر المتقارب .

(٥) البيت : من بحر الطويل .

(٦) البيت من بحر الطويل .

والأنيض : اللحم الذى لم ينضج ، وخفيته : استخرجته ، إذ من العجلة لم أدعه ينضج ، ويروى : أخفيته ، ويقال للركبة التى قد أندفنت ثم استخرجت : خفية ، قال ساعدة بن جؤية الهزلى :

حَيْـرَانُ يَرْكَبُ أَعْـلَاهُ أَسَـافِلَهُ يُخْفِي تُرَابَ جَدِيدِ الْأَرْضِ مُنْهَزِمُ(١)

يخيفه : يستخرجه ، يقال : خفاه يخفيه خفيا .. قال عبده بن الطبيب :

يُخْفِـي التُّـرَابَ بِأَخْـلَافٍ ثَمَانِيَةٍ فِي أَرْبَعٍ وَقْعُهُنَّ الْأَرْضَ تَحْلِيلُ(٢)

ويقال : خفى البرق يخفى إذا ظهر ولمع ، وقال حميد بن ثور الهلالى :

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ فِي نِشَاصٍ خَفَتْ بِـهِ سَـوَاجِمُ فِـي أَعْنَاقِهِـنَّ بُسُوقُ(٣)

وجاء فى الحديث : « لَيْسَ عَلَى مُخْتَفٍ قَطْعٌ » وهو النباش ، وإنما سمى مختفيا لأنه يختفى الكفن ، أى يظهره »(٤)

* ويقول الصغانى فيما ذيل به كتاب (ثلاثة كتب فى الأضداد) تحت حرف (الياء) :

البكر : التى لم يدخل بها ، والتى قد دخل بها .

البلهاء : الناقصة العقل والكاملة .

البين : الوصل ، والقع .

ويقول تحت حرف (الثاء) :

الثأثأة : الإرواء ، والتعطيش .

أثغمت الرجل : إذا أغضبته ، وإذا أرضيته .

---

(١) البيت من بحر البسيط .

(٢) البيت : بحر البسيط .

(٣) البيت من بحر الطول .

(٤) أنظر : كتاب الأضداد لابن الكسيت : ١٧٧ - ١٧٩ .

الثلة : القطعة العظيمة من الإبل ، والقطة اليسيرة منها .

ويقول تحت حرف (العين) .

العرصم : القوى الجسم ، والضعيف الجسم .

العسعسة : إقبال ظلمة الليل ، وإدبارها .

المعصر : التى دنت من الحيض ، والتى ولدت ، أو عنست[1] .

ثم يسير الصغانى على هذا النحو فيما ذيل به كتاب (ثلاثة كتب فى الأضداد) للأصمعى ، والسجتانى ، وابن الكسيت ، إذ يورد كل ما وقع من الأضداد تحت حروف الهجاء - من الألف إلى الياء - بحسب الحرف الأول من اللفظ ، كما هو واضح فيما قدمناه آنفا .

أسباب وجود التضاد :

إذا حاولنا التعرف على الأسباب التى أدت إلى وقوع التضاد فى اللغة العربية ، تبين لنا أنها - على وجه التقريب - ذات الأسباب التى أدت إلى وقوع الأشتراك اللفظى فيها ، حيث أشرنا آنفا إلى أن التضاد إنما هو نوع خاص من الأشتراك اللفظى ، ثم ينضاف إلى ماتقدم أسباب أخرى منها :

١ - اختلاف اللهجات :

فبعض الألفاظ قد جاءها التضاد من اختلاف القبائل فى استخدامها ، ومثال ذلك لفظة (وثب) المستعملة عند مضر بمعنى(طفر) ، وعند حمير بمعنى (قعد) ؛ ولفظة (السرقة) التى تعنى عند تميم (الظلمة) وعند قيس (الضوء) ؛ ولفظة (سجد) التى تعنى عن طيء (انتصب) ،

---

(١) ذيل (ثلاثة كتب فى الأضداد) للصغانى : ٢٢١ - ٣٤٨ .

وعند باقى القبائل (أنحنى وتطامن إلى الأرض) ؛ ولفظة (لمق) التى تعنى عند بنى عقيل (كتب) ، وعند سائر العرب (محا)[١] .

٢- اختلاف الأصل :

إذ قد يكون كل من اللفظين المتضادين منحدرا من أصل خلاف الآخر ، بمعنى أن تكون اللفظة متشعبة من أصلين مختلفين ، فتكون فى دلالتها على أحد الضدين منحدرة من أصل ، وفى دلالتها على مقابلة منحدرة من أصل آخر . نحو (هجد) التى تأتى للدلالة على معنى (نام) ، كما تأتى للدلالة على معنى (سهر) ، فمن المحتمل أن تكون فى دلالتها على معنى (النوم) منحدرة من الأصل (هدأ) إذا سكن ، وفى دلالتها على معنى (السهر) منحدرة من الأصل (جد) إذا جهد ، لما فى السهر من الأجتهاد فى منع النوم ، ونحو لفظة (أبض) التى تأتى بمعنى (سكن) و (تحرك) ، فمن المحتمل أن تكون فى معنى (السكون) متشعبة عن الأصل (بض، بضا ، باض) إذا أقام وسكن ، وفى معنى (التحرك) منحدرة من الأصل (أب) بمعنى : حرك[٢] .

٣- اختلاف الوضع :

إذ قد يجيء التضاد فى الظاهر من اختلاف مؤدى المعنى الواحد ، باختلاف المواقع، نحو لفظة (فوق) التى تدل – فى أصل وضعها – على معنى الفوقية والاستعلاء ولكنها وردت فى قول الله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾[٣] أى : فما دونها ، وقال بعض المفسرين : « أى مايفوق البعوضة حقارة »[٤] .

---

(١) انظر : فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى : ١٩٧ – ١٩٨ .

(٢) فقة اللغة : ١٩٨ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٦ .

(٤) فقة اللغة : ١٩٦ .

٤ - الأشتراك المعنوى :

بمعنى أن تكون اللفظة - فى أصل وضعها - دالة على معنى عام ، يشترك فيه الضدان ، فتصلح كل منهما لذلك المعنى الجامع ، وذلك نحو لفظة (القرء) حيث تطلق على كل من الحيض والطهر ، لأن معناها - فى الأصل - : الوقت المعتاد ، ومن ثم يستعمل فى الحيض والطهر ، لأن كليهما وقت معتاد للمرأة ؟ وكذا لفظة (السرار) التى تطلق على أوائل الشهر ، وعلى أواخره ، لأن معنى (السرار) : مايصل بين الشهر السابق والشهر اللاحق ، وهذا يصدق على أواخر الشهر السابق ، وأوائل الشهر اللاحق[١] .

٥ - الأستخدام المجازى :

حيث قد يؤثر المتكلم أن ينقل اللفظ عن معناه الأصلى إلى معنى آخر مجازى ، لنكته بلاغية ، أو لعلاقة ما بين المعنيين ، ثم يحدث أن يكثر استخدام اللفظ فى معناه المجازى ، فيتناسى فيه وجه المجاز ، ويصبح إطلاقه على مايقابل مدلوله الأصلى فى قوة استخدامه فى حقيقته ، نحو لفظة(نسى) فى قول الله - تعالى - ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[٢] ، إذ الفعل (نسيهم) غير مستعمل فى معناه الحقيقى ، لأن الله - تعالى - لايجوز عليه السهو أو النسيان ، بل هو مستعمل فى معنى الترك والإهمال على سبيل الاستعارة ، وقد حسن مجيء هذه الاستعارة لما تحققه من مشاكلة بين اللفظين ، وتجا نس بين العمل والجزاء[٣] .

٦ - العوارض التصريفية :

فقد تعرض بعض القواعد الصرفية التى تؤدى إلى أن يتفق لفظان متقاربان فى صيغة صرفية واحدة ، فينشأ عن ذلك لبس فى معنى الصيغة

(١) المصدر السابق : ١٩٥ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٦٧ .

(٣) فقة اللغة : ١٩٥ .

المشتركة ، يؤدى إلى عدها من باب الأضداد ، نحو لفظة (مرتد) التى تعنى من يرتد للشىء ، كما تعنى الشىء الذى يُرْتَد ، وكلا المرتدين مشتق من أصل خلاف الآخر ، فهو إن كان للفاعل فأصله (مرتدِد) ، وإن كان للمفعول فأصله (مرتَدد) ؛ واتحاد اللفظين إنما جاء لسبب الإدغام ؛ ومن هذا القبيل ألفاظ : المزدار ، والمختار ، والممتاز ، والمبتاع ، والمصطاد ، .. الخ »[١] .

٧ - التفاؤل أو التهكم :

فقد يستخدم اللفظ فى ضد ما وضع له أصلا ، لمجرد التفاؤل ، نحو إطلاق (المفازة) على الصحراء التى تغلب فيها الهلكة والضياع ، تفاؤلا بالسلامة ، وكإطلاق لفظ (السليم) ، على الملدوغ ، وإطلاق لفظ (الريان) على العطشان .

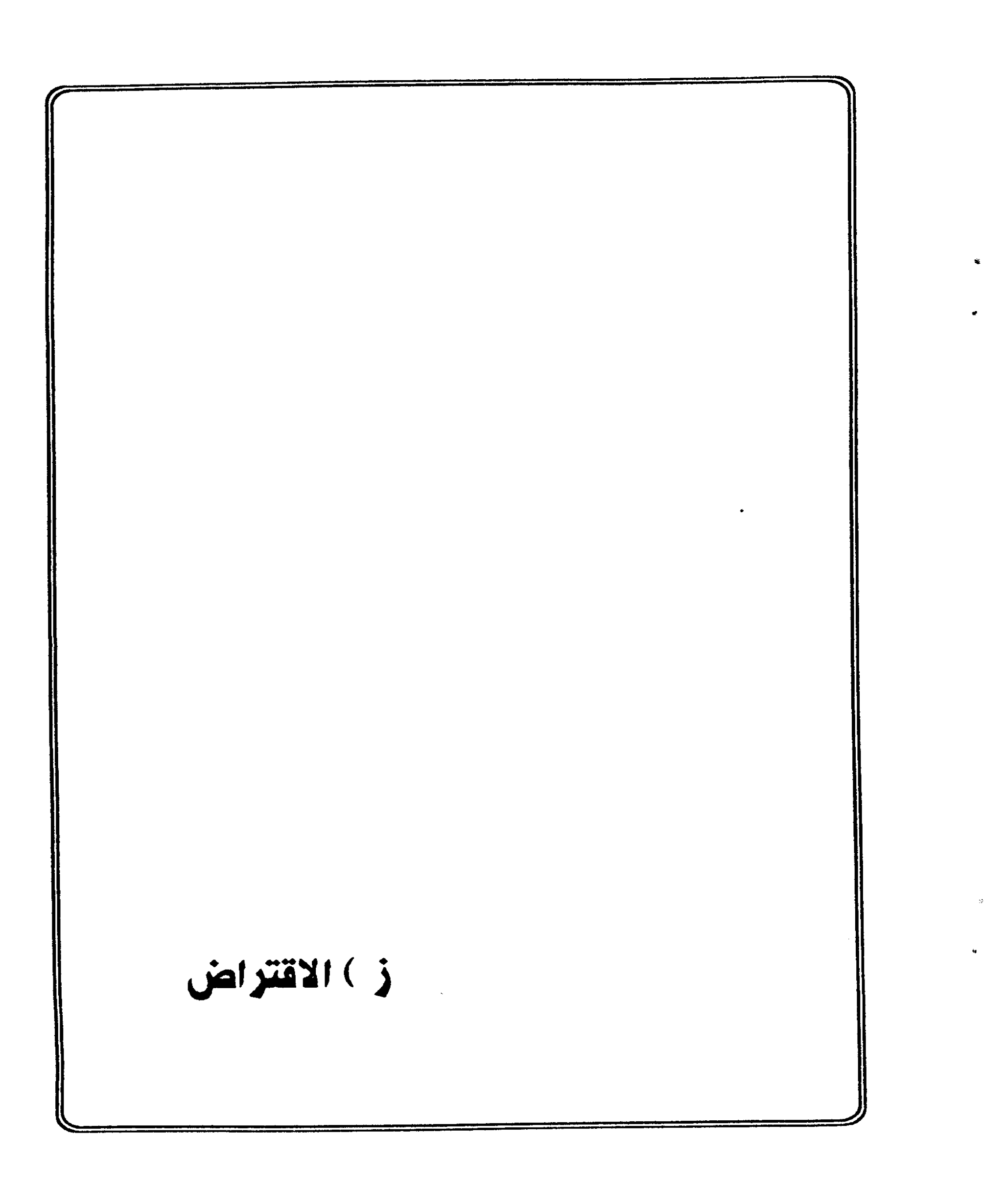
وربما استخدم اللفظ كذلك فى ضده لمجرد التهكم ، أو اتقاء التصريح بما يكره التلفظ به ، أو بما يمجه الذوق ، نحو إطلاق لفظ (العاقل) على الأحمق والمعتوة ؛ و (الخفيف) على الثقيل الظل ، أو الوزن ؛ و (المولى) على العبد ؛ و (البصير) على الأعمى .. ألخ[٢] .

وبعد ، فلا ريب أن التضاد وسيلة من وسائل نمو اللغة العربية وإثرائها ، يعين على التوسع فى التعبير ، والتنوع فى الألفاظ والأساليب ،والتنقل فيها بين الإيجاب والسلب .

---

(١) المصدر نفسه : ١٩٧ .

(٢) فقة اللغة : ١٩٤ .



ز) الاقتراض



ز) الاقتراض

الاقتراض فى اللغة : نقل لفظ أو أكثر من لغته الأصلية الى لغة آخرى ، ليستخدم فيها دالا على المعنى الموضوع بإزائه فى لغته الأصلية .

واستعمال لفظ « الاقتراض » فى هذه الظاهرة ، ليس إلا من قبيل التجوز ، أو مجاراة لاصطلاح اللغويين المحدثين ، فليس اقتراض الألفاظ بعد اقتراضابمعناه الدقيق ، ذلك لأن اللغة المستعيرة لا تحرم اللغة المستعار منها تلك الألفاظ المستعارة ، بل ينتفع بها كلا اللغتين معاً ، وليست اللغة المستعيرة مطالبة برد ما اقترضته من ألفاظ اللغات الأخرى[1] .

وقد يتخذ الاقتراض اللغوى أشكالا عدة ، فقد يكون اقتراضا فى الألفاظ ، أو اقتراضاً فى الأعداد ، أو اقتراضا فى نظام الجملة ، أو اقتراضا فى الأساليب .

أما الاقتراض فى الألفاظ فسيأتى .

وأما الاقتراض فى الأعداد، فمثاله ما نألفه فى مصر من استخدام الأعداد الفارسية أثناء اللعب بالنرد ، حيث نسمع اللاعبين يقولون : يك ، دو ، دوسة ، جهار ، بنج ، شيش : ومعناها – على الترتيب – واحد ، اثنين ، ثلاثة، أربعة ، خمسة ، ستة ؛ وذلك لأن لعبة (النرد) فارسية الأصل ، عرفها العرب عندما اختلطوا بالفرس منذ قيام الدولة العباسية ، وما تزامن معها من الفتوح الاسلامية ، فاستعارالعرب مع لعبة (النرد) هذه أسماء الاعداد الفارسية ، التى ما زالت مستخدمة بيننا حتى الآن .

وأما الأقتراض فى الأساليب ، فقد بدا واضحا جليا فى تأثر بعض الكتاب المعاصرين ،الذين تأثروا بالثقافة الأوروبية ، حيث ورد فى كتاباتهم بعض التراكيب اللغوية التى لم تعرفها العربية من قبل نحو :

(١) انظر : من أسرار اللغة : ١٠٢ .

* كم هو جميل أن نرى .
* كثير جدا، وجدا كثير .
* وهو بلا شك ضرورى .
* سافرت برغم المطر أو البرد .
* إن أحدا لا يستطيع .

ولعل أبرز مثل لافتراض الأساليب ، ما نلحظه الآن فى الأساليب الصحفية ، بل فى بعض الأساليب الأدبية التى وفدت الى لغتنا العربية من اللغات الأوربية عن طريق الترجمة أو التقليد نحو :

* ذرا الرماء فى العيون .
* يكسب خبزه بعرق جبينه .
* لايرى أبعد من أرنبة أنفه .
* يلعب بالنار .
* لاجديد تحت الشمس .
* ألقى المسألة على بساط البحث .

إلى غير ذلك من مئات الأساليب التى شاعت الآن فى العربية الحديثة ، وكونت عنصرا هاما من عناصرها ، وهى ولا شك وسيلة من وسائل تنمية اللغة فى معانيها ودلالاتها ، دون المساس بألفاظها وصيغها ، وقد تلقاها علماء العربية بالقبول ، ولم يعترضوا على شئ منها[1] .

أما بالنسبة للافتراض فى الألفاظ ، فقد افترض العرب قبل الاسلام وبعده ألفاظا أجنبيه كثيرة ، ولم يجدوا غضاضة أو سفيرا بلغتهم ، إذ يروى أن عدى بن زيد العبادى الذى تربى فى بلاد الأكاسرة ، كان له شعر كثير

---

(١) من أسرار اللغة : ٩٨ - ١٠١ .

يحتوى على كثير من الكلمات الأعجمية ، ولعل الأعشى وهو أشهر من عرف بين شعراء الجاهلية بكثرة اقتباسه من تلك الألفاظ الأعجمية فى شعره ، مثل قوله :

* عَلَيْهِ (دَيَابُوذٌ) تَسَرْبَلَ تَحْتَـــهُ (أَرَنْدِجُ) إِسْكَافٍ يُخَالِطُ عِظْلِمَـا[١]
* وَكَأَنَّ الخَمْرَ العَتِيقَ مِنَ (الإِسْـــفَنْطِ) مَمْزُوجَةً بِمَـــــاءٍ زُلَالِ[٢]
* لَنَا (جُلَّسَانٌ) حَوْلَهَا وَ (بَنَفْسَجٌ) وَ(سِيْسَنْبَرٌ) وَ (المَرْزَجُوشُ) مُنَمْنَمَاً[٣]

ثم تواتر ورود تلك الألفاظ الأعجمية فى شعر بعض الشعراء الإسلاميين ، كالفرزدق ، وجرير ، والأخطل ؛ ثم زاد ورود تلك الألفاظ الأعجمية زيادة كبيرة على أيدى العلماء الذين لم يكونوا من أصل عربى ، فقد ألفوا بالعربية كتبا ورسائل علمية فى الحيوان ، والنبات ، والطب ، وغيرها ، وحشدوا فيها قدرا كبيرا من تلك الألفاظ . على نحو ما فعل الفارابى والرازى، وابن سينا وغيرهم[٤] .

ونحن بصدد الحديث عن موضوع (الاقتراض اللغوى) بالنسبة للغة العربية ، وما افترضته من ألفاظ أجنبية ، نجدنا أمام مصطلحات ثلاثة هى : الدخيل ، والمعرب ، والمولد ؛ وذهب علماء اللغة الى ضرورة التفرقة بين هذه المصطلحات الثلاثة ، وقصر كل مصطلح منها على لفظ بعينه ، وذلك على النحو التالى :

فالدخيل : هو اللفظ الذى دخل اللغة العربية من لغة أجنبية ، سواء فى ذلك ما استخدمه العرب الفصحاء - فى جاهليتهم وإسلامهم - ، وما استخدمه من جاء بعدهم من المولدين .

(١) الديابوذ : ثوب ينسج على نيرين. الأرندج : جلد أسود ، العظلم : نوع من الشجر يخضب به كالحناء .

(٢) الإسفنط : اسم من أسماء الخمر فى اللغة الفارسية .

(٣) الجلسان ، والبنفسج ، والسيسنبر ، والمرزجوش : كلها أسماء أعجمية لأنواع مختلفة من الزهور .

(٤) أنظر : من أسرار اللغة : ١١٠ .

والمعرَّب : هو اللفظ الأجنبى الذى ورد فى استخدام العرب خلال عصر الاحتجاج[١] .

والمولَّد : هو اللفظ الأجنبى الذى ورد فى استخدام العرب بعد عصر الاحتجاج[٢] .

وهذا يعنى أن (الدخيل) يعم المعرب ، والمولد . ويشملهما ، فكل معرب أو مولد دخيل ، وليس العكس ، ولكن اللغويين من مؤلفى المعاجم ، ومن المحدثين ، فلا يكادون يعترفون باسم (المولد) ، وإنما يقصرون كلامهم وتقسيماتهم على المصطلحين الآخرين - الدخيل ، والمعرب - ثم يختلفون فى تحديد دلالة كل من المصطلحين على النحو التالى :

يرى فريق من اللغويين أن مدلول المصطلحين - دخيل ، ومعرب - واحد، وأنه يصح إطلاق كل منهما حيث يطلق الآخر ، إذ لافرق بينهما ، ويمثل هذا الفريق : أبو منصور الجواليقى ، وجلال الدين السيوطى ، وشهاب الدين الخفاجى ، وعبد القادر المغربى ؛ حيث يقول الجواليقى فى باب (مايعرف من المعرب بائتلاف الحروف) من كتابه المسمى (المعرب من الكلام الأعجمى) .

« لم تجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية ، فمتى جاءا فى كلمة ، فاعلم أنها معربة »[٣] ؛ ويقول فى موضع آخر : « وليس فى كلامهم زاى بعد

---

(١) حدد العلماء الفترة الزمنية التي كانت فيها اللغة العربية ما تزال محتفظة بسلامتها ، لثبوت عدم اختلاط عرب الجزيرة العربية بجيرانهم من أهالى البلاد الاخرى ، ومن ثم يصح الأخذ منهم والاستدلال بكلامهم - شعره ونثره - فى التقعيد للغة . بنهاية القرن الرابع الهجرى بالنسبة لعرب البوادى ، ونهاية القرن الثانى الهجرى بالنسبة للعرب الذين يقطنون على أطراف الجزيرة ، وأطلقوا على العرب خلال هذه الفترة اسم (العرب الفصحاء ، أو الخلص) .

(٢) فقه اللغة : ١٩٩ .

(٣) المعرب من الكلام الاعجمى : ٥٩ .

دال إلا دخيل ، من ذلك : الهنداز ، والمهندز ؛ وأبدلوا الزاى سينا ، فقالوا : المهندس»[١] .

ويقول جلال الدين السيوطى : « المعرب : هو ما استعمله العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها ... ويطلق على المعرب : دخيل ، وكثيرا ما يقع فى كتاب (العين) و (الجهرة) وغيرهما »[٢] .

ويقول الجوهرى : « تعريب الاسم الاعجمى : أن تتفوه العرب به على منهاجها ، تقول : عربته العرب ، وأعربته أيضا »[٣] .

ويقول شهاب الدين الخفاجى : « واعلم أن التعريب : نقل اللفظ من العجمة الى العربية ، والمشهور فيه : التعريب ، وسماه سيبويه - وهو امام العربية - وغيره : « إعرابا ، فيقال حينئذ : معرب ، ومعرَّب »[٤] .

أما الأستاذ عبد القادر المغربى فيقول : « ليس التعريب فى اللغة العربية بدعا ... والمعرب يسمى دخيلا أيضا وهو : ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان فى غير لغتها »[٥] .

وذهب فريق آخر الى التفرقة بين المصطلحين ، حيث يرى أن لكل من الدخيل والمعرب مدلوله الخاص الذى يتباين مع مدلول الآخر ، فلا يجوز إطلاق أي من المصطلحين على صاحبه ، ويمثل هذا الفريق : الدكتور حسن ظاظا ، والدكتور عبد الحميد الشلقانى ، والدكتور عيد خليفة ، حيث يرى الدكتور حسن ظاظا أن ما دخل العربية من الألفاظ الاعجمية خلال عصر

---

(١) المصدر السابق : ٤٠٠ .

(٢) المزهر : ١ / ٢٦٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) شفاء الغليل : ٣ .

(٥) الاشتقاق والتعريب : ١٦ .

الاحتجاج ، الأجدر به أن يسمى (المعرب) ، وأن ما دخل إليها بعد هذا العصر يسمى (الدخيل)[١] .

أما الدكتور عبد الحميد الشلقانى فيقول : « والمعرب : ما هذب من الفاظ اللغات الاخرى ، حتى أخذ شكل العربية وهيئتها وطاع للاشتقاق ، فجاء من الفعل فاعل ، وقد يأتي مفعول ، واسم مفعول ، وسار فى فلك العربية ، كما تسير ألفاظ هذه اللغة ؛ وأما الدخيل : فهو الذى دخل العربية على هيئته فى لغته ، أو حُرِّف قليلا ، ودخل على العربية حصنها ، ودار على ألسنة أهلها بقوة الحاجة إليه »[٢] .

ويقول الدكتور عيد خليفة : « اللفظ الأجنبى إذا أخذ الصورة العربية ، واتبع النهج العربى ، سمى (معربا) ، وإذا لم يأخذ هذه الصورة ، ولم يتبع هذا النهج ، ونطق على النهج الذى سمع ، والطريقة التى ينطقه بها ذووه سمى (دخيلا)[٣] .

* وإننا نرى - بعد كل ما عرضناه من آراء وتقسيمات - أن كل ما دخل العربية من الألفاظ الأجنبية إنما هو دخيل ، لأنه دخيل عليها من غيرها ، مقحم بين ألفاظها العربية الأصيلة ، سواء أكان دخوله إبان عصر الاستشهاد أم بعده ، ثم ينقسم هذا الدخيل الى قسمين :

معرب : وهو ما دخل الى اللغة العربية إبان عصر الاستشهاد ، وعمل العرب الفصحاء - خلال هذه الفترة - على تعريبه بالوسائل التى سنذكرها بعد قليل .

---

(١) كلام العرب : ٧١ .

(٢) مصادر اللغة : ٢٣٢ .

(٣) اللغة العربية فى مواجهة الحياة : ٢٢٢ .

مولد : وهو ما دخل الى اللغة العربية بعد عصر الاستشهاد ، وعمل العرب المولدون على تعريبه ، وهذا يعنى أن لفظ (الدخيل) يشمل كل من المعرب والمولد ويعمهما .

وإليك المسوغات والمرجحات التى بنينا عليها تقسيمنا هذا اللفظ الدخيل :

أولا : إنه تقسيم يتسم بالواقعية ، لأن كل لفظ أجنبى دخل الى اللغة العربية فهو (دخيل) ، ولا مجال للتمحل والتمحك ، والتلويح بأن ثمة ألفاظ أجنبيه دخلت الى العربية ولم تعرب ، بل حافظت على هيئتها ، ولم تخضع للميزان الصرفى ، ولا لعملية الاشتقاق والتوليد ، إذ أن من قاموا بنقل هذه الألفاظ من لغاتها الأجنبية ، دون تطويعها وإخضاعها لسمت الألفاظ العربية ، إنما هم من المحدثين المفتونين باللغات الاجنبية ، المشغوفين بها ، بل منهم من طالب بالأمس القريب ، أن تكتب العربية بحروف لا تينية ، بل منهم من دعا الي جعل اللغة العامية لغة الكتابة والآداب ؛ فهؤلاء ليسوا من سدنه اللغة العربية ، الزائدين عن حياضها ، الحريصين على بقائها وقوتها ؛ ومن ثم فلا يستشهد بما يقدمون عليه من ترهات وخزعبلات .

الثانى : إن علماء اللغة الأوائل ما كانوا يقرون بدخول لفظ أجنبى إلى لغتهم العربية ، إلا بعد تعريبه ، وإخضاعه لناموس الألفاظ العربية من ميزان صرفى واشتقاق ، وتوليد .... إلخ .

الثالث : إن العرب الفصحاء الخلص ، الذين يوثق بعربيتهم ، والذين يؤتمنون على قبول اللفظ الاجنبى، وتعريبه ، ثم نظمه فى سلك الالفاظ العربية ، هم الذين عاشوا خلال عصر الاستشهاد ، والذين اخذت عنهم اللغة ، وعلى كلامهم قعدت القواعد ، ومن ثم اطلق على ماقبلوه من الألفاظ الاجنبية ، وعربوه اسم (المعرب) ، وأخذ عنهم بكل ثقة واحترام .

الرابع : إن العرب الذين عاشوا بعد عصر الاحتجاج لم ينالوا من الثقة القدر الذى ناله وحظى به من عاشوا فى عصر الاستشهاد ، حيث بدأوا يختلطون بأهالى البلاد المجاورة ، واختلطت عربيتهم بلغات هؤلاء الجيران ، فقلت غيرتهم ، ولانت جلودهم ، وضعفت سليقتهم ، ولذا أطلق عليهم اسم (المولدون) ؛ فكل ما دخل الى العربية من الألفاظ الأجنبية ، وعمل هؤلاء المولدون على تعريبه ، وإخضاعه لقوانين الألفاظ العربية سمى (مولدا) لأنه عرب بمعرفه العرب المولدين ، وأنه ليس من القوة والثقة به بحيث يتساوى مع ماعربه سابقوهم فى قوته والثقة به .

الخامس : نعم ، ثمة ألفاظ أجنبيه دخلت إلى اللغة العربية ، وظلت محتفظة بشكلها وهيئتها ، واستخدمت فى الكلام العربى بالحالة التى كانت عليها فى لغتها الاصلية ، ولم يقم العرب باخضاعها لقوانين الألفاظ العربية ، وذلك لشدة الحاجة إليها فى أمور بعينها ، كالمصطلحات العلمية ، وأسماء الأدوية والعقاقير الطبية ، وبعض المسميات الهندسية والفنية ، ونظم الكومبيوتر ، وغيرها ؛ ولكن ذلك كان مشروطا بإقراره من قبل مجمع اللغة العربية ، المخول فى ذلك ، ويملك من الصلاحيات ما يسوغ له ذلك الإقرار ، وذلك بعد إدخال شئ من السمت العربى على اللفظ الأجنبى ، كما هو الحال فى ماسمى (المصدر الصناعي) كالديمقراطية ، والكيميائية والسوفسطانية ... الخ .

طريقة التعريب :

كان العرب القدماء عندما يضطرون الى استخدام لفظ أجنبى فى كلامهم ، فإنهم يعمدون الى تعريبه ، وذلك بأن يجروا عليه من التغييرات والتعديلات ما يجعله على نسق الألفاظ العربية فى نطقه ، وإعرابه ، واشتقاقه ، بحيث يصبح خاضعا لكل القوانين والأحكام التى يجرى تطبيقها

علي الألفاظ العربية ، إذ يقول عنه ابن جني : « هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب والتركيب وغير ذلك[١] ، ويقول الزمخشرى عن تعريب اللفظ الأجنبى أيضا : « أن يجعل عربيا بالتصرف فيه ، وتغييره عن مناهجه ، وإجرائه على أوجه الأعراب »[٢] ويقول الجوهرى - فيما نقله عنه السيوطى : « تعريب الاسم الأعجمى : أن تتفوه به العرب على منهاجها »[٣] ويقول جلال الدين السيوطى :

« إن كثيرا من الأحكام الجارية على اللفظ العربى ،تجرى على المعرب ، من تصرف فيه ، واشتقاق منه ؛ ألا تراهم قالوا فى جمع (لجام) - وهو معرب (لغام) - : لجم ، كقولهم : كتاب وكتب ؛ كما قالوا فى تصغيره : لجيم ، كقولك : كتيب ، ويصغرونه - مرخما : لجيم - على حذف زائده - ، ويشتق منه الفعل -أمراً وغيره - فتقول : ألجمه ، وقد ألجمه ؛ ويؤتى للفعل بمصدر ، وهو : الإلجام ؛ والفرس ملحم ، قال زهير :

* وَمُلْجَمًا مَا إِنْ يَنَالُ قَذَالَهُ *[٤]

ويتصرف فيه بالاستعارة ، ومنه الحديث : « التَّقِيُّ مُلْجَمٌ »[٥] . فهذا من الجام الفرس ، شبه التقى به لتقييده لسانه وكفه »[٦] ، وفى هذا يقول الاب روفائيل نخلة اليسوعى :

---

(١) الخصائص : ١/٣٤ .

(٢) النموذج : ١/١٧٣ .

(٣) المزهر : ١ / ٢٦٨ .

(٤) ومنه قول الشاعر :

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولى فرس للجهل بالجهل مسرج

(٥) انظر فى الحديث : الجامع صغير للسيوطى

(٦) الزهر : ١ / ٢٨٧ .

« لقد أبدى العرب القدماء شدة ذكائهم ، وغيرتهم على لسانهم ، إذ أغنوه بآلاف الألفاظ الأجنبية التى لم يكن فيه ما يؤدى معانيها : غير أنهم قد جعلوها على صيغ عربية ، أو شبيهة بالعربية ، ولهم من المهارة فى ذلك التحويل ما يقضى منه العجب »[١] ويقول عبد القادر المغربى :

« إن الكلمات الأعجمية التى وقعت للعرب ، فعربوها بألسنتهم ، وحولوها عن ألفاظ العجم الى ألفاظهم لتصبح عربية ، فيجرى عليها من الأحكام ما يجرى على تلك ، فتتوارد عليه علامات الإعراب ، إلا فى بعض الأصول : وتعرف بـ(أل) ، وتضاف ويضاف اليها ، وتثنى وتجمع ، وتذكر وتؤنث ؛ فوق ذلك كله تصرف أهل العربية فى الكلمة المعربة ، وإعمالهم مباضع الاشتقاق فى بنيتها ؛ وهذا عندى أبين الأدلة على كون المعرب فى اعتبارهم عربيا »[٢] ويقول الدكتور عبد الحميد الشلقانى :

« والمعرب ما هذب من ألفاظ اللغات الأخرى ، حتى أخذ شكل العربية ، وهيئتها ، وطاع للاشتقاق ، فجاء من الفعل فاعل ، وقد يأتى مفعول ، واسم مفعول ، وسار فى فلك العربية ، كما تشير ألفاظ هذه اللغة »[٣] .

* وبعد استعراضنا لكل هذه الأقوال حول تعريب اللفظ الأجنبى ، نلحظ أن أبا الفتح عثمان بن جنى قد جمعها كلها فى قولته الموجزة : « هو انتحاء سمت كلام العرب من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب والتركيب وغير ذلك »[٤] ، فلله در ابن جنى من عالم لغوى فذ ، لا يطاول شأوه ، ولايسبر غوره .

---

(١) غرائب اللغة : ٨٦ .

(٢) الاشتقاق والتعريب : ٤٩ .

(٣) مصادر اللغة : ٢٣٢ .

(٤) الخصائص : ٣٤/١ .

أما سيبوية – إمام أهل العربية – فيقول :

« إعلم أنهم يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة[1]، فربما الحقوه ببناء كلامهم ف (درهم) ألحقوه ببناء (هجرع)[2] ؛ و (بهرج)[3] ألحقوه ببناء (سلهب)[4] ؛ و (دينار) الحقوه ببناء (ديماس)[5] ؛ و(ديباج) الحقوه ببناء (ديماس) كذلك ، لما أرادوا أن يعربوه ببناء كلامهم .

كما يلحقون الحروف بالحروف العربية ، وربما غيروا حاله عن حاله فى الأعجمية فى إلحاقهم بالعربية غير الحروف العربية ، فأبلوا مكان الحرف الذى هو للعرب عربيا غيره ، وغيروا الحركة ، وأبدلوا مكان الزيادة ، ولايبلغون به بناء الكلمة ، نحو : آجر[6] ، وابرسيم[7] ، واسماعيل ، وسراويل .... وربما تركوا الاسم علي حاله إذا كانت حروفه من حروفهم – كان علي بنائهم أو لم يكن – نحو : خراسان ، وخرّم والكركم ؛ وربما غيروا الحرف الذى ليس من حروفهم ، ولم يغيروه عن بنائه فى الفارسية نحو : فرند ، وبقم ، وآجر ؛ وجربز »[8] .

* تمهيدا لما كان العرب الأوائل يقدمون به من اجراء التعديلات والتغييرات على اللفظ الاجنبى ليتسق مع اللفظ العربى ، على النحو الذى ساقه سيبويه، كان لزاما عليهم أن يعنوا بتميز هذه الألفاظ الدخيلة على لغتهم

---

(١) المقصود بالحرف هنا : الكلمة ، وكان هذا ملتزما فى حل مؤلفات ومصنفات اللغويين الأوائل ، كما هو واضح من نص كلام سيبويه هذا .

(٢) الهجرع : الأحمق .

(٣) البهرج : الشئ المباح ، وقيل : الردئ .

(٤) السلهب : الطويل .

(٥) الديماس : الحمام

(٦) الأجر : المادة التى تستخدم فى تثبيت الحجارة عند البناء (المونة) .

(٧) الابرسيم : نوع من الانسجة الحريرية .

(٨) انظر : الكتاب : ٣٤٢/٢ .

حتى يمكن الوقوع عليها لأول وهلة ، من قبل أنها لا تتسق مع نسيج الالفاظ العربية ، ومن ثم فقد حددوا لها علامات مميزة يمكن حصرها فيما يلى :

١ - أن تكون الكلمة على وزن يخالف الاوزان العربية ، كأن تكون على وزن (فُعَالان) نحو : خُرَاسان ، أو على وزن (فاعيل) نحو : آمين ، أو على وزن (فِعّلَل) نحو : درهم ، أو على وزن (إفْعِيلَل) نحو : ابريسم ، أو على وزن (فِعْلِيل) نحو : جبريل .... الخ .

٢ - أن تكون فاؤها (نون) وعينها (راء) نحو : نرجس ، ونرد ، ونرجيل ، ونورج .... الخ .

٣ - أن تنتهي بحرف (الدال) يتلوه مباشره حرف (الزاى) نحو : هندز ، ومهندز ، ثم قلبت زايه سينا فى العربية .

٤ - أن تجتمع فيها (الجيم) مع (الصاد) نحو : جص ، وصنج ، وصولجان ... الخ .

٥ - أن تجتمع فيها (الجيم) مع (القاف) نحو : المنجنيق ، والجوقة(١) ، والجردقة(٢) ، والجرمون(٣) ، والجوسق(٤) ، وجلق(٥) ... الخ .

٦ - أن تجتمع فيها حروف الذال ، والزاى ، والسين ، نحو : ساذج ....الخ .

٧ - أن تجتمع فيها (الطاء) مع (الجيم) . نحو : الطاجن ... الخ .

٨ - أن تكون رباعية أو خماسية مع خلوها من حروف الذلاقة(٦) ، نحو الجوسق ، والغطاس ... الخ(٧) .

---

(١) الجوقة : وعاء . وجمعها : جوائق .

(٢) الجردقة : رغيف الخبز .

(٣) الجرمون : ما يلبس فوق الخف .

(٤) الجوسق : القصر الكبير .

(٥) جلق : بلد بالشام ، بالقرب من دمشق .

(٦) حروف الذلاقة هي : الباء ، والدال ، والفاء ، واللام ، والميم ، والنون ، وتجمعها كلمة (فلنبرم) أو عبارة (مر بنفل) .

(٧) انظر : من أسرار اللغة : ١١١ - ١١٢ ، وفقه اللغة : ٢٠٦ .

* وتطبيقا على كلام سيبويه فى النص الذى استعرناه آنفا من كتاب ، نجد ان العرب كانت طريقتهم فى تعريب الألفاظ الأجنبية الدخيلة على لغتهم ، حتى تنسق مع طبيعة الالفاظ العربية ، وتنتظم فى سلكها أن يقوموا بإبدال الحروف الأعجمية التى لا وجود لها فى العربية ، حروفا آخرى عربية ، تكون قريبة فى مخرجها من مخرج اللفظ الأعجمى ، وذلك علي النحو التالى :

١ - أبدلوا الحرف الفارسى (پ P) فاء ، فقالوا : فرند السيف ، وربما أبدوله باء ، فقالوا : برند السيف ، وأصله : پرند ؛ كما قالوا : فور ، وأصلها : پور[١] .

٢ - أبدلوا (الكاف) الأعجمية - التى لا تشبه الكاف العربية فى النطق - جيما ، أو كافا عربية ، أو قافا : وكذا (الجيم) الأعجمية الخالية من التعطيش ، أبدلوها جيما عربية ، نحو (جورب) وأصلها : كورب ، أو قورب ؛ ونحو (جص)[٢] حيث أبدلوا الجيم الأعجمية صادا ، إذا الأصل (كج) وينطقها أهل الحجاز : قص .

٣ - أبدلوا (الشين) الفارسية سيناً ، فقالوا : دست للصحراء ، وهي فى الفارسية : دشت .

٤ - أبدلوا (الهاء) التى تنتهى بها بعض الألفاظ الفارسية ، والتى تقلب عند الجمع الى (الجيم) الخالية من التعطيش جيما ، فقالوا فى (بنده)[٣]: بندج، وفى (كوسة) : كوسج[٤] .

وفى هذا الصدد يقول أبو الحسين احمد بن فارس القزوينى :

---

(١) پور : اسم مدينة على الساحل الهند.

(٢) الجص : من جصص الجرو ، إذا فتح عينيه بعد ولادته .

(٣) البنده : العبد .

(٤) الكوسج : الذى لا شعر على عارضيه.

« إن (بور) ليس فى كلام العرب ، فلذلك يحتاج العربى – عند تعريبه اياه – أن يصيره (فاء) وكقولهم (توت) معرب توت أو توز ، فأبدلت العرب من (التاء) المثلثة ، و (الذال) المعجمة (تاء) ثنوية ، لأن التاء المثلثة ، والزاى المعجمة مهملان فى كلامهم : (الجص) فارسى معرب (كج) أبدلت فيه الجيم من كاف أعجمية لا تشبه كاف العرب ، والصاد من جيم أعجمية ، وبعضهم يقول (القص) وهو أفصح ، وهى لغة أهل الحجاز»[١] .

أسباب دخول الالفاظ الاجنبية الى اللغة العربية :

لايعقل أن ينتقل لفظ من لغة إلى اخرى من تلقاء نفسه ، بل لابد أن يكون وراء هذا النقل أسباب وعوامل تدفع به الى ساحة هذه اللغة الاخرى بحيث يتقبله اهلها ويحتضنونه ، ويستخدمونه فى لغتهم استخدامهم لالفاظهم الاصلية ، وبطريقتهم التى تخول لهم ذلك ؛ ولعل من أهم الأسباب والعوامل التى أدت الي دخول الفاظ أجنبية الى اللغة العربية ما يلى :

١ - طروء مستحدثات على العرب :

فقد أتيح للعرب من قبل الاسلام وبعده من فرص الاحتكاك بجيرانهم من الاراميين فى الشمال ، واليمنيين فى الجنوب ، والأحباش على الساحل الافريقى فى مجال السياسة ، والتجارة ، والصناعة ، والثقافة ، والاقتصاد ، وكثير من مناحى الحياة ، ما نجم عنه ظهور مستحدثات لم يكن للعرب ، ولا للغتهم عهد بها من قبل ، مما أدى الى انتقال كثير من الألفاظ والمفردات الآرامية واليمنية والحبشية ، الى اللغة العربية ، ولاسيما فى هذه المجالات التي كانت تعد جديدة على العرب آنذاك .

---

(١) الصاحبى : ٥٥ ، المزهر : ١ / ٢٧٣ .

٢ - الفتوح الاسلامية :

أتاحت الفتوح الاسلامية أيضا للعرب أن يحتكوا بأهالى البلاد المفتوحة ، الذين لم تتح لهم الفرصة للاتصال بهم ، الامتزاج معهم من قبل ، مما أدى الى ظهور مستحدثات كثيرة لم يكن العرب على عهد بها من قبل . فى محالات كثيرة كالسياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والإنتاج الفكرى ؛ فكان من نتيجة ذلك أن انتقل إلى اللغة العربية كم وفير من الألفاظ ومفردات اللغات الفارسية ، والسريانية ، واليونانية ، إبان عصر الاستشهاد ، ومن اللغات التركية ، والكردية ، والقبطية ، والبربرية ، والقوطبة ، بعد ذلك على أيدى المولدين .

٣ - الحروب الصليبية :

كما آتاحت الحروب الصليبية للعرب فرصة الاحتكاك باللغات الأوروبية عن طريق الغزاه الأوروبيين الذين انساحوا فى أرجاء الوطن العربى ، واختلطوا بالشعوب العربية ، وعاشوا بين ظهرانيهم فترة ليست بالقصيرة ، مما نتج عنه انتقال كثير من مفردات اللغات الأوروبية إلى اللسان العربى .

٤ - البعثات العلمية :

فقد توثقت فى العصور المتأخرة الروابط الاقتصادية والسياسية والثقافية بين شعوب أوروبا والبلاد العربية ، فتبودلت البعثات العلمية ، وكثرت الجاليات الأوروبية فى الشرق ، وترجمت إلى العربية مؤلفات الفرنجة فى شتى مناحى الحياة ، مما أدى الى انتقال مجموعة كبيرة من مفردات اللغات الأوربية إلى العربية ولاسيما فى شئون السياسة ، والاجتماع ، ومنتجات الصناعة ، ومصطلحات العلوم والفنون ... الخ[١] .

---

(١) انظر : فقه اللغة : ١٩٩ ومابعدها .

٥ - خفة الألفاظ الأعجمية ورشاقتها :

فقد وجد العرب فى بعض الألفاظ الأعجمية خفة ورشاقة فى النطق والاستعمال ، على حين لمسوا فى نظائرها العربية ثقلا وجفاء ، مما جعلهم ينصرفون عن هذه الألفاظ العربية ، وإحلال نظائرها الأعجمية محلها فى الاستعمال ، مما أدى إلى إهمال بعض الألفاظ العربية ، وإلقائها فى زوايا النسيان ، والاستعاضة عنها بالألفاظ الأعجمية ، وإليك أمثلة من الألفاظ العربية ومرادفاتها الأعجمية :

اللفظ العربى	مرادفه الأعجمى	اللفظ العربى	مرادفه الأعجمى
الحواجم	الورد	المقلى	الطاجن
العبهر	النرجس	التامورة	الابريق
السمسق	الياسمين	العين	الديدبان
المشموم	المسك	الصرفان	الرصاص
الفرصاد	التوت	المتعب	الميزاب
الحدج	الباذنجان	الدجر	اللوبيا
الإثط	الكوسج	السرطراط	الفالوذج[1]
المهراس	الهون		

٦ - التلطف والتظرف :

وذلك كأن يلجأ المتكلم إلى استخدام اللفظ الغريب عن لغته الأصلية تلطفا مع المخاطب وتظرفا ومثال ذلك قول الرسول الكريم - ﷺ - لأبى

---

(١) انظر : فقه اللغة : ٢٠٢ .

هريرة - رضى الله عنه - حينما رآه يتألم « شَكَمْ دَرْد »[1] ومعناه : هل وجع ببطنك؟[2] .

وبعد ، فلا ريب أن الافتراض أو التعريب بعد عاملا هاما من عوامل نمو اللغات وتطورها ، ووسيلة من وسائل إثرائها والتوسع فيها ، ولا تكاد تخلو منه لغة من لغات العالم ، لأن اللغة كائن حى ، تتطور بتطور المجتمع ، إذ هى وسيلة التعبير والتفاهم بين أفراد الشعب ، وأداة التعامل وتبادل الأفكار بين الشعوب على اختلاف أجناسهم وألوانهم .

ونظرا لما ارتآه مجمع اللغة العربية المصرى من أن للتعريب - فى عصرنا الحديث - فوائد تتلخص فى غنى اللغة العربية بذخيرة من الكلمات التى تعبر عن كل ظلال المعانى الإنسانية ، كما أنه يمدها بفيض من المصطلحات الحديثة ، التى لا تستغنى عنها فى نهضتنا العلمية ؛ فقد سمح بالتعريب ، لكنه قيده بالضرورة ، خشية أن تغمر لغتنا العربية بطوفان من الألفاظ الأجنبية مما قد يفقدها طابعها وخصائصها التى يعتز بها أبناء العرب ، حرصا على تراثهم الأدبى ، وعلى كتابهم المقدس الذى أنزل بلسان عربى مبين[3] .

لهذا وقف المجمع موقفا حكيما فى قراره الذى يقول :« يجيز المجمع ان تستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب فى تعريبهم[4] .

وقد شرح المغفور له الشيخ أحمد الاسكندرى هذا القرار بما يفيد قصر الرخصة التى تضمنها على حالات الضرورة حيث يقول :

---

(١) انظر فى الحديث : الجامع صغير للسيوطى

(٢) فى فقه اللغة العربية : ٢١٤ .

(٣) من أسرار اللغة : ١١٦ .

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية المصرى : ١/٣٣.

« فعبارة القرار تقتضى إجازة استعمال بعض الأعجمى فى فصيح الكلام ، وتقييده بلفظ (بعض) دون جنس الالفاظ ، يفيد أن المراد : الألفاظ الفنية والعلمية التى يعجز عن إيجاد مقابل لها ، لا الأدبية ، ولا الألفاظ ذات المعانى العادية التى يتشدق بها مستعجمة زماننا من أبناء العرب »[1] .

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٢٠٢ ومابعدها .

المبحث الثالث

قصة الإعراب



المبحث الثالث

قصة الإعراب

النحو هو الإعراب ، أو قل - إن شئت - : الإعراب هو النحو .

إذ لو رجعنا إلى ماهية النحو وجوهره ، لوجدنا أنه « معرفة العلاقات التى تربط بين الكلمات المكونة للتركيب اللغوى ، بحيث يفيد فائدة تامة يحسن السكوت عليها » .

وليس ثمة وسيلة يمكن بواسطتها التعرف على علاقة الكلمة بأخوانها فى التركيب ، إلا الوقوف على ما تشغله من وظيفة داخل ذلك التركيب : كما لا يمكن الوقوف على ما تشغله الكلمة فى التركيب إلا عن طريق معرفة موقعها الإعرابى فيه ، إذ به تتحدد وظيفتها من حيث الفاعلية ، أو المفعولية ، أو الإضافة ، ولا يفتأ دارس اللغة يدرس النحو منذ المراحل الأولى للتعليم . حتى يصل إلى أعلى الدرجات العلمية بغية التوصل إلى معرفة الوظيفة النحوية التى تناط بالكلمة داخل التركيب اللغوى ، حتى يقف على ما بينها وبين أخواتها من علاقة ، مما يفضى - فى النهاية - إلى الخروج من التركيب بفائدة تامة يحسن السكوت عليها من قبل المتكلم والمخاطب كليهما ، فضلا على ما يتعلق بهذه الوظائف النحوية للكلمة من قضايا ، وما يتفرع عنها من بحوث ودراسات . وعن الإعراب يقول ابن فارس القزوينى :

«أما الإعراب ، فبه يتميز المعانى ، ويوقف على أغراض المتكلمين : وذلك أن قائلا لو قال (ما أحسن زيد) غير معرب ، أو (ضرب عمرو زيد) غير معرب ، لم يوقف على مراده ؛ فإذا قال (ما أحسنَ زيداً) أو (ما أحسنُ زيدٍ) أو (ما أحسنَ زيدٌ) أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده »[1] وعنه يقول ابن جنى :

---

(١) الصاحبى : ١٩٠ .

« هو الإبانة عن المعانى بالألفاظ ؛ ألا ترى أنك إذا سمعت (أكرم سعيدً آباه) و (شكر سعيدًا أبوه) علمت - برفع أحدهما ، ونصب الآخر - الفاعل من المفعول ، ولو كان الكلام شَرْجاً[١] واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه »[٢] .

ولقد تعرض الإعراب لموجات كثيرة من هجمات النقد التفنيد الشرسة ، ليس من جانب اللغويين الأجانب فحسب ، بل من جانب اللغويين العرب كذلك ، ولاسيما أن باكورة هذه الهجات كانت على أيدى أبناء العربية أنفسهم ؛ ولو وقف الأمر عند حد النقد والثلم من جانب غير العرب ، لالتمسنا لهم العذر فى عدم إلمامهم بكوامن اللغة العربية ، والوقوف على أسرارها وخصائصها ، التى تكمن فى ظاهرة الإعراب على وجه أخص ، ولكن حين تأتى سهام التنفيد والتشكيك من العرب أنفسهم ، وهم أبناء العربية ، وسدنتها، الغيورون عليها ، والزائدون عن حياضها ؛ فهذا الذى لا يقبل معه عذر ، ولايجدى معه تسمح .

فقد كان أول السهام العربية الموجهة للإعراب صادرا عن محمد بن المستنير المعروف بقطرب ، المتوفى سنة ٢٠٦ هجرية[٣] ، الذى تربى على علم سيبويه وكتابه ، وهو الذى أطلق عليه اسم (قطرب) . لما كان يعود من صلاة الفجر فيجده قابعا أمام بيته ينتظر عودته ، فيقول له : أنت كقطرب ليل[٤] : إذ يقول قطرب :

« أعربت العرب كلامها ، لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وقفه بالسكون لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ،

---

(١) شَرْجاً : نمطا ، ونوعا .

(٢) الخصائص : ٣٥/١ .

(٣) أنظر ترجمته ص ٢٢٦ .

(٤) القطرب : دويبة صغيرة ، تلزم حجرها نهاراً ، وتسعى فى طلب طعامها ليلا .

وكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للاسكان ليعتدل الكلام ؛ ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ، ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ، ولا فى حشو بيت ..... »[1] .

ثم جاء السهم الثانى من ابن مضاء القرطبى ، المتوفى سنة ٥٩٢ هجرية[2] ، الذى ألف كتابا سماه (الرد على النحاة)[3] يدعو فيه إلى إلغاء الإعراب فيما سماه (العامل) ، وكذا استبعاد العلل الثوانى والثوالث ، وحذف بعض الأبواب من النحو العربى كالممنوع من الصرف ، والاشتغال والتنازع .... الخ ؛ فضلا على ما أضفناه على النحاة من صفات ونعوت أقلها الكفر والإلحاد ؛ ولكن بالرجوع إلى المصادر التاريخية ، يتضح لنا أن ما أقدم عليه ابن مضاء لم يكن – فى حقيقته – موجها إلى النحو والنحاة لذاتهما ، وإنما كان موجها إلى هدم النحو باعتباره الأداة التى بها يتوصل إلى فهم فقه أهل المشرق ، لما بين النحو والفقه من صلات ووشائج ، نظرا لاعتناقه مذهب أهل الظاهر ، الذى كانت تدين به دولة الموحدين التى كانت تحكم الأندلس آنذاك ، وكان هو يشغل منصبا مرموقا فيها ، وعن هذا يقول الدكتور شوقى ضيف – محقق كتاب (الرد على النحاة) – :

« من يرجع إلى نصوص كتاب (الرد على النحاة) يلاحظ ملاحظة واضحة أن صاحبه ثائر على المشرق ، وهى ثورة تعتبر امتدادا لثورة سيده عليه ، وأيضا فإنه يلاحظ نزعه ظاهرية فى قضايا الكتاب مما يؤكد صلة

---

(١) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى : ٧٠ .

(٢) أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمى القرطبى ، ولى بقرطبة سنة ٥١٣ هجرية ، كان مقرئا مجودا ، ومحدثا مكثرا ، أخذ النحو عن ابن الرماك وغيره ، ألف كتاب (الرد على النحاة . توفى بأشبيلة سنة ٥٩٢ هجرية (بغية الوعاة : ١ / ٣٢٣) .

(٣) حققه الدكتور شوقى ضيف سنة ١٩٤٧ ، تم حققه الدكتور محمد ابراهيم البنا سنة ١٩٧٩ ميلادية .

صاحبه بثورة الموحدين على كتب المذاهب ، ومن يعرف ؟ ربما كان ابن مضاء أحد المؤلبين على هذه الثورة ، إن لم يكن المؤلب الأول ، كما يقضى بذلك منصبه ... ، والغريب أنه لم يُعْنَ بتأليف كتاب ضد فقه المشرق ، وإنما عنى بالتأليف ضد النحو الشرقى ، فقد صب عنايته كلها على النحو »[1] .

وقد ظن كل من قطرب ، وابن مضاء أنه سوف يفلت بجريمته ، وأنه سوف يكون بمنأى عن ملاحقة الأصوليين من علماء العربية ، الغيورين عليها ، الزائدين عن حماها ، ولكن أنى لهما ذلك ؟! فقد تصدى لقطرب أكثر من عالم ، وعمدوا إلى الرد عليه ، وتفنيد دعواه ، وإبطال حجته ، كأحمد بن فارس القزوينى الذى يقول :

« من العلوم الجليلة التى حظيت بها العرب : الإعراب ، الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولانعت من توكيد ؛ وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالإخبار . وقد يكون الإعراب فى غير الخبر أيضا ، لأنا نقول : أزيد عندك ؟ وأزيداً ضربتَ ، فقد عمل الإعراب ، وليس هو من باب الخبر»[2] .

ومن الغيورين أيضا على لغتهم العربية أبو الفتح عثمان بن جنى[3] الذى يقول :

« الإعراب : هو الإبانة عن المعانى بالألفاظ ، ألا ترى أنك إذا سمعت (أكرم سعيدٌ أباه) و (وشكر سعيداً أبوه) ، علمت - برفع أحدهما ، ونصب الآخر - الفاعل من المفعول ، ولو كان الكلام شَرْجاً واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه .

(١) مقدمة تحقيق (الرد على النحاة) : ١١ .
(٢) الصاحبى : ٧٦ .
(٣) أنظر ترجمته ص ١٥٨ .

فإن قلت : فقد تقول : ضرب يحيى بشرى ، لا تجد هناك إعرابا فاصلا ، وكذلك نحوه .

قيل : إذا اتفق ما هذه سبيله ، مما يخفى فى اللفظ حاله ، ألزم الكلام من تقديم الفاعل ، وتأخير المفعول ، ما يقوم مقام الإعراب .

فإذا كان هناك دلالة أخرى من قِبَل المعنى ، وقع التصرف فيه بالتقديم والتأخير نحو : أكل يحيى كمثرى ، لك أن تقدم أو تؤخر كيف شئت ؛ كذلك : ضربتْ هذا هذه ، وكلم هذه هذا ؛ وكذلك إن وضح الغرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرف نحو قولك : أكرم اليحييان البشريين ، وضرب البشريين اليحيون ؛ وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس فقلت : كلم هذا هذا فلم يحيه ، لجعلت الفاعل والمفعول أيها شئت ، لأن فى الحال بيانا لما نعنى ؛ وكذلك قولك : ولدت هذه هذه ، من حيث كانت حال الأم من البنت معروفة ، غير منكدوة ؛ وكذلك إن ألحقت الكلام ضربا من الأتباع ، جاز لك التصرف ، لما تعقب من البيان نحو : ضرب يحيى نفسه بشرى ، أو كلم بشرى العاقل مُعَلَّى ، أو كلم هذا وزيدا يحيى . فهذا طرف من القول أدى إليه ذكر الإعراب »[1] .

ويتصدى أبو القاسم الزجاجى[2] لدعوى قطرب ، فى كتابه التى سماه (الايضاح فى علل النحو) حيث يقول : « لو كانت الحركة قد دخلت للتخفيف عن اللسان ، بحيث تعقب الحركة سكونا ، لماذا لم يلتزم العرب حركة واحدة؟!

فإن قيل : لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم ، فأرادوا الاتساع فى الحركات ، ولايحظروا على المتكلم الكلام بحركة واحدة ، كما قال قطرب .

---

(١) الايضاح فى علل النحو : ٧ .

(٢) أبو الحسن على بن محمد بن على الخضرمى الإشبيلى ، ولد بإشبيلية سنة ٥٢٤ هجرية ، من المبرزين فى اللغة والنحو ، أخذ النحو عن ابو طاهر ، ألف : شرح كتاب سيبويه ، وشرح الجمل للزجاجى ، وتنزيه أئمة النحو مما نسب إليهم من الخطأ واللغو توفى بإشبيليه سنة ٦٠٩ هجرية (الأعلام : ٥/١٥٠) .

يرد عليه بأنه لو كانت الخبرة للمتكلم فى التحريك ، لكان جائزا جر الفاعل مرة ، ورفعه أخرى ، ونصبه ثالثة ، وجائز نصب المضاف إليه ، لأن القصد فى هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل بها الكلام فأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته ، وفى هذا فساد للكلام ، وخروج به عن أوضاع العرب ، وحكمة نظمهم فى كلامهم »[١] .

أما ابن مضاء القرطبى ، فقد تصدى للرد عليه ابن خروف النحوى[٢] ، إذا ألف كتابا سماه (تنزيه أئمة النحو مما نسب إليهم من الخطأ واللغو) يفتد فيه دعوى ابن مضاء ، ويلاحقها بالنقد ، ويدمغها بالبطلان والبهتان ، كما تصدى للرد عليه أيضا الأستاذ على النجدى ناصف[٣] فى كتابه (من قضايا اللغة والنحو) حيث ساق عددا غير قليل من الآيات القرآنية التى لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بالإعراب ، من مثل قوله :

« إن هناك صيغا كثيرة تختلف معانيها باختلاف حركاتها ، فالآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ ﴾[٤] إن قرئت بجر (رسولِه) تؤدى إلى الكفر ، وإن قرئت برفع (رسولُه) أو نصبه تؤدى إلى المعنى المستقيم ، والآيات القرآنية التى تختلف معانيها باختلاف حركاتها كثيرة جداً[٥] .

كما تصدى لدعوى ابن مضاء أيضا الأستاذ عباس حسن[٦] فى كل من

(١) الإيضاح فى علل النحو : ٧ .

(٢) تنقل ترجمة ابن خروف ، وهو رقم (٢) فى صفحة ٢٦٩ .

(٣) لغوى مصرى ، تخصص فى دراسة اللغة والنحو ، عمل أستاذ بكلية دار العلوم ، ألف : من قضايا اللغة والنحو ، وسيبويه إماما النحاة ، ونشأة النحو ، وحقق كتاب (المحتسب) لابن جنى توفى سنة ١٩٨٥ ميلادية .

(٤) سورة التوبة من الآية ٣ .

(٥) من قضايا اللغة والنحو : ١١ .

(٦) لغوى مصرى ، تخصص فى دراسة اللغة والنحو ، عمل أستاذا بكلية دار العلوم ، ثم عضوا بمجمع اللغة العربية المصرى ، ألف : النحو الوافى ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ، وتوفى فى السبعينات من هذا القرن .

كتابيه (اللغة والنحو بين القديم والحديث) و (النحو الوافى) وإن كاد الرد فى صورة دفاع عن الإعراب ، دون الهجوم المباشر على معارضيه .

وربما كانت مهاجمة الإعراب من جانب اللغويين العرب أنفسهم ، هى التى أغرت اللغويين الأجانب بالتطال على اللغة العربية ، ومحاولة الانتقاص من قدرها ، والحط من شأنها ، ممثلة فى ظاهرة الإعراب ؛ من هؤلاء الأجانب المستشرق الألمانى كارل ڤولرز K. Vollers[1] . والعالم الفرنسى مارسيل كوهين Marcel Cohene اللذان ذهبا إلى أن ظاهرة الإعراب لم تكن مراعاة إلا فى لغة الآداب من شعر ونثر وخطابة ، أما لهجات الحديث فكانت منذ أقدم عصورها غير معربة ، بل لقد ذهب ڤوللرز إلى أن القرآن الكريم نزل أول الأمر بلهجة مكة المجردة من ظاهرة الإعراب ، كما ذهب كوهين إلى أن تشعب قواعد الإعراب ، ودقتها ، وصعوبة تطبيقها وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة ، وعلاقتها بعضها ببعض ، لا يعقل أنها كانت مراعاة فى لهجات الحديث لأن لهجات الحديث تتوخى - فى العادة - السهولة واليسر ، وتلجأ إلى أقرب الطرق للتعبير .

كما يستدل بعض آخر على صحة هذه الدعوى ، بأن جميع اللهجات العامية المنشعبة من العربية ، والتى تستخدم الان فى الحجاز ونجد واليمن ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب مجردة من الإعراب . فلو كانت لهجات المحادثة العربية القديمة معربة ، لا نتقل شئ من نظامها هذا الى جميع اللهجات الحاضرة أو إلى بعضها .

كما يستدلون أيضا بأن قواعد هذا شأنها تشعبا ودقة ، لا يعقل أن تكون قد نشأت من تلقاء نفسها ، ولا يمكن لعقلية ساذجة كعقليات العرب فى

(١) مستشرق المانى ، ولد سنة ١٨٥٧ ميلادية . عمل أستاذا للغات الشرقية بجامعة ڤيينا ، حقق الانتصار لواسطة عقد الامصار لابن دقماق ، وسيرة ابن طولون لابن سعيد المغربى ، وعمل فهرس المخطوطات الشرقية فى مكتبة ليبزيج توفى سنة ١٩٠٩ ميلادية (المستشرقون لنجيب العقيقى : ٢/٢٦٣٣) .

عصورهم الأولى أن تقوى على خلقها ، فهى تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة ، ويبدو عليها طابع من عقلية المدارس النحوية التى ظهرت فى العصور الاسلامية بالبصرة والكوفة وما إليها[١] .

وما يؤسف له أن قام فريق من اللغويين العرب فى العصر الحديث ، وبعضهم ممن تربوا على أفكار هؤلاء الأجانب بحكم دراستهم فى الغرب ، أو افتتانهم بما ينادون به ويدعونه ، ظنا منهم أن حمل أفكار هؤلاء الفرنجة ونشرها إنما هو سمة الفَرْنَجَة والتحرر الفكرى ، وإن كان الهدف منه الانتقاص من قيمة اللغة العربية ، وسلبها ما تمتاز به على غيرها ، من خصائص وإمكانات ، إذ قام ذلك الفريق ينسج على متوال اللغويين الغربيين ، ويعمل على تأييد دعواهم ونشرها ؛ حيث يذهب الاستاذ أحمد أمين إلى أن النحو نفسه غامض فى تشوئه كل الغموض . وأن قصة وضعه تشبه قصة وضع النحو الهندى ، وأن الروايات العربية التى تؤرخ لهذا الوضع تختلف فى تحديد من وضع النحو ، ومن سماه بهذه التسميه ، وبإشارة من فعل ذلك ، وما هو السبب الذى حمله على وضعه[٢] .

ثم يأتى الاستاذ ابراهيم مصطفى[٣] ، فينتهج نهج ابن مضاء . إذ يؤلف كتابا باسم (إحياء النحو) يقصره على بعث دعوى ابن مضاء من جديد ، فيدعو الى الغاء الاعراب ممثلا فى (نظرية العامل) ، وإلى استبعاد العلل النحوية ، وتخليص النحو من بعض الأبواب التى يرى أنه لا طائل من وراء دراستها سوى شغل أذهان الطلاب وكدها ، تنفير من دراسة النحو ،

---

(١) فقه اللغة : ٢١١ ، وفقه اللغة العربية وخصائصها : ١٢٩ .

(٢) ضحى الاسلام : ٢/٢٨٥ .

(٣) لغوى مصرى ، ولد سنة ١٨٨٨ ميلادية ، تخصص فى دراسة اللغة والنحو ، عمل أستاذا بكلية دار العلوم ثم عميدا لها ، ثم عضوا بمجمع اللغة العربية المصرى : ألف إحياء النحو ، وتحرير النحو العربى ، وحقق : إعراب القرآن للزجاج ، وسر صناعة الاعراب لابن جن ، توفى سنة ١٩٦٢ ميلادية .

كالممنوع من الصرف ، والاشتغال ، والتنازع حيث يقول عن (نظريه العامل) :

« لن تجد هذه النظرية - من بعد - سلطانها القديم فى النحو ، ولا سحرها لعقول النحاة ، ومن استمسك بها فسوف يحس ما فيها من تهافت وهلهلة ، وستخذله نفسه حين يبحث عن العامل فى مثل التحذير والإغراء ، أو الاختصاص أو النداء ، ثم يرى أنه يبحث عن غير شئ .

تخليص النحو من هذه النظرية وسلطانها هو عندى خير كثير ، وغاية تقصد ، ومطلب يسعى إليه ، ورشاد يسير بالنحو فى طريقه الصحيحة ، بعدما انحرف عنها آماداً ، ويكاد يصد الناس عن معرفة العربية ، وذوق ما فيها من قدرة على الأداء ، ومزية فى التصوير »[1] ثم يقول عما دعا إلى حذفه من أبواب النحو :

« والفكرة التى شرحناها تيسر النحو ، وتقربه الى الطالب ، وتقتصر عددا من أبوابه ، وتستغنى عن كثير من مباحثه ، ثم تضع القواعد على أساس مستقر من الصلة بين الإعراب والمعنى ، فإذا أخذ الطالب بمراقبة تلك الصلة ، ونبه إليها ، كان قريبا أن تكون منه بمنزلة السليقة .... ، فإذا كان كذلك الإعراب ، أمين الزلل فيه أو قل ، ولم يكن من سبيل إلى هذا الخلاف الكثير ، والجدل الطائر الشرر بين النحاة ، فإن الحكم المعنى ، لانظريات من الفلسفة تدعى »[2] .

ثم يأتى الرد على هؤلاء الذين يهاجمون الإعراب ، ويدعون إلى تخليص النحو من (نظرية العامل) ، ومن العلل النحوية ، من جانب أحد علماء القرن الرابع الهجرى ، وكأنما كان يحس أو يتوقع أنه سوف يحل زمان يتجرأ فيه

---

(١) إحياء النحو ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٩٥ .

نفر من أحفاد أحفادهم ، ويعيب عليهم مسلكهم الذى انتهجوه فى دراسة وتدريس النحو ؛ ألا وهو أبو الفتح عثمان ابن جنى ، الذى أفرد لذلك بابا مستقلا فى كتابه (الخصائص) سماه « فى الرد على من اعتقد فساد علل النحويين لضعف هو فى نفسه عن إحكام العلة » يقول فيه :

« إعلم أن هذا الموضوع هو الذى يتعسف بأكثر من ترى . وذلك أنه لايعرف أغراض القوم ، فيرى لذلك أن ما أورده من العلة ضعيف واه ساقط غير متعال .

وهذا كقولهم : يقول النحويون إن الفاعل رفع ، والمفعول به نصب ، وقد ترى الأمر بضد ذلك ؛ ألا ترانا تقول : ضُرِبَ زيدٌ ، فنرفعه وإن كان مفعولا به ؛ وتقول : إن زيداً قام ، فننصبه وإن كان فاعلا ؛ ونقول : عجبت من قيام زيدٍ ، فنجره وإن كان فاعلا ؛ ونقول أيضا : قد قال الله - عز وجل - : « ومن حيث خرجت »[١] فرفع (حيث) وإن كان بعد حرف الخفض؛ ومثله عندهم فى الشفاعة قوله - عز وجل - : « لله الأمر من قبل ومن بعد »[٢] وما يجرى هذا المجرى[٣] .

ومثل هذا يتعب مع هذه الطائفة ، لاسيما إذا كان السائل عنه من يلزم الصبر عليه . ولو بدا الأمر بإحكام الأصل ، لسقط عنه هذا الهوس وذا اللغو ؛ ألا ترى أنه لو عرف أن الفاعل عند أهل العربية ليس كل ما كان فاعلا فى المعنى ، وأن الفاعل عندهم إنما هو كل اسم ذكرته بعد الفعل ، وأسندت ، ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم ، وأن الفعل الواجب وغير الواجب فى ذلك سواء ، لسقط صداع هذا المضعوف السؤال .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٤٩ ، والآية ١٥٠ .

(٢) سورة الروم : من الآية ٤ .

(٣) الخصائص : ١٨٤/١ .

وكذلك القول على المفعول أنه إنما ينصب إذا أسند الفعل إلى الفاعل ، فجاء هو فضلة ، وكذلك لو عرف أن الضمة فى نحو : حيث ، وقبل ، وبعد ، ليست إعرابا ، وإنما هى بناء . وإنما ذكرت هذا الظاهر الواضح ، ليقع الاحتياط فى المشكل الغامض »[١] .

ومع انتصاف هذا القرن أخرج الدكتور ابراهيم أنيس[٢] كتابا سماه (من أسرار اللغة) وأفرد الفصل الثالث منه للحديث عما سماه (قصة الاعراب) ، التى استهل حديثه عنها متعجبا متهكما حيث يقول : « ما أروعها قصة ! »[٣] ، ثم استطرد قائلا :

« لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ، ثم حيكت وتم نسجها حياكة محكمة فى أواخر القرن الأول الهجرى ، أو أوائل الثانى ، على يد قوم من صناع الكلام ، نشأوا وعاشوا معظم حياتهم فى البيئة العراقية ؛ ثم لم يكد ينتهى القرن الثانى الهجرى حتى أصبح الإعراب حصنا منيعا ، امتنع حتى على الكتاب والخطباء والقراء من فصحاء العربية ، وشق اقتحامه ، إلا على قوم سموا فيما بعد بالنحاة »[٤] . ثم يقول :

« ولم يقتصر عمل أولئك الذين أسسوا قواعد الإعراب على السماع ، والجمع ، واستنباط الأصول ، بل قاسوا ما لم يسمعوا على ما سمعوا ، وأسرفوا فى قياسهم ، وابتكروا فى اللغة أصولا وقواعد ، رغبة منهم فى أطراد الإعراب ، وانطباقه على كل أسلوب ، أو انطباق كل أسلوب عليه ، حتى تمت لهم المجموعة الضخمة من أصول إعرابية دقيقة ، ورّثوها من بعدهم ، وربما لم يكن يدور فى أذهانهم أن من جاءوا بعدهم سيتعبدون بها ، ويحلونها مكان التقديس والعبادة »[٥] . ثم يستطرد قائلا :

---

(١) المصدر السابق : ١/ ١٨٥ . (٢) سبقت ترجمته ص ١٥٩ .
(٣) من أسرار اللغة : ١٨٣ . (٤) المصدر السابق . (٥) المصدر نفسه : ١٨٤ .

« ونظرنا فإذا القرون تتوالى ، والإعراب يعلو شأنه ، فتعددت فيه الآراء ، واحتدم حول مسائله النقاش والجدل ، وصارت قواعده فى آخر الأمر معقدة ، شديدة التعقيد ، وقد تفنى الأعمار دون الإحاطة بها ، أو السيطرة عليها سيطرة تامة ، وصرنا الآن ننفر منها ، لما اشتملت عليه من تعسف وتكلف . بغّض إلى الكثيرين دراسة اللغة العربية فى العصر الحديث ، حتى قام منا من يدعو الى الغاء تلك القواعد الاعرابية ، أو تيسيرها على المتعلمين من الناشئين »[١] .

ثم يذهب الدكتور أنيس إلى أن الحركة الاعرابية لا مدلول لها ، ولا أثر لها فى تحديد المراد من التركيب اللغوى ، حيث يقول :

« لم تكن تلك الحركة الإعرابية تحدد المعانى فى أذهان العرب القدماء - كما يزعم النحاة - بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها - فى كثير من الأحيان - لوصل الكلمات بعضها وبعض ... ويكفى للبرهنة عن أن لا علاقة بين معانى الكلام وحركات الإعراب ، أن تقرأ خبرا صغيرا فى إحدى الصحف على رجل لم يتصل بالنحو أى نوع من الاتصال ، فسترى أنه يفهم معناه تمام الفهم مهما تعمدنا الخلط فى إعراب كلماته برفع المنصوب ، ونصب المرفوع ، أوجره ..... الخ »[٢] .

ثم يقرر الدكتور أنيس أن السبيل إلى تحديد المعنى فى التركيب اللغوى هو نظام الجملة العربية ، والموضع الخاص المحدد لكل لفظة فيها[٣] ؛ وهذا ما نادى به - فيما بعد - الدكتور تمام حسان[٤] فى كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) فيما سماه بفكره (القرائن) ، والتى قصر كتابه برمته على الاستدلال لها وإقرارها ، كبديل لنظرية (العامل) ، والتى يخلص منها الى

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) من أسرار اللغة : ٢٢٥ .

(٣) من أسرار اللغة : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٤) لغوى مصرى ، تخصص فى دراسة اللغة والنحو ، عمل أستاذا بكلية دار العلوم ، ثم عميدا لها ، ثم عضوا بمجمع اللغة العربية المصرى ، ألف : اللغة العربية معناها ومبناها ، والأصول ، واللغة بين المعيارية والوصفية ، كما حقق كتاب (اللغة والمجتمع) لميشيل لويس ، ويعمل حاليا ، بمعهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بمكة المكرمة .

الدعوة التى نادى بها ابن مضاء القرطبى من إلغاء نظرية العامل ، واستبعاد العلل الثوانى والثوالث من النحو العربى .

ثم جاء بعد هذا الفريق نفر سخر قلمه ، وشحذ تفكيره ، وقصر جهده على النيل من اللغة العربية ممثلة فى ظاهرة الإعراب ، وكأنها السوءة التى اقترفها النحاة العرب فاستحقوا الرجم ، أو الجريمة النكراء التى ارتكبت فى حق اللغة فا ستحقوا العذاب والتنكيل ؛ من هؤلاء النفر:أنيس فريحة[1] ، الذى ألف كتابين سمى الأول (تبسيط قواعد اللغة العربية) ، وسمى الآخر (نحو عربية ميسرة) ينتهى فيها إلى القول بأن الإعراب إن هو إلا زخرف لغوى ، لا أثر له فى تصوير المعنى[2] ، ومنهم : فؤاد ترزى[3] ، الذى ألف كتابا سماه (فى أصول اللغة والنحو) يؤيد فيه ما ذهب إليه قطرب من أن الإعراب لا فائدة من ورائه إلا اعتدال الكلام بالتناوب بين الحركات والسكون[4] . ومنهم أيضا : داود عبده الذى ألف كتابا سماه (أبحاث فى اللغة العربية) يدعى فيه أن الوقوف على المعانى النحوية كالتعجب ، والاستفهام ، والنفى ، ليس سبيله الحركة الإعرابية ، وإنما سبيله التنغيم ، إذ أن الاستفهام يلفظ بطريقه مختلفة عن الإخبار ، النفى ، والتعجب[5] . وهؤلاء جميعا من اللبنانيين .

وفى العراق ، ألف عامر رشيد السامرائى كتابا سماه . (آراء فى

---

(١) لغوى وأديب لبنانى ، ولد فى رأس المقدر من أعمال جبل لبنان سنة ١٩٠٢ ميلادية ، نال شهادة الدكتوراه فى اللغات السامية من جامعة شيكاغو ، ألف : تبسيط قواعد اللغة العربية ، ونحو عربية ميسرة ، ونظريات فى اللغة .

(٢) تبسيط قواعد اللغة العربية : ٥٠ .

(٣) لغوى لبنانى ، ولد فى غزة سنة ١٩١٤ ميلادية . يعمل أستاذا للغة العربية بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ألف : الاشتقاق ، ودراسات لغوية ، والأصوات العربية ومخارجها . (فقه اللغة العربية وخصائصها : ١٩٦) .

(٤) فى أصول اللغة والنحو .

(٥) أبحاث فى اللغة العربية : ١١٤ .

العربية) ادعى فيه أن الإعراب لم يكن يراعى إلا فى لغة الآداب ، دون لغة الخطاب، فيما نقله عن أصحاب هذا الرأى ، وإن أخذ فى دفعه فى مواطن أخرى من كتابه[1] .

وفى مصر ، ألف الدكتور محمد كامل حسين . أستاذ جراحة العظام وعضو مجمع اللغة العربية المصرى كتابا سماه (اللغة العربية المعاصره) ، لم يخرج فيه عما نادى به سابقوه من الدعوة إلى إلغاء الإعراب ، واستبعاد العلل النحوية ، وتخليص النحو من بعض الأبواب[2] .

ولكن العربية لا تعدم أن تجد يوما ما من يدافع من أجلها ، ويذود عنها، ويرد عن حماها سهام المعتدين ، وغائلة المغرضين ، فيقوم بالرد على ما أثير حول أخص خصائصها ، وأجل ما امتازت به على غيرها من اللغات ، مما أكسبها قدرة على التعبير . ودقة فى الأداء ، ووضوحا فى تحديد المعنى المراد ، ألا وهو الإعراب ؛ ولا يسعنا بعد هذا العرض المسهب لما تعرضت له « نظرية الإعراب » إلا أن نثبت ما جمعه الدكتور على عبد الواحد وافى ، من أدلة تدفع كل ما أثير حول الإعراب من نقود وتفانيد ، حيث يقول :

« وقد تبين فساد (هذه الإدعاءات)[3] لجميع المحققين من الباحثين ، حتى لأكثرهم تحاملا على الساميين وأشدهم ولوعا بالانتقاص من حضارتهم ولغاتهم ، مثل رينان الفرنسى ، وإليك طرفا من الأدلة التى لا تدع مجالا للشك فى فسادها :

---

(١) آراء فى العربية : ٦٧ .

(٢) صدر الكتاب عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦ .

(٣) بدلا مما بين القوسين فى الاصل (هذين المذهبين) ، ولكنا أثرنا ما أثبتناه ليتفق مع سياق الكلام .

١ - إن عدم وجود هذه القواعد فى اللهجات العامية الحاضرة ، لاينهض دليلا على أنها لم تكن موجودة فى العربية الأولى ، فقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها فى هذه اللهجات كثير من صنوف التغيير والانحراف ؛ وخضعت لقوانين التطور فى مفرداتها وأوزانها ودلالاتها ، فبعدت بعدا كبيرا عن أصلها .

٢ - وليس بغريب أن تتفق اللهجات العامية جميعا فى التجرد من علامات الإعراب ، فقد خضعت لقانون من قوانين التطور الصوتى وهو « ضعف الأصوات الأخيرة فى الكلمة وأنقراضها » وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغات الإنسانية فى تطورها ، فما كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات العامية المتشعبة من العربية .

٣ - على أنه قد بقى فى اللهجات العامية الحاضرة كثير من آثار الإعراب ، وخاصة الإعراب بالحروف (فيقال مثلا فى عامية المصريين وغيرهم (أبوك ، وأخوك) لا (أبك ، وأخك) ، وينطق بجمع المذكر السالم مع الياء والنون فيقال : الطيبين المؤمنين ... الخ ؛ وفى معظم لهجات العراق، ونجد والحجاز فى العصر الحاضر ، ينطق بالأفعال الخمسة مثبتة فيها نون الإعراب فيقال : يمشون ، تمشون ، تمشين ؛ وروى بعض الباحثين أن آثار الحركات الإعرابية لاتزال باقية فى لهجات بعض القبائل الحجازية فى العصر الحاضر .

٤ - يستفاد من كثير من كتب التاريخ ، وبخاصة كتب أبى الفدا ، أن بعض علامات الإعراب ظلت باقية فى بعض لهجات المحادثة المتشعبة عن العربية حتى أواخر العصور الوسطى .

٥ - إن دقة القواعد وتشعبها لا يدلان مطلقا على أنها مخترعة ، فاليونانية واللاتينية مثلا فى العصور القديمة ، والألمانية فى العصر الحاضر ،

تشتمل كل منها على قواعد لا تقل فى دقتها وتشعبها عن قواعد اللغة العربية ، ولم يؤثر هذا فى انتقالها من جيل الى جيل عن طريق التقليد ، ولا فى مراعاتها فى الحديث ، ولم يقل أحد إنها من خلق علماء القواعد .

٦ - إن خلق القواعد خلقا محاوله لا يتصورها العقل ، ولم يحدث لها نظير فى التاريخ ، ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل أو يتصور نجاحها ، فمن الواضح أن قواعد اللغة ليست من الأمور التى تخترع أو تفرض على الناس، بل تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج .

٧ - إن علماء القواعد العربية لم يكونوا على علم باللغة اليونانية وقواعدها ، ولم تكن لهم صلة بعلماء القواعد من الإغريق ؛ هذا إلى أن قواعد اللغة العربية تختلف فى طبيعتها ومناهجها اختلافا جوهريا عن قواعد اللغة اليونانية ، فلو كانت قواعد العربية قد اخترعت على غرار القواعد اليونانية - كما يزعمون - لجاءت متفقه معها ، أو على الأقل مشبهة لها فى أصولها ومناهجها .

٨ - يدلنا التاريخ أن علماء البصرة والكوفة كانوا يلاحظون المحادثة العربية فى أصح مظاهرها ، ويستنبطون قواعدهم من هذه الملاحظة ؛ وأنهم كانوا لا يدخرون وسعا فى دقة الملاحظة ، واتخاذ وسائل الحيطة ، حتى إنهم ما كانوا يتقون بأهل الحضر لفساد لغتهم ، ولا بالقبائل التى احتكت ألسنتها بلغات أجنبية كلخم ، وجذام ، وقضاعة ، وغسان ، وإياد، وبكر ، وأزد عمان ، وأهل اليمن ، وأنهم كانوا يبذلون فى سبيل ذلك كثيرا من وقتهم وجهودهم ، فكانوا يرحلون إلى الأعراب فى باديتهم ، ويقضون عندهم الشهور بل السنين ، وعلماء هذا شأنهم دقة وإحتياطا ، واخلاصا للعلم ، لا يعقل أن يتواطئوا جميعا على مثل هذا الإفك المبين .

٩ - وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطئوا جميعا على ذلك ، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه قد تواطأ معهم عليه جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئا ما عن هذا الاختراع العجيب ؛ ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة لقواعد لغتهم ، ويحتذونها فى كتاباتهم ؛ اللهم إلا إذا كان علماء البصرة الكوفة قد سحروا عقول الناس ، واسترهبوهم ، وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها ، فجعلناهم يعتقدون أن ماجاءوا به من الإفك ممثل لفصيح هذه اللغة .

١٠- إن النقوش التى كشفت حدثيا فى شمال الحجاز لتدلنا أقطع دلالة على أن الاعراب كان مستخدما فى (العربية البائدة) نفسها ، فبعض العلامات الإعرابية قد رمز لها فى هذه النقوش بحروف ملحقة بآخر الكلمة .

١١- لم تنفرد اللغة العربية من بين أخواتها الساميات انفرادا كاملا بنظام الإعراب ، فلهذا النظام آثار فى اللغات الحبشية السامية ، وبخاصة فى الجعزية ، والأمهرية ، بل إن له آثارا فى العبرية والآرامية ؛ صحيح أن هذه الآثار محدودة ضئيلة ، وأنها تختلف اختلافا غير يسير عن نظام الاعراب فى اللغة العربية ، ولكن وجود أثر لهذا النظام فى لغة سامية ، لاتزال لغة حديث إلى الوقت الحاضر . كاللغة الأمهرية واللغة العبرية . مهما كان هذا الأثر ضئيلا ، وعلى أية صورة كانت أوضاعه ، دليل قاطع على أنه منحدر من الأصل السامى الأول ، وليس من خلق النحاة .

١٢- تقوم أوزان الشعر العربى وقواعده الموسيقية على ملاحظة نظام الاعراب فى المفردات ، فبدون إعراب الكلمات تختل أوزان هذا الشعر ، وتضطرب موسيقاه ؛ ومما لاشك فيه أن هذه الأوزان سابقة لعلماء

البصرة والكوفة وأن شعرا عربيا كثيرا قد قيل على غرارها من قبل الاسلام ومن بعده ، قبل أن يخلق هؤلاء العلماء ؛ فإنكار هذا الشعر لا سبيل إليه ، ولايمكن أن يكون قد ألف غير معرب الكلمات ، لأن عدم إعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه ، واختلال موسيقاه .

١٣- وأقوى من هذا كله في الدلالة على فساد هذا الرأى ، تواتر القرآن الكريم ، ووصوله إلينا معرب الكلمات .

١٤- وإن في رسم المصحف العثماني نفسه - مع تجرده من الإعجام والشكل - لدليلا على فساد هذا الرأى ، وذلك أن المصحف العثماني يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف نحو (المؤمنون ، والمؤمنين ....) وعلامات المنصوب المنون نحو (رسولاً ، وشهيدًا ، وبصيرًا ،....) وهلم جرا ، ولاشك في أن المصحف العثماني قد دون في عصر سابق - بأمد غير قصير - لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب اليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الاعراب .

ثم يردف الدكتور وافي[1] هذه الأدلة التي ساقها تأييدا لكون الاعراب من أجل خواص اللغة العربية ، وأنه ليس من ابتكار قوم نشأوا في البصرة والكوفة في أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثاني ، بقوله :

« فنظام الإعراب عنصر أساسي من عناصر اللغة العربية ، وليس من إلهام عبقرى ، ولا من اختراع عالم ، وإنما تكون في صورة تلقائية في

---

(١) عالم مصرى لغوى اجتماعي ، حصل على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، عمل أستاذا ورئيسا لقسم الاجتماع بكلية الآداب - جامعة القاهرة - ثم عمل وكيلا للكلية ، ثم عميدا لكلية الآداب بجامعة أم درمان ، ثم عميدا لكلية التربية بجامعة الأزهر ، أنتخب عضوا بالمجمع الدولي لعلم الاجتماع ، ألف أكثر من أربعين مؤلفا أهمها : فقه اللغة ، وعلم اللغة ، ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ، واللغة والمجتمع ، وعلم الاجتماع ، والأسرة والمجتمع ، توفى سنة ١٩٩١ ميلادية .

أحقاب طويلة ، كما يتكون اللؤلؤ فى جوف الأصداف ، وكما تتكون الأحجار الكريمة فى فلزات الأرض الطيبة : وقد اشتملت عليه هذه اللغة منذ أقدم عهودها ، وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصا من القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وكلام الفصحاء من العرب ، ورتبوها ، وصاغوها فى صورة قواعد وقوانين[1] .

وينهى الدكتور عبده الراجحى[2] حديثه عما أثير حول الإعراب ممثلا فى (نظرية العامل) بقوله :

« إن فكرة (العامل) فى النحو العربى ليست بعيدة عن الدرس الواقعى للغة ، وليست بحيث كانت تستحق كل ما كتب فيها من نقد ، على أن بعض ما وجه إليها من نقد ، لم يكن يقصد - فيما نظن - إلى (إحياء النحو) أو (تيسيره) أو (إصلاحه) ، وليس هذا مجال التفصيل[3] .

---

(١) انظر : فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى : ٢١١ ، ٢١٥ .

(٢) عالم مصرى ، تخصص فى دراسة اللغة والنحو ، عمل أستاذا بكلية الآداب فى جامعة الاسكندرية، ثم عميدا لكلية الآداب فى جامعة بيروت العربية ، ألف : فقه اللغة فى الكتب العربية ، والنحو العربى والدرس الحديث ، والتطبيق النحوى ، واللهجات العربية فى القراءات القرآنية .

(٣) فقه اللغة فى الكتب العربية : ١٥٩ .

المبحث الرابع

الثنائية اللغوية

عند العرب



المبحث الرابع

الثنائية اللغوية عند العرب

أجمع اللغويون والمؤرخون – العرب منهم والأجانب – على أنه كان لدى العرب – منذ العصر الجاهلي – مستويان من اللغة :

الأول : لغة الخطاب ، وهى اللغة التى كانت مناط الاستخدام داخل القبيلة ، لا تتعداها إلى قبيلة أخرى فبها يتعامل أفراد القبيلة ، ويتفاهمون فى كل أمور حياتهم المعيشية ، ويصرفون شئونهم اليومية .

الثانى : لغة الأدب . وهى اللغة التى يصوغ بها النابهون من أفراد القبيلة إنتاجهم الأدبى من الشعر والنثر الذى يتناقله الرواة بين القبائل : حيث يتجاوز حدود القبيلة ألى غيرها من القبائل الاخرى : ومن ثم كان لزاما أن يتخلص من الخصائص اللغوية المحلية ، التى يشيع استخدامها داخل القبيلة ، حتى يمكن فهمه واستيعابه فى كل قبائل الجزيرة العربية، وهذا ما أطلق عليه غالبية اللغويين فى العصر الحديث اسم (اللغة المشتركة) .

إذ لوصاغ كل شاعر أو ناثر إنتاجه الفكرى بلغة قبيلته المحلية بما فيها من كشكشة ، أو كسكسة ، أو عنعنة ، أو عجعجة ، أو تلتلة ، إلى غير ذلك من الظواهر اللغوية المحلية التى اقتصر استخدام كل منها على قبيلة بعينها دون غيرها من القبائل ، لما كتب لإنتاجه الانتشار والبقاء ، لعدم إمكان فهم مضمونه ، والوقوف على المعنى الذى يرمى إليه الأديب ؛ بل ما كان الشاعر أو الناثر قادرا على أن يقف ليلقى إنتاجه على مسامع الناس فى الأسواق المعروفة مثل : عكاظ ، ومجنه ، وذى المجاز ، والمربد فى البصرة ، ويجد من يستمع إليه ، ويتفاعل مع إنتاجه قبولا أو رفضا : بل ما كان فى مكنته أن

يلقى إنتاجه السنوى أمام النابغة الذبيانى فى قبته الحمراء ، ومن بعده الراعى النميرى ، ليجيزه كشاعر بقوله (أحسنت) ، أو السكوت عنه ، فلا يعدو لمثلها بعد ذلك ؛ ومن ثم نلحظ أن كل ما تناقله الرواة من شعر القبائل ، الذى روى دون تنقيه من الظواهر اللغوية الخاصة بالقبيلة ، لايعود أبياتا متفرقه ، أو مقطوعات متناثرة ، فى وسط الخضم الهائل من آلاف القصائد والمعلقات التى وصلتنا تترى من العصر الجاهلى ، ومثال ما وصلنا من شعر قبيلة أسد حاملا معه ظاهرة الكشكشة قول شاعرهم قيس بن الملوح يشبه ليلى بظبية :

فَعَيْنَاشِ عَيْنَاهَا ، وَجِيدِش جِيدُهَا   سِوَى أَنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْشِ دَقِيقُ[1]

يريد أن يقول : عيناك ، وجيدك ، ومنك . وماورد حاملا تلتلة بهراء قول شاعرتهم علباء بنت أرقم :

يَاقَاتَلَ اللهُ بَنِي السَّعْـــلَاتِ

عَمْرَوَ بْنَ يَرْبُوعٍ شِرَارَ النَّاتِ

غَيْرَ أَعِفَّاءٍ وَلَا أَكْيَـــــاتِ[2]

تقصد : شرار الناس ، ولا أكياس . وماورد حاملا عجعجة قيس قول شاعرهم :

لَاهُمَّ إِنْ كُنْتَ قَبِلْتَ حِجَّتِـجْ

فَلَا يَزَالُ شَاحِجٌ يَأْتِيكَ بِـجْ

أَقْمَرُ نَهَّاتٌ ، يُنَزِّي وَفْرَتِجْ[3]

يريد : حجتى ، يأتيك بى ، وفرتى ، وقول الآخر :

---

(١) خزانة الأدب : ٤ / ٥٩٥ .

(٢) الخصائص : ٢/٥٣ .

(٣) شرح شواهد العينى : ٤ / ٥٧٠ .

خَالِى عُوَيْفٌ وَأَبُو عَلِجّ
المُطْعِمَانِ اللَّحْمَ بِالعَشِجّ(١)

يريد : أبو على ، العشى .

ولذا فإن هذه الأبيات القليلة النادرة ، كانت دائما مناط بحوث ودراسات على مر العصور ، وينص عليها دون غيرها فى كتب الأدب والتاريخ ، وهذا ما كتب لها الحياة ، والبقاء إلى يومنا هذا ، وإلا كان مصيرها زاوية من زوايا النسيان ، حتى تموت كمامات غيرها من الأشعار القبلية المحلية .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن فى ساحة البحث اللغوى هو : كيف تكونت هذه اللغة المشتركة ؟ وأى الأماكن اتخذته موطنا لها ؟ ولماذا ؟

والجواب على الجزء الأول من السؤال ، هو أن اللغة المشتركة لا تنتسب فى أصل نشأتها - إلى قبيلة بعينها وإنما كانت نسبتها إلى جميع قبائل الجزيرة العربية على قدم المساواة ، فحينما كان العرب من مختلف القبائل يلتقون فى أماكن تجمعهم ، حيث الهجرة من مواطن القحط والمجاعات لانعدام نزول المطر ، أو فى ميادين القتال ، أو فى مرافئ التجارة وتبادل المنافع ، أو فى الأسواق مثل : عكاز ، ومحبة ، وذى المجاز ، ودومة الجندل ، والمشقر ، وهجر ، وعمان ، وصحار ، والشحر ... ناهيك عن موسم الحج . وما كان يتم فيه من تجمع القبائل حول الكعبة والمناسك ؛ فحين يجد الرجل من قبيلة تميم أنه لايوجد بين القوم من يستخدم العنعنة فى كلامه سواه ، فإنه يطرحها ، ولايكاد ينطقها بين الحاضرين ، خشية أن يقابل من الناس بالسخرية والاستهزاء وكذلك الرجل من قبيلة ربيعة حين لايجد أحدا من الناس يستخدم الكشكشة فى كلامه إلا هو ، فيضطر إلى الإقلاع عنها ، وتجنب النطق بها ، حتى لايكون موضع التندر والتفكة من القوم ؛ ومثله الرجل من قيس حيث يطرح العجعجة ، والرجل من بهراء يطرح التلتلة ؛ وهكذا

(١) الكتاب : ٢٨٨/٢ .

نشأت لغة خاصة بهذه التجمعات التى تمثل فيها قبائل الجزيرة العربية جمعاء ، لغة خالية من جميع الظواهر اللغوية الخاصة لكل قبيلة دون غيرها من القبائل منتقاه من الكشكة ، والكسكسة و العنعنة ، والعجعجة ، والتلتة ، وما إلى ذلك : حتى إذا رجع الرجل إلى قبيلته ، عاد إلى استخدام الظواهر اللغوية الخاصة بها فى خطابه مع أهله وأفراد قبيلته .

ولعل مما يؤيد ما ذهبنا إليه ، ما نراه اليوم من تجمع العمالة الوافدة إلى دول الخليج ، حيث إن لكل طائفة من الوافدين ظواهر لغوية خاصة بالقطر الذى وفدوا منه ، يستخدمونها مع ذويهم وأهل بيتهم الأصلية ، ولاتفهم إلا بين أهليهم ومواطنيهم ؛ ولايحاولون استخدامها فى محال عملهم الجديدة ، وإلا كانت مدعاة للاستهزاء بهم ، والسخرية منهم ؛ فمثلا فى مصر حينما يؤدى الطلاب امتحانا فى مادة ما ، ثم يلتقون خارج لجنة الامتحان متوترين، خائفين ، مترقبين ، ثم يلحظون أن أحدهم هادئ البال ، مطمئن النفس ، ليس خائفا ولا وجلا ، فيسألونه عن سبب هدوئه واطمئنانه ، فيجيبهم : لقد ذاكرت المادة كلها ، وراجعتها قبل الامتحان ، وأجبت عن كل الأسئلة ، فيقول له أحدهم (بعضرك مطمئن) ، ويقول آخر (أجرنك مطمئن) ويقول ثالث (آتاريك مطمئن) ويقول رابع (علشان كده مطمئن) ؟ فلو التقى هؤلاء جميعا فى تجمع كمنطقة الخليج ، لوجدوا السورى واللبنانى يقولان فى نفس مثل هذا الموقف (علشان هيك مطمئن) ووجدوا الفلسطينى والأردنى يقولان فيه (علشان هاد مطمئن) ؛ ولو قارنوا بين هذه العبارات جميعا لوجدوا أن أقربها وأيسرها على اللسان هى (علشان كده مطمئن) ، فيقلع الجميع عن لوازمهم اللغوية التى أتوا بها من بلادهم ، وأصبحوا يستخدمون هذا التعبير الميسور ، ومن ثم يشيع استخدامه على ألسنة الجميع فى هذه البيئة الجديدة .

كما نجد السورى يقول - مثلا - (تركت التدخين بنوب) ويقول القاهرى

(تركت التدخين خالص) ويقول الصعيدى (تركت التدخين واصل) فلو جمع بينهم محفل ، أو تجمع عمل فى منطقة ما ، لتخلى السورى عن كلمة (بنوب) وتخلى القاهرى عن كلمة (خالص) ، وتخلص الصعيدى عن كلمة (واصل) وقال الجميع (تركت التدخين بالمرة) ؛ وأصبحت كلمة (بالمرة) مشتركة بين الجميع فى البيئة الجديدة ؛ وكذلك الحال مع كلمة (رجل) فى مصر ، و (زنمة) فى الشام ، (زول) فى السودان ، فإذا عاد الجميع إلى أوطانهم ، بعثت الألفاظ المطروحة من جديد ، وظهرت فى محادثاتهم مع ذويهم ومواطنيهم .

وبهذه الطريقة نشأت اللغة المشتركة بين قبائل الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ، وبعد ظهور الاسلام .

أما الإجابة على الجزء الثانى من السؤال ، وهو الموطن الذى انتشرت فيه اللغة المشتركة ، فلا ريب أن البقعة التى اتخذت منها اللغة المشتركة موطنا لها هى قبيلة قريش بصفته عامة ، ومكة المكرمة على وجه الخصوص ؛ ولا يتسنى لأحد - مهاساق من دلائل ، أو تذرع بحجج أن يمارى فى ذلك ؛ وإن اختلفت نظرة العلماء إلى الأسباب والعوامل التى هيأت قبيلة قريش لكى تكون موطنا لهذه اللغة المشتركة ، إذ منهم من عزاها إلى عامل (دينى) ، ومنهم من عزاها الى عامل اعجازى ، ومنهم من عزاها إلى عامل سياسى اقتصادى دينى ، وذلك على التفصيل الاتى :

أولا : العامل الدينى

وإليه ذهب اللغويون القدامى ، ويمثلهم ابن فارس القزويى ، وأبو الفتح ابن جنى ، إذ يريان أن الله تعالى قد حبا قريشا بالفصاحة والبيان والصفاء اللغوى ، حيث اختار منهم نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - ، ثم سادت لغة قريش لغات جميع القبائل الأخرى قبل الإسلام ، حيث يقول ابن فارس :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وإيلهم ومحالهم ، أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله - جل ثناؤه - اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم ، واختار منهم نبى الرحمة محمدا - ﷺ - ، فجعل قريشا مكان حرمه ، وجيران بيته الحرام ، وولاته ؛ فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحامون إلى قريش فى أمورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم ، وتحكم بينهم ، ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم ، وتسميها (أهل الله) لأنهم الصريح من ولد اسماعيل بن ابراهيم - عليهما السلام - ولم تشبهم شائبة ... وكانت قريش - مع فصاحتها ، ورقة ألسنتها ، وحسن لغاتها - إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ؛ ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم ، ولاعجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذى تسمعه من أسد وقيس مثل : يعلمون ، ويعلم ، ومثل : شِعير ، وبِعير »[1] . وعن هذا يقول ابن جنى :

« حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبى العباس احمد بن يحيى ثعلب قال : « ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشةربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء »[2] .

مما تقدم يتضح أن كلا من ابن فارس ، وابن جنى يذهبان إلى أن القرشيين كانوا مطبوعين على الفصاحة بالفطرة ، وأن لهجتهم كانت - فى أصلها - خالية من الظواهر اللغوية الخاصة بكل قبيلة من القبائل الأخرى ، ومرد ذلك أن النبى - ﷺ - اختير منهم ، وهم سكان حرم الله ، وجيران بيته الحرام .

---

(١) انظر : الصاحبى : ٣٣ .

(٢) انظر : الخصائص : ٢/١١ .

ثانيا : العامل الإعجازى :

وبه يقول مصطفى صادق الرافعى ، ومنه يفهم أن الله - جل وعلا - كان يعد قريشا للمكانة التى تليق بها بين القبائل العربية ، حتى تكون أهلا لأن يبعث منهم النبى محمد - ﷺ - حيث يقول :

« ..... ولا يسع المتأمل فى الأدوار التى تعاقبت على قريش فى تهذيبها اللغة ، إلا أن يستسلم للدهشة ، ويحار من أمر هذا التعاقب ، فإنه كالسلم المدرجة ، تنتهى الدرجة منها الى درجة على نمط متساوق من الرقى ، إن لم يكن عجيبا فى تاريخ أمة متحضرة ، فهو عجيب - على الخصوص - فى تاريخ العرب ، ولاسيما إذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة ، وأنها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة إلى مائة وخمسين على الأكثر ؛ فلا بد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعى ، ظهرت نتيجتها بعد ذلك فى نزول القرآن بلغة قريش ، وهو أفصح الأساليب العربية بلا مراء ، والله يحكم بما يشاء ويقدر »[1] .

ففى النص المتقدم ، يذهب الرافعى إلى أن الله - تبارك وتعالى - قد هيأ لقريش من أسباب الفصاحة وصفاء اللغة ، وبلاغة الأسلوب ، ما يعد تمهيدا لكى يبعث رسوله محمدا - ﷺ - من بينها ونزول القرآن الكريم الذى سوف يتحدى به العرب - مع كونهم ملوك الفصاحة ، وفرسان البيان .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى : ٨٢ .

ثالثا : العامل السياسى الاقتصادى الدينى :

وإليه ذهب الدكتور طه حسين ، حيث يقول :

« فالمسألة إذن هى أن نعلم أسادت لغة قريش ، ولهجتها فى البلاد العربية ، وأخضعت العرب لسلطانها فى الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسط ونقول إنها سادت قبيل الاسلام ، حين عظم شأن قريش ، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة ، مقاومة للسياسة الأجنبية التى كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية ... وأن قريشا كان لها سلطان سياسى حقيقى ، ولكنه قوى فى مكة وما حولها ، وهذا السلطان السياسى كان يعتز بسلطان اقتصادى عظيم : فقد كان مقدار عظيم جدا من التجارة فى يد قريش ، وكان هذا السلطان ، وكان هذا السلطان يعتز بسلطان دينى قوى مصدره الكعبة التى كان يحج إليها أهل الحجاز من عرب الشمال ؛ فقد اجتمع لقريش إذن سلطان سياسى ، واقتصادى ، ودينى ، وأخلق بمن يجتمع له هذا السلطان أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية ... لغة قريش إذن هى اللغة العربية الفصحى ، فرضت على قبائل الحجاز فرضا لا يعتمد على السيف ، وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية ؛ وكانت الأسواق التى يشار إليها فى كتب الأدب ،، كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش »[1] .

وبعد هذا العرض المسهب لما ارتآه القدامى والمحدثون من أسباب اختصاص قريش باللغه المشتركة ، مما أطلق عليه اسم (لغة الأدب) ، فإننا نرى - كما قلنا آنفا - أن هذه اللغة المشتركة لم يكن لها وجود إلا حيث تتجمع عناصر من شتى القبائل العربية فى محفل أو مجتمع أو موسم ، إذ يحتاجون إلى التخطاب والتفاهم بلغة موحدة ، خالية من الظواهر اللغوية

---

(١) فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين : ١٣٣ - ١٣٦ .

الخاصة ، التى تنفرد بها كل قبيلة ، مما يجهله غيرها من القبائل ، وهذا التجمع لم يكن منوطا على مدار العام إلا بقبيلة قريش دون غيرها من القبائل ، مما جعل منها موطنا دائما لهذه اللغة المشتركة ، ومرد اختصاصها بهذا التجمع القبلى على مدار العام عوامل ثلاثة :

الأول : كونها ملتقى طرق التجارة :

وذلك لتوسط موقع قبيلة قريش على الطريق الى أسواق الدولة البيزنطية فى الشمال ، وأسواق اليمن والحبشة والهند فى الجنوب ، مما جعلها ملتقى قوافل التجارة من الجنوب إلى الشمال والعكس ، حيث كانت القوافل تتخذ منها محطة لا لتقاط الأنفاس ، والراحة من وعثاء السفر ، وللتزود بالماء والطعام ، وما يتبع ذلك من تبادل التجارة بين هذه القوافل وتجار قريش أنفسهم ، وأبرز دليل على ذلك ، تلك الحادثة التى من أجلها أنعقد حلف الفضول فى الجاهلية الذى تمنى الرسول - عليه السلام - أن لو أدركه ودخل فيه ؛ هذا فضلا على ماكان يقوم به تجار قريش أنفسهم من رحلات تجاريه إلى الشمال فى الصيف ، وإلى الجنوب فى الشتاء ، مما نص عليه القرآن الكريم .

الثانى : الأسواق :

معلوم أنه كانت للعرب أسواق على مدار العام - فى الجاهلية والإسلام - يلتقى فيها التجار من جميع قبائل الجزيرة العربية للتجارة ، وتبادل السلع ، والمناظرات ، والمنافرات ، والتحكيم فى الشعر ؛ من هذه الأسواق : دومة الجندل ، والمشقر ، وهجر ، وعمان ، وصحار ، والشحر ، ولكن كان أشهرها : عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز ، ومربد البصرة . حيث تواترت الروايات أنه كانت تنصب فيها للنابغة الذبيانى ، ومن بعده الراعى النميرى ، قبه حمراء ، ثم يقف الشاعر ليلقى عليه إنتاجه الشعرى الذى أنتجه طول

العام ، فإذا استحسنه المحكم قال له (احسنت) ، وتعد هذه الكلمة بمثابة الاجازة له ، والاعتراف به كشاعر ، فتقيم قبيلته الأفراح والزينات والمهرجانات لمدة أربعين يوما ابتهاجا بأنه قد نبغ فيها شاعر ، سوف يدافع عن أحسابهم وأنسابهم ، ويرد عنهم غائلة الهجائين من شعراء القبائل الاخرى ؛ أما إذا سكت عنه المحكم ، ولم يرد عليه ، فلا يحق له أن يقرض الشعر بعد ذلك ، أو يزاوله .

ففى هذه الأسواق كان لامناص من أن يتم التبادل التجارى ، والتعامل الأدبى بلغه مشتركة ، مفهومه لدى جميع القبائل ، خالية من كل الظواهر اللغوية القبلية الخاصة .

وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية ، والمراجع الجغرافية ، لعلمنا أن غالبية هذه الأسواق كانت تقام فى قبيلة قريش ، أو قريبا منها ، ولاسيما الشهيرة منها ؛ وعلى ذلك يكون أغلبه تجمعات القبائل يتم بين ظهرانى قبيلة قريش ، وماحولها من المناطق المتاحة لها .

ثالثا : موسم الحج :

حيث إن الكعبة المشرفة كانت مناط التقديس والتبجيل لدى العرب على مر العصور - فى الجاهلية والإسلام - حيث كانوا يطلقون عليها اسم (بيت الله) ، وكانت كل قبيلة تحتفظ عندها بصنم أو أكثر ، يحجون إليه ، ويتبركون به ، ويقدمون له القرابين كل عام فى موسم الحج ، إذ كانوا يعتقدون فى هذه الاصنام انها تقربهم إلى الله زلفى ، وقد تواترت الروايات عن أن الأسلام قد جاء وكانت القبائل تحتفظ حول الكعبة بثلاثمائه وأربعة وستين صنما ! ومن ثم كانت مكة المكرمة - وهى حاضنة الكعبة المشرفة ، وحاضره قبيلة قريش - ملتقى القبائل جميعا من كل أنحاء الجزيرة العربية فى موسم الحج لتأدية المناسك ، وتبادل المنافع ؛ كل هذا ورهط قريش هم فسكان حرم الله -

وجيران بيته ، وسدنته ، والقائمون على سقاية الحجيج ، ورفادته ، حتى كان العرب يطلقون عليهم اسم (أهل الله) لأنهم الصريح من ولد اسماعيل بن ابراهيم - عليهما السلام - .

وجاء الاسلام ، فزادت الكعبة مجدا فى نفوس المسلمين ، وقدسيه فى قلوبهم ، كما زادت مكة مكانة وشرفا فى نفوس العرب ، وغير العرب من المسلمين ، وتدعم دور قريش فى السدانة ، والسقاية ، والرفادة ، وأصبح يؤمها العرب وغيرهم من الجزيرة العربية ، والبلاد المجاورة التى شرفت بالفتح الاسلامى ، مما جعل منها ملتقى الحجيج من شتى بقاع الأرض ، ومختلف أقطار المعمورة ، ليقضوا تفثهم ، ويوفوا نذورهم ، ويطوفوا بالبيت العتيق .

كل هذه العوامل الثلاثة ، جعلت من قبيلة قريش موطنا للغة المشتركة ، التى يتخاطب بها ويتفاهم جميع القبائل المختلفة فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، تلك اللغة المهذبة ، المصفاه ، المتقاه من كل الظواهر اللغوية الخاصة ، التى انفردت بها كل قبيلة عما سواها من القبائل الاخرى ، والتى اطلق عليها - فيما بعد - اسم (اللغة الفصحى) أو (لغة الآداب) .

عود على بدء

هذا الذى فصلنا فيه القول ، هو ما اعتمد عليه الذين يدعون الى إلغاء (الاعراب) ، من قولهم أنه كانت هناك ثنائية لغوية عند العرب : لغة للخطاب ، ولغة للآداب ، وبه يستدلون على أن (الإعراب) لم يكن سليقه عند العربى ، بل لم يكن يلتزمه فى خطابه أو محادثته ، وإنما هو من صنع قوم من صناع الكلام ، نشأوا وعاشوا معظم حياتهم فى البيئة العراقية ، وذلك فى أواخر القرن الأول الهجرى ، أو أوائل الثانى ، وقد سموا - فيما بعد - بالنحاة[1] .

---

(١) من أسرار اللغة : ١٨٣ .

ومعنى قولهم هذا ، أن الإعراب لم يظهر فى اللغة إلا بعد انتشار الإسلام بقرن من الزمان على أقل تقدير ، ودليل بطلان هذه الدعوى يكمن فيما يلى :

١ - إن اللغة المشتركة المهذبة والمعربة ليست وليدة أنتشار الإسلام ، وإنما تمتد جذورها إلى آماد بعيدة فى العصر الجاهلى ، وتستمد قدمها من قدم رحلات التجارة ، وقيام الاسواق ، ومواسم الحج .

٢ - إن القرآن الكريم نزل بهذه اللغة المشتركة المعربة ، ولا التفات لما يدعيه المستشرق الألمانى كارل فولرز K. Vollers ومن تابعه فى دعواه ، من أن القرآن الكريم نزل - أول الأمر - خاليا من الإعراب[١] ، وإلا فكيف كان يتسنى للعربى أن يفهم قول الله - تعالى - : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[٢] على وجهه الصحيح ؟! ثم لماذا إذن فزع أبو الأسود الدؤلى عندما سمع الرجل يقرأ قوله - تعالى - : « إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ » بكسر لفظه (رسوله) ؟! ، بل لماذا أمسك الرجل بالمؤذن حين سمعه يقول : « أشهد ان محمدا رسولَ الله » بنصب لفظ (رسول) قائلا له : يفعل محمد ماذا ؟! لماذا إذن كان يحدث هذا دون أن يكون ثمة إعراب ؟!! .

٣ - إذا لم يكن القرآن الكريم قد أنزل - من أول الأمر - معربا ، فكيف يستدل على صحة قواعد الإعراب ؟ إذ كيف يعقل ان يعربه العلماء بحسب قواعدهم التى وضعوها ، ثم يعودون فيحتجون به على صحة تلك القواعد؟!!![٣] .

---

(١) فقه اللغة العربية وخصائصها : ١٢٩ .

(٢) سورة فاطر : من الآية ٢٨ .

(٣) فقه اللغة العربية وخصائصها : ١٣١ .



المبحث الخامس

الدعوة إلى العامية



المبحث الخامس

الدعوة إلى العامية(*)

لم يقف جهد المناوئين للغة العربية ، الداعين الى النيل منها ، والساعين الى تشويه صورتها ، والحط من شأنها عندما كتبوه وما سطروه ، بل ما أفردوا له كتبا برأسها ، متمثلا فى الدعوة الى الغاء (ظاهرة الإعراب) التى هى من أخص خصائص اللغة العربية ، والتى تفردت بالاحتفاظ بها ، وصيانتها ورعايتها ، دون أخواتها الساميات ، باعتبارها السبيل الوحيد لفهم كتاب الله الكريم ، وسنة رسوله المصطفى - ﷺ - .

وكان المأمول والمعتقد أن ينتهى الامر عن هذا الحد ، ولكن الامل تبدد ، والاعتقاد تلاشى . عندما كشف القوم عن نواياهم الحقيقية ، وافصحوا عن مكنون ضمائرهم ، حينما استمروا فى دعواهم ، ودأبوا على مطالبهم ، حتى انتهى بهم الامر الى المطالبة بنبذ اللغة الفصحى كلية ، وإحلال اللهجة العامية محلها ، لتكون هى اللغة الرسمية المستخدمة فى الدواوين ، والاداب ، والرسائل ، والبحوث العلمية : وهنا يبرز الهدف الحقيقى من وراء الدعوة الى تيسير اللغة العربية ، وتسهيل قواعدها ، وإن هى إلا دعوة حق أريد بها باطل ، أو قل - إن شئت - : دعوة ظاهرها الرحمة ، وباطنها من قبله العذاب والخراب .

ولو بحثنا عن بواكير التفكير في اللغة العامية ، لوجدنا أن التفكير فيها ، والاهتمام بها ، ليس وليد العصر ، وإنما تمتد جذوره الى القرن الثانى

(*) أود أن أنبه إلى أنني قد اعتمدت اعتمادا مباشرا على ما أورده الزميل الفاضل الاستاذ الدكتور إميل بديع يعقوب فى كتابه (فقه اللغة العربية وخصائصها) فيما يتعلق بهذا الموضوع من حقائق تاريخية ونحوها ، نظرا لندرة المصادر والمراجع تحت يدى إبان تحريره ، فله منى جزيل الشكر ، وجزاه الله عن العلم واللغة العربية خير الجزاء . المؤلف .

الهجرى ، حيث ألف الكسائى[1] كتابا سماه (لحن العام) ، كما ألف أبو عبيدة كتابا سماه أيضا (لحن العامة) ، وألف أبو هلال العسكرى كتابا سماه (لحن الخاصة) ؛ ولكن هؤلاء العلماء الأوائل لم يكونوا يقصدون -من تأليف هذه الكتب - إلى الدعوة الى نشر اللهجة العامية ، أو اتخاذها بديلا للفصحى ، وإنما كان هدفهم التنبيه الى ما يقع فيه العامة والخاصة من لحن وأخطاء وتحريف ودخيل ، حتى تظل الفصحى على نقائها وصفائها[2] .

ولكن فى العصر الحديث ، نجد التفكير فى العامية ، والاهتمام بها ، يسير فى اتجاه مضاد لما كان عليه لدى العلماء الأوائل ، حيث يقوم الان على اخراج اللغة الفصحى ، وإحلال العامية محلها ، إلا أن هذا التفكير العصرى لم يكشف عن نواياه ، ولم يفصح عن مكنون صدره من أول وهله ، وإنما مر بمراحل أسلمته - فى النهاية - إلى المناداة صراحة بإحلال العامية محل الفصحى .

فقد بدأ بالدعوة التى وجهها أنطون سعادة[3] ، وفحواها السمو بالعامية الى مستوى اللغة الفصحى ، بحيث تتخذ مختلف الوسائل ، كى يتكلم الناس العربية الفصحى فى جميع شئونهم ، وبذلك تصبح اللغة الفصحى لغة طبيعية تنتقل من السلف الى الخلف عن طريق التقليد ، فلا يقضى التلميذ فى تعلمها إلا وقتا يسيرا ، يتفرغ بعده الى حقائق العلوم وشئون الحياة[4] .

ثم تلتها دعوة أخرى فى مصر ، تدعو الى نوع من الملاقاة أو التوحيد بين الفصحى والعامية ، ويتم ذلك بأخذ ما يستطاع اخذه من كل منها[5] .

(١) على بن حمزة ، إمام فى اللغة والنحو والقراءات ، من أهل الكوفة ، ألف : معانى القرآن ، والمصادر ، والنوادر ، والمتشابه فى القرآن ، توفى سنة ١٩١ هجرية . (الأعلام : ٤ / ٢٨٣) .

(٢) فقه اللغة العربية وخصائصها : ١٥١ .

(٣) مؤسس الحزب السورى القومى الاجتماعى .

(٤) نحو عربية ميسرة لأنيس فريحة : ١٧١ .

(٥) انظر : البلاغة العصرية واللغة العربية لسلامة موسى : ٤٤ .

وبعدها ظهرت فى مصر أيضا دعوة أخرى ، اتحدت مع سابقتها فى الهدف والجوهر ، وإن اختلفت فى الأسلوب والطريقة ؛ تدور حول خلق لهجة عربية مشتركة . وهى لغة عربية صرفة ، مشتركة بين الشعوب العربية ، خلفتها عوامل ثقافية ، واجتماعية ، وسياسية على مدى الثلاثين سنة الاخيرة ، وهى اللغة العربية المحلية فى الجامعات العربية فى مصر ، ودمشق ، وبغداد ، وبيروت ، وهى لغة النادى والصالون ، وهى التى يتكلم بها المثقفون من المصريين ، والسوريين ، والعراقيين ، واللبنانيين ، والفلسطينيين عندما يضمهم مجتمع واحد ، وهى لغة المجتمع العربى الراقى ، التى خلقتها المدرسة ، والصحافة ، والإذاعة ، والسياحة ، والمصايف ، والتجارة ، والتقارب السياسى ، والتعاون الاجتماعى ؛ وهذه اللغة يطلق عليها أنيس قريحة اسم (اللهجة العربية المحلية المشتركة) أو (لغة المتأدبين فى جميع الأقطار العربية) أو (لغة مثقفى العرب)[١] ، وسماها الدكتور ابراهيم أنيس (لغة المثقفين المصريين)[٢] ، وسماها ساطع الحصرى (اللغة المتوسطة) ، وسماها توفيق الحكيم (اللغة الثالثة)[٣] ، وسماها يوسف الخال (اللغة العربية الحديثة)[٤] ؛ وممن حملوا لواء الدعوة الى هذه اللغة المشتركة : سلامة موسى . واسماعيل القبانى ، وعبد العزيز القوصى ، والدكتور ابراهيم بيومى مدكور .

ثم كانت هناك دعوة أخرى ، ماتت فى مهدها ، حيث لم يكتب لها البقاء ، نظرا لما يكتنفها من شطط وغلو ، حيث كانت تدعو إلى إطراح اللغة العربية كلية - الفصحى منها والعامية - والاستعاضة عنها بلغة أجنبية - كما يرى صاحب الدعوة أمين الشميل - لغة تحيينا علميا وثقافيا واقتصاديا ، لأن

---

(١) نحو عربية ميسرة : ١٨٣ .

(٢) محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة للدكتور ابراهيم أنيس : ٦٦ .

(٣) من فنون الأدب : المسرحية والشعر للدكتور عبد القادر القط : ٤٠ .

(٤) جريدة النهار اللبنانية ، العدد ١٣٩٠٣ فى ١٩٧٩/٥/٢٥ .

اللغة العربية - فى نظره - سائرة نحو الموت[١] ، ولكن هذه الدعوة لبعدها عن الواقع ، لم يلتفت إليها أحد ، وذهبت كصرخه فى وادٍ .

ثم جاء بيت القصيد ، وهو الهدف الأساسى ، والهدف المنشور من كل ما وجه للغة العربية فى صورة (ظاهرة الاعراب) من نقد وتفنيد ، وماثار حولها من لغط وتشويش . وهو الدعوة الصريحة الى العامية ، واتخاذها بديلا عن الفصحى فى العلوم والآداب ، وفى مختلف الشئون التى تستخدم فيها اللغة الفصحى وليس أدل على أنها لا تدعو الى هدف نبيل ، ولا على غرض شريف ، من أن المتربعين على قمة هذه الدعوة نفر لا يمتون الى العربية بصلة ولا يربطهم بالاسلام أدنى سبب .

فقد تصدر هذه الدعوة سنة ١٨٨٠ ميلادية المستشرق الالمانى ويلهلم سبيتا Dr. Wilhelm Spitta[٢] الذى كان يعمل وقتئذ مديرا لدار الكتب المصرية ، حيث الف كتابا بعنوان (قواعد العربية العامية فى مصر) دعا فيه إلى إحلال العامية محل اللغة الفصحى[٣] .

وبعد عام واحد من الدعوة التى أصدرها (سبيتا) ، تبنت مجلة (المقتطف) القاهرية نشر هذه الدعوة حيث صدر العدد السادس منها فى نوفمبر سنة ١٨٨١ ميلادية يحمل عنوانا يقول (اللغة العربية والنجاح) دعت فيه إلى كتابه العلوم باللغة التي يتكلمها الناس فى حياتهم العامة ، بدعوى أن الخلاف بين لغة المنطق ولغة الكتابة ، هو علة تأخر العرب ، ثم دعت رجال

---

(١) مجلة التبكيت والتنكيت القاهرية ، العدد الخامس فى ١٩٨١/٧/١٠ .

(٢) متخصص فى اللغات الشرقية ، ولد سنة ١٨٥٣ ميلادية ، نال شهادة الدكتوراه من جامعة ليبريج فى (تاريخ أبى الحسن الاشعرى ومذهبه) ، عمل مديرا لدار الكتب المصرية ، ألف قواعد اللغة العامية فى مصر ، وتاريخ أبى الحسن الاشعرى ومذهبه ، كما عمل فهرسا للمخطوطات المصرية فى دار الكتب المصرية ، توفى سنة ١٨٨٣ ميلادية .

(٣) انظر : لغتنا والحياة للدكتورة عائشة عبد الرحمن : ١٠٠ .

الفكر الى بحث اقتراحها ومناقشته[١] ؛ وقد انقسم رجال الفكر حيال هذه الدعوة فريقيين :

حيث صدر العدد التالى من المجلة نفسها ، وهو العدد السابع الذى صدر فى ديسمبر من العام نفسه ، يحمل ردا للشيخ خليل البازجى تحت العنوان نفسه (اللغة العربية والنجاح) يعارض فيه هذه الدعوة معارضه شديدة ، موضحا الأضرار التى تنجم عن استخدام العامية فى العلوم والآداب ، ومنددا بدعوى أن الخلاف بين لغة المنطق ولغة الكتابة هو علة تأخر العرب[٢] .

كما صدر العدد التالى من المجلة نفسها - الثامن - فى يناير سنة ١٨٨٢ ميلادية ، يحمل مقالا بعنوان (مستقبل اللغة العربية) بتوقيع مستعار هو (الممكن) يؤيد فيه الدعوة الى العامية ، ويباركها ، ونبأ فيه بأن العامية هى لغة المستقبل[٣] .

وفى شهر فبراير من العام نفسه ، صدر العدد التاسع من المجلة نفسها ، يتضمن مقالا يحمل عنوان (استحالة الممكن إذا امكن) لأسعد داغر ، يؤيد فيه الدعوة الى استخدام العامية فى العلوم والآداب ، ويتحمس لها ، ويبرز ما تنطوى عليه من فوائد جمة للدارسين والمثقفين ، وللأمة ككل[٤] .

وفى عام ١٨٩٣ ميلادية ألقى وليم ولكوكس William Willcoks وهو مهندس زراعي انجليزى محاضرة فى نادى الازبكية بالقاهرة عنوانها (لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟!) عزا فيها سبب عدم وجود هذه القوة الى استخدام المصريين اللغة العربية الفصحى فى الكتابة والقراءة ،

(١) مجلة (المقتطف) المصرية ، عدد نوفمبر ١٨٨١ ميلادية : ٣٥٢ - ٣٥٤ .
(٢) المصدر السابق : ديسمبر ١٨٨١ ميلادية : ٤٠٤ .
(٣) مجلة (المتقطف) ، يناير ١٨٨٢ ميلادية : ٤٩٤ .
(٤) المصدر نفسه . فبراير ١٨٨٢ ميلادية : ٥٥٦ .

ونصح بنبذ الفصحى لصعوبتها وجمودها واستخدام اللغة العامية فى كتابة العلوم والآداب[1] .

ثم ألف سللون ولمور J. Seldon Willmore وهو قاض انجليزى كان يعمل بالمحاكم المختلطة فى مصر آنذاك كتابا صدر سنة ١٩٠١ ميلادية باللغة الانجليزية بعنوان (اللغة المحلية فى مصر) دعا فيه الى الاقتصار على اللغة العامية ، كأداة للكتابة والحديث ، ومن ثم اطراح اللغة الفصحى[2] .

وبعده بعام واحد . أى عام ١٩٠٢ ميلادية ، كتب اسكندر المعلوف[3] الى مجلة (الهلال) يقول : « إنى اشتغلت بالعامية كثيرا ، حتى انتهيت الى الايمان بصحتها ، ووجوب تدعيمها ، واقرارها ، وأمل أن أرى الصحف اليومية العربية قد غيرت لغتها ، وبالاخص مجلة (الهلال) »[4] .

وبعد ، ألا يتضح من تطور هذه الدعوة الى العامية ، وتتبع مراحلها ، واضطلاع ثلاثة من الغربيين بعبء بثها ، ونشرها ، وتكثيف الجهود لاقناع المفكرين بها ، حتى أمكن اجتذاب عدد لا بأس به من أرباب العلم والفكر الى صفوفها ، وتأييدها ، وتدعيمها ، ألا يتضح من كل هذا ، أنها كانت دعوة منظمة تهدف الى القضاء على اللغة العربية الفصحى ، التى هى لغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، كما أنها أساس الوحدة الوطنية ، وعامل اجتماع شمل الأمة العربية ؟! .

---

(١) نشر نص محاضرة (ولكلوكس) بمجلة الازهر بمصر فى العدد الأول من السنة السادسة : ١ - ١٠ .

(٢) انظر : تاريخ الدعوة الى العامية وأثرها فى مصر لنفوسه زكريا سعيد : ١٠٩ .

(٣) محام البنانى ، ولوفى كفر عقاب بلبنان سنة ١٨٤٩ ميلادية ، درس فى مدرسة مار الياس الأرثوذكسية فى شويا بلبنان وعلى يد فقهاء دمشق ، توفى سنة ١٩٠١ ميلادية . (فقه اللغة العربية وخصائصها) : ١٥٢ .

(٤) اللغة الفصحى واللغة العامية لاسكندر والمعلوف : ٣٧٣ - ٣٧٧ .

وفى عام ١٩١٣ كتب احمد لطفى السيد[١] فى موضوع « تمصير اللغة العربية » سبع مقالات ، نشرها تباعا فى صحيفة (الجريدة) القاهرية علي مدى الاعداد ٦ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٠ الصادرة فى شهر ابريل ، ١ ، ٤ الصادرين فى شهر مايو سنة ١٩١٣ ميلادية ، وقد ذهب فيها الى أن الطريقة الوحيدة لاحياء اللغة العربية ، هى إحياء لغة الرأى العام من ناحية ، وارضاء لغة القرآن من ناحية اخرى ، وذلك باستخدام العامية فى الكتابة ، ولقد كان لهذه الدعوة صدى كبير فى أوساط المفكرين المصريين ، حيث انقسموا حيالها - بين مؤيد للفكرة ، ومعارض لها[٢] .

ثم أصدر الأب ما رون غصن[٣] سنة ١٩٢٥ ميلادية كتابا سماه (درس ومطالعة) تنبأ فيه بموت اللغة الفصحى ، قياسا على ما عرفه من تاريخ اللغتين اليونانية واللاتينية ، ودعا الى الكتابة بالعامية السورية[٤] .

وفي عام ١٩٥٥ ميلادية أصدر أنيس فريحة[٥] كتابا سماه (نحو عربية ميسرة) ودعا فيه الى أن يصبح للعرب لغة واحدة ، هى لغة الحياة ، معتبرا أن اللغة الفصحى هى لغة أجيال مضى عهدها ، وهى بالتالى عاجزة عن أن تعبر عن الحياة وتطورها ، أما العامية فلغة حية متطورة نامية ، تتميز بصفات تجعل منها أداة طيعة للفهم والإفهام ، وللتعبير عن دواخل النفس[٦] .

---

(١) سياسى مصرى ، ولد سنة ١٨٧٢ ميلادية ، تولي وزارة الخارجية سنة ١٩٤٦ ميلادية ، كما تولى رئاسة مجمع اللغة العربية المصرى ، له العديد من المقالات فى السياسة واللغة والادب ، ألف (قصة حياتى) ، توفى سنة ١٩٦٣ ميلادية . (فقه اللغة العربية وخصائصها : ١٥٣) .

(٢) انظر : تاريخ الدعوة الى العامية وأثرها فى مصر : ١٣٦ - ١٤٣ .

(٣) كاهن وأديب لبنانى ، ولد سنة ١٨٨١ ميلادية ، ألف : حياة اللغات وموتها ، ودرس ومطالعة ، ومحاضرات فى الزواج ، توفى سنة ١٩٤٥ ميلادية . (مصادر الدراسة الادبية ليوسف واغر : ٣/ ٩٢٣) .

(٤) فقه اللغة العربية وخصائصها : ١٥٣ .

(٥) راجع ترجمته ص .

(٦) نحو عربية ميسرة : ١١٧ .

وبعد هذا العرض الموجز لأبرز الدعوات التى قامت تدعو الى نبذ اللغة الفصحى ، وإحلال العامية محلها . كلغة للفكر والأدب ، نخلص إلى ما استخلصه الدكتور - إميل بديع يعقوب من الاسس التى يدعى أصحاب هذه الدعوات أنهم يستندون اليها فى دعواهم وهى :

١ - إن اللغة الفصحى لغة أجيال مضى عهدها ، تعجز عن التعبير عن الحياة ، وهى بالتالى صعبة التعلم والتعليم ، لصعوبة نحوها ، وصوفها ، ومفرداتها ، بخلاف العامية التى هى لغة سهلة ، تسيل على الالسن بلا عسر ، ولا تصنع ، وذلك لخلوها من الاعراب ، ومن الالفاظ الحوشية والوحشية المائتة ، ومن المترادفات ، والاضداد الكثيرة ، ولمرونتها فى قبول الكلمات الاجنبية بلفظها الاعجمى ، وليلها أخيرا الى إطلاق القياس فى الاشتقاق مما يجعلها صالحة للنمو والتوسع[1] .

٢ - إن ثمة مسلمين كثيرين ، لا يتخذون العربية وسيلة للتعبير نطقا أو كتابه ؛ ومن ثم لا مسوغ لتعلق المسلمين بها ، أما لغة القرآن فتبقى من اختصاص رجال الدين ، والاختصاصيين اللغويين[2] .

٣ - إن فى اعتماد العامية اقتصادا لوقت طويل وثمين ، يهدر فى تعلم الفصحى وأحكامها[3] .

٤ - إن من أهم أسباب تخلف العرب ، اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابه ، وعليه فاعتماد العامية كفيل بالقضاء على هذا التخلف ، وعلى سلبيات ثنائية اللغة عند العرب[4] .

* وبعد ، فإن كان لنا كلمة تختم بها الحديث عن الدعوة الى اطراح اللغة الفصحى ، واتخاذ العامية بديلا لها كلغة للكتابة والعلوم والاداب ، فلا أكثر

---

(١) نحو عربية ميسرة : ١١٧ .

(٢) اللغة الفصحى واللغة العامية لاسكندر المعلوف : ٣٧٣ .

(٣) مقدمة لدرس لغة العرب لعبد الله العلايلى : ٩٩ .

(٤) محاضرة وليم ولكوكس (لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين).

من أن ننبه الى أن هذه الدعوة النكراء الشوهاء ، لاهدف من ورائها إلا القضاء على اللغة الفصحى التى هى الوسيلة الوحيدة للتواصل والترابط بين الشعوب العربية والاسلامية فى العالم وأن تنزوى فى زاوية النسيان ، وركن من أركان الاهمال ، بأن تقتصر على رجال الدين ، فتصبح لغة الكهنوت ، كاللغة القبطية عند المسيحيين ، واللغة العبرية عند اليهود ، كما تصبح مقصورة على البحوث اللغوية - وما أندرها - كما أن شأنها فى ذلك شأن العملية التشريحية لجسد ميت !!.

ولا يبقي لدينا ما تقدمه لأصحاب هذه الدعوة ومؤيديها ، سوى أن ندعو من بقى منهم على قيد الحياة الى النظر الى وضع الامور من حولهم ، ليروا بعينى رءوسهم ما آل اليه أمر دعوتهم ، وفى أى السلال ألقيت الاوراق التى سودوها بأفكارهم التى لا تساوى ما أنفق فيها من المداد ؛ فها هى ذى اللغة الفصحى ما تزال - رغم ما سدد اليها من سهام ، وما صوب اليها من حراب - تقف شامخه صلبة ، موفوعة الرأس ، قوية الأركان ، وترتكز على أهم خصائصها ، وأبرز ميزاتها ، وهي (ظاهرة الاعراب) ، فهي لغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

* أما ما يمكن أن يقدم من علاج لما يرتبط باللغة الفصحى من صعوبة فى التعلم ، ومشقة فى الاحاطة بقواعدها واعرابها ، فيكمن فيما يلى :

أولا : إعداد مناهج تدريس اللغة العربية إعدادا جيداً ، بحيث تتناسب مع كل مرحلة من مراحل التعليم ، على أن يتدرج منهج الدراسة اللغوية من المرحلة الابتدائية ، ثم تسلم كل مرحلة الى المرحلة التى تليها ، حتى إذا تخرج الطالب فى الكلية المتخصصة فى تعليم اللغة العربية ، كان ملما إلماما تاما بها ، محيطا بكل قواعدها ، دون ماعنت ومشقة .

---

(١) سورة الحجر : من الآية ١٩ .

ثانيا : إذا سلك الطالب اتجاها تعليميا آخر غير التخصص فى اللغة العربية، كان ما درسه منها حتى المرحلة الثانوية كفيلا بتقويم لسانه ، عاصما اياه من الخطأ والذلل .

ثالثا : اعداد معلم اللغة العربية اعدادا تربويا سليما ، حتى يتسنى له التعامل مع عقليات التلاميذ فى المرحلة التى يناطبه التدريس فيها ، وتدريبه تدريبا جيدا على ادارة الفصل ، والتحكم فيه ، واشاعة البهجة والمتعة لدى التلاميذ ؛ لأن اقبال التلاميذ على استيعاب المادة إنما هو نتيجة لتفاعلهم عقليا وعاطفيا ونفسيا مع استاذ المادة .

رابعا : الاهتمام الزائد بالكتاب المدرسى ، من حيث التأليف ، والطبع والاخراج ، بحيث يثير شغف التلاميذ ، ويجذب انتباههم ، ويبث فيهم الميل ، الى القراءة والاستذكاء دون ملل أو سأم .

خامسا : التدريبات المتواصلة ، والتطبيقات المستمرة علي ما يدرسه التلاميذ نظريا ، حتى ترسخ القواعد فى أذهانهم ، وتستقر المعلومات فى عقولهم .

سادسا : تكليف التلاميذ بكتابه العديد من موضوعات التعبير واعداد البحوث المتنوعة ، ثم العمل علي تصحيحها مع التلاميذ اسلوبيا وقاعديا ، حتى يتعرفوا على الأساليب المختارة ، والعبارات المنتقه ونبذ العبارات الركيكة المبتذلة ، التى تمجها النفس ، ويعافها الذوق .

هذا - وبالله التوفيق .

صلاح رواى

الفهارس الفنية

أ) فهرس الأعلام

ب) فهرس المحتوى

جـ) فهرس المراجع والمصادر



فهرس الأعلام*

* مرتبًا ترتيبًا أبجديًا بحسب الشهرة ، دون النظر إلى أداة التعريف أو (أب) أو (أم) أو (ابن) ؛ وكل رقم مقرون بهذه النجمة (*) إنما يعنى الصفحة التى تحوى ترجمة الشخص .

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(ى)

ب) فهرس المحتوى

الباب الثانى

اللغة العربية

(٩٧-١٥٤)

الباب الثالث

عوامل النمو والتوسع فى اللغة العربية

(١٥٧ - ٢٦٢)

الفهارس الفنية

جـ) مصادر الدراسة ومراجعها

١ – القرآن الكريم

٢ – التوراة (العهد القديم)

٣ – آراء فى العربية — عامر رشيد السامرائى — مكتبة النهضة ببغداد ١٩٦٢

٤ – أبحاث فى اللغة العربية — داود عبده — مكتبة لبنان – بيروت ١٩٧٣

٦ – الإحكام فى أصول الأحكام — الآمدى — مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩١٤

٧ – إحياء النحو — إبراهيم مصطفى — لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٨

٨ – الأشباه والنظائر — جلال الدين السيوطى — تحقيق طه عبد الرؤف — شركة الطباعة الفنية بالقاهرة ١٩٧٥

٩ – الاشتقاق — عبدالله أمين — لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨

١٠ – الأصوات العربية — د / كمال بشر — مكتبة الشباب بالقاهرة

١١ – الأصوات اللغوية — د / إبراهيم أنيس — مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧١

١٢ – الأضداد — الأصمعى — المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٢

١٣ – الأضداد — ابن الأنبارى — تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم — الكويت ١٩٦٠

١٤ – الأضداد — ابن السكيت — المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٢

١٥ – الأضداد — الصغانى — المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٢

١٦ – الأضداد فى كلام العرب — أبوالطيب اللغوى — تحقيق د . عزة حسن — دمشق ١٩٦٣

١٧ – الأعلام — خير الدين الزركلى — دار العلم للملايين ببيروت ١٩٥٠

١٨ – الألفاظ المترادفة — الرمانى – شرح الرافعى — مطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٣٢١ هـ

١٩ – الأمالى — أبوعلى القالى — طبعة دار التحرير بالقاهرة

٢٠ – الأمالى الشجرية — ابن الشجرى — طبعة حيدر آباد بالهند

٢١ – إنباه الرواة على أنباه النحاة — القفطى — تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم — طبعة دار الكتب بالقاهرة

٢٢ – الأمالى — الشريف المرتضى — تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم — طبعة الحلبى بالقاهرة

٢٣ – الإيضاح فى علل النحو — الزجاجى – تحقيق مازن المبارك — دار الفكر ببيروت ١٩٧٤

٢٤ – بغية الوعاة فى طبقات اللغويين النحاة — جلال الدين السيوطى — تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم — طبعة الحلبى بالقاهرة

٢٥ – البلاغة العصرية واللغة العربية — سلامة موسى — سلامة موسى للنشر والتوزيع بالقاهرة ١٩٦٤

٢٦ – تاريخ آداب العرب — مصطفى صادق الرافعى — الوحدة ١٩١١

٢٧ – تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها فى مصر — نفوسة زكريا سعيد — دار نشر الثقافة بمصر ١٩٦٤

٢٨ – تاريخ اللغات السامية — د / إسرائيل ولفنسون — القاهرة ١٩٢٩

٢٩ – تبسيط قواعد اللغة العربية — أنيس فريحة — دار الكتاب اللبنانى ببيروت ١٩٥٩

٣٠ – الترادف فى اللغة — حاكم مالك الزيادى — طبعة دار الحرية ببغداد ١٩٨٠

٣٢ – تفسير الخازن — عبدالله النسفى — دار المعرفة ببيروت

٣٢ – ثنائية الألفاظ — د / أمين فاخر — مطبعة الكليات الأزهرية بالقاهرة

٣٣ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب — عبدالقدر البغدادى، تحقيق عبدالسلام هارون — دار العلم بالقاهرة

٣٤ – الخصائص — ابن جنى – تحقيق محمد على النجار — دار الكتب بالقاهرة ١٩٥٢

٣٥ – دراسات فى فقه اللغة — د / صبحى الصالح — مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠

٣٦ – الدرر اللوامع — الشنقيطى — دار المعرفة ببيروت ١٩٧٣

٣٧ – دلالة الألفاظ — د / إبراهيم أنيس — مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٨

٣٨ – الرد على النحاة — ابن مضاء، تحقيق د / شوقى ضيف — دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٤٧

٣٩ – الرد على النحاة — ابن مضاء، تحقيق د / محمد إبراهيم البنا — دار الاعتصام بالقاهرة

٤٠ – سر صناعة الإعراب — ابن جنى، تحقيق مصطفى السقا وآخرين — مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٩٥٤

٤١ – شرح أدب الكاتب — الجواليقى – تعليق الرافعى — مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٠ هـ

٤٢ – شرح التسويل — ابن مالك، تحقيق د / عبدالرحمن السيد وآخر — دار هجر للنشر والتوزيع بالقاهرة

٤٣ – شرح مقاصد الألفية — محمود العينى — بهامش حاشية الصبان على الأشمونى

٤٤ – شرح المفصل — ابن يعيش — المطبعة المنيرية بالقاهرة

٤٦ – شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل — شهاب الدين الخفاجى، تحقيق د / محمد عبدالمنعم خفاجى — القاهرة ١٩٥٢

الكتاب	المؤلف	الناشر
٤٧ – الصاحبي في فقه اللغة	ابن فارس – تحقيق السيد صقر	مطبعة الحلبي بالقاهرة ١١٧٧
٤٨ – ضحى الإسلام	أحمد أمين	دار الكتاب العربي ببيروت
٥٠ – طبقات فحول الشعراء	ابن سلام الجمحي	القاهرة ١٩٧٤
٥٢ – علم اللغة	د / علي عبدالواحد وافي	مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ١١٦٢
٥٣ – علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة	د / محمود فهمي حجازي	المكتبة الثقافية بالقاهرة
٥٤ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده	ابن رشيق تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد	دار الجيل – بيروت ١٩٧٢
٥٥ – عوامل التطور اللغوي	د / أحمد حماد	دار الأندلس ببيروت ١٤٠٣ هـ
٥٦ – الفروق اللغوية	أبو هلال العكري	مكتبة القدس بالقاهرة ١٩٦٢
٥٧ – فقه اللغة	د / علي عبدالواحد وافي	لجنة البيان العربي بالقاهرة ١١٦٢
٥٨ – فقه اللغة العربية وخصائصها	د / أميل بديع يعقوب	دار العلم للملايين ١٩٨٢
٥٩ – فقه اللغة في الكتب العربية	د / عبده الراجحي	دار النهضة العربية ببيروت ١٩٧٢
٦٠ – فقه اللغة وسر العربية	أبومنصور الثعالبي	المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧ هـ
٦١ – فقه اللغة	د / إبراهيم نجا الإبياري	مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٧٤
٦٢ – فقه اللغة وخصائص العربية	د . محمد مبارك	مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠
٦٣ – في الأدب الجاهلي	د / طه حسين	دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٢
٦٤ – في أصول اللغة والنحو	د / فؤاد حنا ترزي	مطبعة دار الكتب ببيروت ١٩٦٩
٦٥ – في فقه اللغة العربية	د / ناجح عبدالحافظ مبروك	مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٨٥
٦٦ – في اللهجات العربية	د / إبراهيم أنيس	مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٦٥
٦٧ – القياس في اللغة العربية	الشيخ محمد الخضر حسين	مطبعة الرسالة بالقاهرة
٦٨ – الكتاب	سيبويه – تحقيق عبدالسلام هارون	مطبعة دار العلم بالقاهرة ١٩٧٩
٦٩ – كتاب النخل والكرم	الأصمعي نشر أوغست هفنر	ضمن البلغة في شئون اللغة
٧٠ – كشاف اصطلاحات الفنون	التهانوي تحقيق د / لطفي عبدالبديع	شركة خياط بيروت
٧١ – كلام العرب	د / حسن ظاظا	دار المعارف بالقاهرة ١٩٧١
٧٢ – لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة	د / عبدالعزيز مطر	الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٦
٧٣ – اللغة	فندريس تحقيق عبدالحميد الدواخلي وآخر	لجنة البيان العربي بالقاهرة ١٩٥٠

٧٤ – اللغة العربية المعاصرة	د / محمد كامل حسين	دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦
٧٥ – اللغة العربية فى مواجهة الحياة	د / عيد الطيب	مطبعة الأمنة بالقاهرة ١٩٨١
٧٦ – اللغة العربية فى عصور ماقبل الإسلام	أحمد شرف الدين	مطابع سجل العرب بالقاهرة ١٩٧٥
٧٧ – اللغة العربية المشتركة	د / إبراهيم أنيس	منشورات معهد جامعة الدول العربية بالقاهرة
٧٨ – لغتنا والحياة	د / عائشة عبدالرحمن	دار المعارف بالقاهرة ١٩٧١
٨٠ – اللهجات العربية	د / عبدالغفار هلال	مطبعة الجبلاوى بالقاهرة ١٩٩٠
٨١ – ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه	الأصمعى	مخطوط بمكتبة القاهرة بدمشق
٨٢ – ما اتفق لفظه واختلف معناه	المبرد – تحقيق عبدالعزيز الميمنى	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٠ هـ
٨٢ – المعارف	ابن قتيبة	دار المعارف بالقاهرة
٨٣ – المدارس المعجمية العربية	د / صلاح روّاى	دار الثقافة العربية بالقاهرة
٨٤ – المزهر فى علوم اللغة وأنواعها	السيوطى تحقيق محمد جاد المولى وآخر	مطبعة الحبى بالقاهرة
٨٥ – مفاتيح الغيب	فخر الدين الرازى	دار الفكر ببيروت ١٩٨١
٨٦ – مصادر الدراسة الأدبية	أسعد يوسف داغر	المكتبة الشرقية ببيروت ١٩٥٥
٨٧ – مصادر اللغة	د / عبدالحميد الشلقانى	مطابع جامعة الرياض بالسعودية ١٩٨٠
٨٨ – المعرب من الكلام الأعجمى	الجواليقى – تحقيق أحمد شاكر	دار الكتب المصرية ١٩٦٩
٨٩ – مفتاح العلوم	أبويعقوب السكاكى	المطبعة الميملنية بالقاهرة ١٣١٨ هـ
٩٠ – المفردات فى غريب القرآن	الراغب الأصفهانى	مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٩٦١
٩١ – مقدمة لدرس لغة العرب	عبدالله العلايلى	المطبعة العصرية بالقاهرة
٩٢ – من أسرار اللغة	د / إبراهيم أنيس	مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٢
٩٣ – من فنون الأدب	د / عبدالقادر القط	دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٥
٩٤ – من قضايا اللغة والنحو	على النجدى ناصف	مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٧
٩٥ – نحو عربية ميسرة	أنيس فريحة	دار الثقافة ببيروت ١٩٥٥
٩٦ – النوادر فى اللغة	أبوزيد الأنصارى	دار الكتاب العربى ببيروت ١٨٩٤
٩٧ – همع الهوامع	جلال الدين السيوطى تحقيق د / عبدالعال سالم الكرم	دار البحوث العلمية ببيروت
٩٨ – الوجيز فى فقه اللغة	محمد الإنطاكى	دار الشروق ببيروت ١٩٦٩
٩٩ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان	ابن خلكان – تحقيق د / إحسان عباس	دار صادر ببيروت

دواوين الشعر

١ – ديوان الحطيئة

٢ – ديوان العجاج

المعاجم اللغوية

١ – أساس البلاغة	جار الله محمود الزمخشرى
٢ – تهذيب اللغة	أبومنصور الأزهرى
٣ – جمهرة اللغة	ابن دريد
٤ – تاج اللغة وصحاح العربية	أبونصر الجوهرى
٥ – القاموس المحيط	الفيروزابادى
٦ – لسان العرب	ابن منظور
٧ – متن اللغة	الشيخ أحمد رضا
٨ – المخصص	ابن سيدة الأندلسى
٩ – المصباح المنير	الفيومى
١٠ – المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١١ – مقاييس اللغة	ابن فارس القزوينى

الداوريات

١ – جريدة النهار اللبنانية

٢ – مجلة الأزهر المصرية – العدد الأول من السنة السادسة

٣ – مجلة التبكيت والتنكيب المصرية – العدد الخامس

٤ – مجلة مجمع اللغة العربية المصرية – قرارات المجمع فى عشرين عاماً .

٥ – مجلة المقتطف المصرية – العدد السابع : ص ٥٦٤ ومابعده .

رقم الايداع بدار الكتب
٩٣ / ٥٨٢١
رقـــم د ولـــى
977-00-4849-6

دار الهانى للطباعة
ت : ٢٣١٢٠٥٥